هروب الموناليزا

بوح القيثارة

الكتاب: هروب الموناليزا

بوح القيثارة

تأليف: بلقيس حميد حسن

التنفيذ والإخراج الفني: دار صفحات

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى: 2013

عدد النسخ: 1000

عدد الصفحات: 280

قياس الكتاب: 21.5*14.5

دار ميزوبوتاميا

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد – شارع المتنبي

موبايل: 07905139941

Mazin24@ymail.com

hamawendi@yahoo.com

هروب الموناليزا

بوح القيثارة

بلقيس حميد حسن

فصل من سيرة ذاتية للكاتبة ولنساء عرفتهن في
طريق الحياة

MESOPOTAMIA
for Publication and Distribution

الفهرس

ماقبل البوح **11**
الوتر الهارب **13**
وتر سريّ **19**
وتر سومري **23**
وتري الممنوع **29**
الوتر العاشق **33**
الوتر المهاجر **45**
وترها الحزين **53**
وتر الطفولة **59**
وترها المرتجف **67**
وترها المكسور **75**
الوتر الرنان **89**
وتري المرتعب **103**
وتر منسيّ **131**
وترها المحترق **133**
وترها المهجور **143**
وترها الهائم **155**
وترها المُغتَصب **157**
وترها الغريق **169**
الوتر القتيل **181**

وترها المتمرد **193**
وترها المحبط..... **197**
وترها المسحور..... **205**
وترها الباكي..... **211**
وتري الحائر **223**
وترها الضائع..... **235**
الوتر الشهيد **257**
وتري الطليق..... **263**

الإهداء

الى ذكرى صديقتي الشهيدة"موناليزا أمين "التي
استعرت اسمها الأول حباً.

إلى المعذبين بالحب حتى آخر الزمن...

قال الخالد جبران خليل جبران:

المحبة لا تعطي إلا ذاتها.

المحبة لا تأخذ إلا من ذاتها.

المحبة تطهرنكم فتجعلكم كالثلج أنقياء..

ماقبل البوح

سنبوح، أنا وهي، وهن. سنبوح نحن نسل حواء، الخارجات إلى الدنيا من ثنايا أضلاعكم. سنبوح، لكن، حتى بوحنا لا تنتظروا أن يكون حقيقيا وتاما. وكيف يكون كذلك، ونحن ما زلنا نتعثر في وحل زيفٍ خلقتموه لنا، مازلنا نتلمس خطواتنا في عالمكم الذي ابتدعتموه، عالم الخوف والتوجس، عالم الخطوط الحمراء، منذ أن نضع خطواتنا الأولى على عتبة المنزل، تبتديء رحلة الألم.

قد تختلط عليكم شخصياتنا، كما اختلطت عليكم معرفة مشاعرنا وتحيرتم. هل نحن بشر أم اقل من بشر؟ وقد يرى بعضكم نفسه في بوحنا هذا.

هل هو خداع تعودناه منذ حواء؟ والخداع معرفة وأولها معرفة الجسد. العلم الأول والذي يحتاج لبوح بذات درجته، بوح أول ومن الدرجة الممتازة. نحن والخطيئة صنوان كما رويتم ذلك في أسطورتكم المحفورة في ذاكرة الأجيال منذ الأزل البشري. ترون لأول مرة أجسادكم بفضلنا، اما أجسادنا فقد اسميتموها عورة وصعدتم على الشجرة ناظرين الينا من علو، تركلوننا بالأقدام، وقد نهزأ منكم، أو نعشقكم، ولكنكم ستبقون خلفنا لاهثين، متعبين كالعجلة الخشبية تدورون ولن تصلوا، وماوصلنا، وقد نبقى بذات المكان وذات الصورة معا الى حين.

اليكم أوتارنا التي فاق عددها الحدّ، أنا أو هي أوهن. كلنا نمتزج ببعضنا في بوح قد يتعبكم حينما لا تعرفون من تتكلم عن ذاتها ومن تتكلم عن الأخرى. أو حين تتشابه عليكم الأزمنة والأماكن، وتختلط

عنـدكم الأمـور. آسـفة، لـيس هـدفي أن أحيركـم. وإذا أحـترتم، فلعلكـم تصلون بحيرتكم للتمعن بلحـن واحد مـن ألحـان قيثارتنـا المنسـية، علـّكم تفهموننا، فحيرتنا معكم أزلية، ووجعنا لا نهاية له..

هاكم بعض بوحنا الكاشف لأسرار الروح والجسد.

قد يكون هذا البوح ثقيلا، متلونا بلون ماتبقى من نارنا بكل لهيبها الحارق، أو غامضا، طالعا من سواد عتمة لارؤية فيها الا لبريق الدموع والعذاب.

عذرا إن أقلقت راحة البعض بخلط هذه الأوتار وتوحيدها. كل حدث فيها حقيقي إلا ماكان عابرا في أوتار القيثارة.

أكرر، لست كاتبة رواية، وقد لا أجيد فنها، إنما أنا امرأة تبوح بما عانت، وعانين من عرفتهن لا أكثر، أردت أن تـروا حياتكم وحياتنـا من أعماقها لتعرفوا ماذا صنعتم بأيديكم ..

الوتر الهارب

عيون شرطة الحدود تتشابه في كل أنحاء العالم، لهم عيون خاصة اعتادت على الارتياب الذي اعطاها تلك الخصوصية. ينظرون إليك كأنهم غير مكترثين، لكنهم حتما يقرأون ردة فعلك ويسمعون تسارع نبضات عروقك.

كان الازدحام على الحدود عظيما، وكانت فرصة العبور إلى بلد مجاور هي آخر الحلول الممكنة هربا من موت محتم، رغم أنها أصعب الحلول بل هي مجازفة كبرى حينما تعلم مسبقا أنك ممنوع من السفر بأمر الحزب والحكومة المستبدة.

كنت شابة في عمر لا زال يتلمس ملامح الناس عبر العطر والابتسامة البريئة، أردت تغيير العالم، حلمت بيوم يحتفل به الناس في كل مكان بإنهاء آخر رصاصة، انخرطت في تجمع يدافع عن حقوق المرأة في عالم إسلامي للذكر فيه مثل حظ الأنثيين وتأتي الأيام السوداء.

اليوم هو العاشر من الشهر الأول لسنة 1979. كانت الساعة هي الواحدة بعد منتصف الليل حين توقفت بنا الحافلة عند الحدود. كنت أقسمت على أن لا آكل ولا أشرب إلا بعد أن أتخطاها. مذعورة كنت من كل شيء يصادفني. أحمل في أحشائي ومنذ شهرين جنينا جاء في الزمن الصعب، جنينا حاولت إسقاطه بكل الوسائل المتاحة لي، من حمل ثقيل على ظهري، إلى الهبوط من مكان مرتفع، إلى النوم على بطني ليصعد زوجي بكل ثقله ويضغط على جسدي علّ الجنين المسكين الذي فرحتُ به وانتظرته يسقط إذ جاء موازيا لقرار الحياة أو الموت..

وجوه الناس في منطقة الحدود تنم عن شيء غامض، لكنني شعرت أن الجميع كانوا خائفين، وقد أكون أنا أكثرهم. لم أكن خائفة من الموت بقدر خوفي أن لا أوصل ما في حوزتي، فأخيب من منحني الثقة بإيصال تلك الرسالة السرية الهامة التي توجب علي إيصالها والتي لا أعلم محتواها.

وقف الناس صفاً، الكل ينتظر جوازه بعد أن أخذ السائق جميع الجوازات للتفتيش.

أين موناليزا سامي الخطيب؟

صاح الضابط الذي كان يقلّب أمامه ملفا كبيرا بعد أن وضع إصبعه على اسمي في الملف مطابقا إياه مع اسمي في الجواز.

أنا، قلت بارتباك، ثم وقفت أمامه. حدقَ مليّاً في وجهي وكأنه تفاجأ في شيء ما، تعمق بي بإعجاب عارٍ لا أحبهُ، ومرّ على تفاصيلي ببطء. انحنى بعينيه إلى أسفل جسدي وقال بلا مقدمات:

أنتِ ممنوعة من السفر.

- كيف؟ ولماذا؟

لا أدري لكن تعالي لتنظري اسمك في الملف.

اقتربت لأقرأ اسمي الثلاثي بحروف كبيرة تحتها خط أحمر. شعرت أنه يتنفس عطري ويشتهيه. ابتعدت عنه مسافة وقلت بصوت محتج:

- علّها امرأة غيري تحمل الاسم نفسه. لكنه قال متهكما:

- ومن مدينة صغيرة كمدينتك ولقب عائلتك نفسه؟ غير معقول، ثم ان اسمك ليس شائعا، قد يكون هو الاسم الوحيد في المحافظة، وفي أكثر الأحوال قد يكون أربعة أو ثلاثة منه في العراق، ثم أردف قائلا:

- اسمك ليس بالآسم الشائع مثل اسم ليلى أو زهرة ليكون منه الكثير. من المؤكد أن المقصود أنت . نادى الشرطي ليأخذ منه بعض الجوازات المسموح لأصحابها السفرَ لتوزيعها عليهم ثم التفت إلى وقال آمراً:

- عودي بالحافلات إلى بغداد، انا لا أستطيع مساعدتك بشيء.

لم يكن عدوانيا معي كما كنت أتوقع. أيكون قد أشفق علي لأنني صغيرة ولأنه قرأ في الملف أمامه أنني لم أغادر البلد من قبل؟

لأروي عذاباتي جميعها وبكل قسوتها.

كان زوجي غير ممنوع من السفر، وكم كان موقفه نبيلا حين لم يدعني أعود وحيدة، خائفة من المجهول الذي يلف حياتي، رغم الخطر الذي يهدد حياته كونه سياسيا مثلي وقد ترك عمله الوظيفي بلا عذر ودون أن يعلم أحد بمكانه بعد أن نُشر إخطاره بالعودة للوظيفة في الصحف.

ممنوعة من السفر. قلت لمن انتظر سفرنا وكان يريد الاطمئنان علينا من الأصدقاء المختبئين معنا بالمنزل السري.

هكذا عدنا لنعيش الخوف معهم في ليالٍ ظلماء تقرقع بها العظام، نختلس بها النظر من وراء الستائر المعتمة.

قذفت القلم بعصبية بعد كتابة هذه السطور متذكرة جميع النساء اللواتي قتلن، واللواتي عشقن، واللواتي تألمن، وقهرن، وسحقن، وضاعت أعمارهن بين الجدران وعتمة التقاليد بلا بوح ولا اعتراف..

أين إذن ما نخبئه بخوف؟ أين ارتجافات القلوب وشهقات الأرواح المنتظرة؟

قال أر سطو:

"العبد الحقيقي هو الذي لا يستطيع التصريح بآرائه"

فلأكتبها إذن، لأ تقمصها.

باكية كانت "سومر" وهي تتصل بي وتحكي لي قصتها ساعة عذاب وجرح. عدة مرات سألتني أن أكتب قصتها التي لم تستطع البوح بها كلحن منسي، فألحانها محاصرة، كل عذاباتها ألبستني إياها في ليالٍ طويلة، شاركتها دموعاً حارقة وقلقاً لا نهاية له، فهي امرأة القلق الدائم حتى تخرج المحارات طائرة من البحر، وهل تخرج المحارات لتطير !

سومر، الشابة العاشقة والساكنة مقابل شقتي، تعرفت اليها مع طفلتها التي طالما وصلني صوت بكائها منتصف الليل. ليس لديها علاقات مع أحد في البناية سواي، فهي من ذات البلد الذي يقهر أبناءه ويطردهم جبابرته. لم تستطع تعلم اللغة الكافية التي تؤهلها للبوح بغير لغتها. سمعتُ مرات الحاناً خارجة من بيتها، صوت عود شجي يثرثر ويبكي. أحيانا تشاركني سومر المصعد مع طفلتها الملتصقة بها التصاقاً يذكرني بالتصاق ابنة عمتي الوحيدة بأمها، حتى انني لا أتخيل صورة عمتي دون ابنتها الطالعة منها كيدٍ او رجلٍ ثالثة.

أتذكرسومر حينما تصر على الخلاص من عبوديتها في الحب وتنتفض لساعات، تعود بعدها تبكي حبيبها، أو زوجها السرّي، وتعشقه من جديد.

سأكتبها سأكون قلمها، لسانها، قلبها وفكرها. سأكتب حياتها أوتارا أمزجها بأوتار حياتي ومعاناتي، وحدودكم وممنوعاتكم. سأمتزج بها لنكون عودا واحداً مربكا ومنهكاً كعودها الذي تحب، كطفلتها، فهي

أو أنا كلانا مقهورة من سلطة رجل، أو تقليد وضعوه لنا منذ القدم، أو سلطة دولة، وقوانين وأعراف وأديان قولبتنا. سأكونها حتى لو صعب على القاريء فهم من هي ومن أنا.

كم أكدت لي انها ستفصح له كل ما في داخلها، غدا، عندما ستراه، ولكن، حين تلتقيه، تعشقه، تسامحه ولا تقول إلا ما يرضيه. سأبوح بما لم تبح به قيثارتها، أقول ما أسرتني به في لياليها الطوال، وحيدة وغريبة، يعصر الأرق شبابها ويهدها سنة بعد أخرى.

لأكتب الجزء المخبأ عن العالم والذي لا يعترف به الناس. لابد أن يعلموا كل ما نعانيه بصمت، و كل ما يحتقرونه فينا ويرونه دونيا، من رغبة الروح حتى رغبة الجسد.

وتر سريّ

حاولت أن أنام، دون جدوى، تقلبت كثيرا في الفراش، حاولت طرد كل ما يؤرقني لكن الرأس اللعين أبى إلا أن يفكر، فلجأت كعادتي لعلاجي الأخير للقلق. مددت يدي إلى أسفل بطني، تلمست عصفوري وأخذت أداعبه وأتذكر ...

عمري الآن يفترب من الأربعين، ولازالت رائحة الغرفة التي لم أدخلها ابداً حاضرة في مخيلتي. كنت أعبر الممر المظلم دائما، المكسور مصباحه غالب الأحيان. ماكنت- وأنا الطفلة- أعلم أن كسر المصباح كان متعمدا من أحد ساكني المنزل. أشمّ في ممر جيراننا ذاك رائحة تنبعث من الغرفة المسدلة الستارة أو المقفلة أبدا، رائحة صارت بذاكرتي رائحة غريبة. قد تكون حاسة الشم هي الأسرع باستحضار الزمن قبل غيرها من الحواس.

ما خلف الستارة كان يشدني ويثير في حب الفضول، كالسرّ في الأساطير أو كالغرفة الأربعين التي لا يسمح بفتحها إلا لكبير اللصوص في قصص علي بابا والأربعين حرامي، بل هي الشجرة المحرم على حواء وآدم تذوقها .

حين يريد أحدٌ من العائلة التحدث لربها الماكث في هذه الغرفة أو إعطاءه الطعام يطرق باب الغرفة استئذانا . أتخيل ما يكون وراء هذا الباب حين أسمع من الناس في المنطقة أن هذا الرجل والذي هو زوج لامرأتين ينام مع الشباب الصغار، يمارس الجنس معهم ولا يقرب

زوجتيه بعد أن أنجبتا كل واحدة منهما ثلاث أولاد . أولاده الذين شبوا ومعهم رعب من كلمة بابا .

كانت قسوته معهم تجعلهم يرتجفون حين سماع المفتاح يدور بباب المنزل ليفتحه هو مع سعال يعلن عن قدومه، أولاده الذين اصبحوا حينما كبروا مثليين جميعا، وكأنهم يردون على أبيهم.

تذكرت حينما اجتزت يوما ذاك الممر، سمعت صوت شاب يقول بصوت مرتجف:

- أخاف.. لكن الرجل يطمئنه قائلا:

- لا تخف، لاشيء يؤلم، دع عنك هذا اللباس، إننا نلعب وسترى كم اللعبة جميلة، سأعطيك ما تريد من الدراهم.

تصورت أول الأمر أنها لعبة حقا، وانتظرت أن أسمع أكثر، لكني لم أحظ سوى ببعض الأنفاس المتسارعة والأصوات الخافتة غير المفهومة. أسرعت لأمي راكضة أخبرها ما سمعت.

تفاجأت أمي بما سمعت على لساني، لكنها كعادتها نهرتني، فعلمت أن هناك ما هو أخطر من مجرد لعبة بين اثنين، شيء ما يُخبأ عني، تأكدت منه تلك اللحظة حين أسرّته أمي لعمّتي بصوت مستنكرٍ خافتٍ وهي تتلفت كي لا يسمعها أحد، ثم رافعة صوتها متوجهة ليَ محذرة اياي من الذهاب الى بيتهم وحدي مرة أخرى.

كنت طفلة وكان الرجل يرمقني بابتسامة عذبة، أراه قريبا للقلب.

لماذا لم أحاول مرة واحدة رفع الستارة لأرى شيئا من عالمه المستور؟

لماذا لم أحاول لمس ذاك الرجل الذي أراه مختلفا؟ رجل بعمر أبي، مليء بالحيوية، فيه ما يختلف عن الرجال، سر ربما خمنتهُ عندما سمعت انه أنهى عادة النوم مع النساء منذ إنجاب آخر ولد له والذي هو في عمري، ولده الذي كان يلعب معي أحيانا لعبة"العروس والعريس"، ويداعب عصفوري بفرح. كنت لا أشعر بشوق كبير لهذه اللعبة، لكني حين يطلب أن يلعبها معي لا أمانع، فأضطجع معه فوق السطح وأترك يده تبحث عن عصفوري الأمرد . كنت أجد اللعبة كما التبول، وما كنت أعلم أنها لعبة ممنوعة ومرفوضة من قبل الكبار.

الآن أستحضر رائحة الغرفة، رائحة الجنس المجهول، أتخيل نفسي طفلة في الثامنة من عمري. أضطجع في الفراش، ألامس جسدي الناعم فيثيرني ذلك، أتخيل أنني أدخل الغرفة اياها، أرى ذلك الرجل مع شاب يافع، يقبله بحنو، يلتصق به بإعجاب مثير، ثم أتخيله يلتفت ألي، يعاملني بود، يرفع ثوبي، يمد يده لعصفوري، يسألني ما هذا؟

أستحي أن أجيب، أبقى صامتة وهو يتوسل بي ويداعبني، يكرر السؤال، يتعمق بأصابعه الممتلئة الدافئة، أشم عطر الغرفة... انني أشمها فعلا، تصل الإثارة اقصاها فأمد إصبعي متخيلته إصبعه، أموء كالقطة في فراشي، تصدر مني أصوات طفلة صغيرة، ثم تنتشر الإثارة في جسدي، يتركني هو في إثارتي، أتقرب إليه، يقترب، يبدع في اللعبة، يستعير أصابعي، أتهالك، أواظب على التخيل، وأبقى أشم رائحة الغرفة حتى أنتهي.

قد أنام بعد هذا وأخمد...

حاولت قبل يومين استحضار الرائحة حينما كانت الستارة مفتوحة والغرفة مضاءة فلم أفلح، أسرعت لتعتيم الغرفة وبدء الحفل.

وتر سومري

يقول المثل الإنكليزي:

"ليس المهم أن تعرف سبب الدموع، لكن المهم أن تعرف كيف تمسحها"..

تأتيني سومر باكية طالبة مني أن أكتبها. أطلب منها الجلوس على الأريكة، لكنها تنهار على الأرض من شدة الحزن. تبكي واضعة طفلتها في حجرها طالبة من السماء أن تنهي حياتها. تمسح دموعها وتأمرني بكتابة فجيعتها، قائلة أكتبي أرجوك:

لقد قررت أن أنفض عني عبوديتي له، بل كل عبودية ذقتها بحياتي.

ليتني عركت الكتابة كما عركت الموسيقى الشرقية، وليت القلم وترٌ أعزف عليه، بل ليت الناس يفهمون الموسيقى كما أفهمها، وليتهم يعشقونها مثلي.

ثم تؤكد علي قائلة:

- أكتبي كل قهري، قولي لهم بالكتابة كل شيء عن معاناتي، فمهما كانت عذاباتي، ها أنا أسمعها قبل أن توضع على الورق، مثل رنّة موسيقية سجنتها أفكاركم كشكوى مخنوقة.

عجزت عن إيصال صوتي لكم عبر أوتاري، وها أنا أعزفُ على قلبي، لا على العود.

اليوم سأضع حداً لكل هذا وليكن ما يكون.

تريدون مني أن أكون قوية؟ فليكن. سأكون قوية قدر ضعفي، دون اعتداء على أحد.

كان المعجبون ومازالوا يحيطون بي ويحاولون الاقتراب مني، فلماذا أحببته هو بالذات، ودون سواه؟ ولماذا اخترت العذاب بكل قواي؟

. تذكرت الان كلمات أحدهم بعد أن لاحقني كثيرا. قال لي وقد رآني في يوم صيفي في إحدى الحفلات وبعد أن رفضته عشرات المرات:

جسدٌ مثل هذا، يقطر عذوبة وجمالا، جسد عطريّ، كل ما فيه فراشات وخمر وقوارير عسل، جسد مثل هذا حرام أن يكون لرجلٍ واحد، بل يجب أن يصبح ملكاً للبشرية جمعاء.

وكم كان يتوسلني أن التقيه وهو يردد قول غوتة:

"وجدت لكي اندهش"...وها أنا أندهش من هذا الاكتمال الأنثوي، إنه مدهش حقا..

- هل أنت مجنون ؟

- نعم لقد جننت بك.

أسخر منه وأرد:

- لقد قال غوتة هذا في أواخر العمر، وربما قد هرمت روحه فما عاد يرى أو يشعر بما يدهشه حقا، مما دعاه لطلب الدهشة رغبة بالحياة من جديد.

يرد هو :

- الدهشة لا تأتي دائما، وحينما يندهش المرء سيكتشف بدهشته شيئا جديدا، أو يدخل عالما بديعاً من الروعة والجمال، أو من الحب ربما . أضحك بلامبالاة واقول له:

- لكنني لا أحبك.

يبكي ويستمر على مراسلاته ومغرياته التي لم تنفع لسنين طويلة، فأي رجل عاشق هذا !

ياترى هل يشبهني هذا الرجل؟ هل أذله العشق كما أذلني؟ ولماذا نعشق من لا يحبنا ونبتعد عمّن يحبنا؟ رغم اني لم أخدعه ولم أنطق امامه بكلمة حب أو وعد .

ترى هل كانت الحياة في سومر وأكد وبابل رائعة في ما يخص العلاقة بين المرأة والرجل؟

هل علي الآن أن أترك صفحات فارغة للإجابة على سؤالي؟

كنت البارحة أقرأ إحد الكتب المقدسة القديمة "الكنزا ربا"♦، وجدت فيه صفحات فارغة للناس، للتأمل، ربما والتوصل إلى حلول مغايرة لما جاء في نصوص الكتاب، وفقا لكل زمان، رغم ان هذا الكتاب مقدس، والمقدس كما اعتدناه لا يدع مجالا للتأمل خارج النص.

لِمَ لا نخلق من بين أفعالنا فسحة فارغة مجهولة لإجابات مستقبلية شتى؟

حين أنهيت تأملي وأنا أقلب الصفحات البيض من هذا الكتاب، عرفت إنه كتاب لا يمجد القوة، كله تسامح ومحبة، كتاب قُتل اصحابه

♦ - الكنزا ربا هو الكتاب المقدس لطائفة الصابئة المندائيين وتعتبر ديانتهم من اولى الديانات في التاريخ البشري، وهم الان يشرفون على الانقراض بسبب مايعانونه من قتل وتدمير في العراق.

وهُجروا من دورهم وأوطانهم، ونهبت معابدهم، كما نهبت آثار حضارة ضحكت سنينا، حضارة سادت، ثم بادت.

أستعيد كيف كانت النساء في بابل ملكا للمعابد، يمارسن الجنس المقدس، الجميلات كن يمنحن أنفسهن للمعبد، وهذه إحدى الحلول لتنظيم العلاقة العسيرة بين المرأة والرجل ولإشباع الحاجة الإنسانية.

تغيب سومر للحظات في افكارها مخاطبة حبيبها:

ولو كنت واحدة منهن لما قبلت قربان أي رجل سواك، انت فقط أقبل قربانه ولو كان جرعة نبيذ يتيمة.

مَنْ يستطيع أن يحاربني أو يفرض نفسه علي وأنا فتاة المعبد. أدعوك للجنس المقدس، أمارس معك في الهواء الطلق وعلى العشب الأخضر المزدان لتخصّب سهول بلاد الرافدين وتبقى خضراء أبدا. صبٌّ عسلك، شبقك، في نهر الفرات ليزداد وفرة ويفيض بالخير.

هذا ما كانوا يفعلونه في سومر وبابل. ألم يكن ذلك أحسن من أن أنهي حياتي وأنا أستحضر الغرف المظلمة والأيدي التي مرت على جسدي بالصدف الخائفة؟

لعلهم يقولون مجنونة، لماذا لم تختر شخصا آخرَ للآقتران به، وهي فنانة مبدعة يتمناها أحسن الرجال؟ آه، وهل أرى أنا بعد أن عرفتك أن الرجال رجال؟

تعتدل محدثتي في جلستها وهي تتكلم معبرة عن التحدي تارة والاحباط تارة أخرى قائلة:

لكنني لم أعتد الإستسلام والخنوع أمام كل جبال القهر المسلط علي كآمراة شرقية.

سأصرخ ولو بعد فوات الأوان وأحاول إعادة الكرّة مرة أخرى مع الحياة، وأنا اليوم حرة أن أختار أسلوب الحياة المناسب لي والذي يتلاءم مع إمكانياتي دون تأثير من ظرف، أو خوف من أحد.

آه.. الحرية.

لو كنت أمتلكها قبل عشرة أعوام لفعلت الكثير ولكنت كما أردت أن أكون.

الآن صار الوقت متاخرا كثيرا. العالم يفتح أبوابه للشباب برحابة وثقة، أما في عمر يقارب الأربعين - وامرأة مع الحانها المهاجرة، وطفلة صغيرة لا تعرف احداً سواها - فالفرص تتضاءل. لكن قطرات المطر تهطل في الخريف رغما عنا.

إذن، منعوني من السفر لكنهم لم يستدلوا على مكاني، وما كانوا يظنون أنني سأهرب، اعتقلوا جميع رفيقاتي وقالوا لكل واحدة منهن، لا مجال أمامك للإنكار فقد اعترفت عليكن مسؤولتكن موناليزا، أعطت أسماءكن بلا تعذيب، وها هي قائمة الأسماء: أزهار، ليلى، سناء، أمل، سلوى، مها، هيفاء.

صدقن ما قيل لهن أو استولى عليهن الخوف. ومهما كانت حالتهن النفسية ذلك الحين، فأنا أعذرهن. لقد عشن جميعا تحت رعب الأهل، بل ناضلن على جبهات عدة؛ السلطة، والنضال الآخر الذي لا يقل عنه صعوبة، النضال ضد مفاهيم الأهل، في مجتمع لازالت تحكمه مفاهيم بالية. أعذرهن طبعا، إذ لا زلت اتذكر حينما ضربني أخي ضربا مبرحا بسبب وشاية أحد عسس السلطة يوم حضرت نشاطا سياسياً معارضاً، ففي بلداننا، تتساوى التهمة السياسية وتهمة الشرف، حتى لا يكاد الناس ان يفرقوا بين انتهاك الشرف والمعارضة السياسية حينما يتعلق الأمر بآمرأة.

كنا ممتلئات طموحا في التغيير، نبتسم أملاً في الخلاص، الخلاص الذي لن يأتي يوما بل تباعدت الخطوات بيننا وبينه، وصرنا لا نعلم هل نسمي ما نحن عليه حياة، والحياة كانت تقتل أمامنا يومياً. وهل أنسى نجية؟ يالعذابها، يالعذاباتهن. كيف لا أبرر اعترافهن علي؟

نجية، إحدى صديقاتي المتزوجات من رجل معارض للسلطة، هربَ دون أن تعلم إلى أين، كان محاصراً بعيون الشرطة السرية، كانوا يلاحقون

أنفاسه ليبقى مذعوراً من كل شيء في وطن أحبه، ماكان أمامه إلا الهرب أو الموت، أيخبرها وهو لم يتأكد بعد من قدرته على الهرب واللحاق بمن نجا، أم يكتم نيته، خوفا من فشل المحاولة ووقوع المزيد من الضرر؟

لم يغب عن البيت سوي يومين حين أعتقلتها الشرطة مع طفلها ربيع الذي يبلغ العام والنصف من العمر. أجبروها تحت التعذيب لتقول شيئا عن زوجها. اعتدى عليها رجال السلطة بكل ما لديهم من حقارة، عذبوا طفلها أمامها حتى الموت لتدلهم على مكان زوجها. أثار وفاؤها إعجابهم فهي لم تنبس ببنت شفة عن مكانه، وما كانوا ليصدقوا أنها لا تعلم بمكانه فعلا.

مات ربيع أمام عينيها. وضعوا لها سم الثاليوم في الطعام بعد أن شبعوا من تعذيبها ثم أطلقوا سراحها. بعد يومين كانت نجية شهيدة، نعتها صحف المعارضة لاحقاً.

كيف لا أبرر اعترافهن عليّ؟ فكثيرة هي العذابات. آه، إلى متى نكرر الكلمات دونما جواب؟ عذابات ضاغطة على ذاكرتي، منذ طفولتي وأنا أراها وأعيشها بكل جوارحي، حافظة إياها للأبد.

و(عطشان)؟ ذاك الفقير، عامل الصباغة الذي قضى في السجن خمسة أعوام، عندما دخله عام 1963 ليخرج منه بلقب عطشان الأعور"أبو اليد المثقوبة". كيف لا أتذكره؟

خرج عطشان من السجن بعاهتين، فهو مفقوء العين، ويده اليمنى مثقوبة بقدر تستطيع معه إدخال إصبعك في تلك الفجوة، الفارغة كمحاجر الموتى، أو كتلك الأكف التي نراها تنتشر ببلداننا، معلقة على واجهات البيوت والدكاكين دفعا للحسد، أكف تتوسطها عين ترعبني فاغمض عيني حينما أراها ببيت جدي، واقرأ تحتها الحسود لا يسود.

أصبحت يد عطشان حديث المدينة.

جملة واحدة أدخلت عطشان متاهة السجن لسنوات خمس، نعم جملة واحدة هي "الطبقة العاملة ".

كان عطشان حينما يريد أن يقول كلمة "عمّال" يستبدلها بـ "الطبقة العاملة"، وهذه وحدها جريمة، لم يصدق الجلادون أن عطشان يرتكبها دون الانتماء الى تنظيم سري.

وعندما خرج المسكين من السجن كان يبدو كأنه من أصحاب الكهف، يدهش لأبسط الأشياء، ويسأل الناس مستغرباً، عجبا، كم تغيرت الدنيا ! أيام دخلت السجن كانت الجاكيتات الرجالية مسدودة من الخلف، أراها الآن وقد فتحت. ياللعجب كل شيء قد تغير !

صار الناس بعد خروج عطشان من السجن وهو بهذه الحالة المزرية، يتذكرون السجون في الزمن الملكي، ويترحمون على ذاك العهد، كانوا يتحدثون كيف أن السياسيين، وقتذاك، يستطيعون قراءة الصحف اليومية وحتى التظاهر داخل السجن. وكانوا يقولون، على الأقل، أن سجون تلك الأيام بدون تعذيب، بل كانت تصل السجناء حوالات المال من ذويهم. وكانوا يتداولون قصة ذاك السياسي الذي كان نزيلا دائمياً في سجون العهد الملكي، وهو يرويها لهم قبل استشهاده في الثمانينات داخل أحد السجون وتحت التعذيب، حيث يقول:

في الزمن الملكي كانت لدينا نافذة داخل الزنزانة، وفي يوم ما، وعبر تلك النافذة، سمعت صوت امرأة في زنزانة مقابلة لزنزانتي. خفق قلبي للصوت، وأحببت أن استطلع سبب وجودها. نهضت بسرعة، وإذا بي أرى امرأة جميلة تمضغ علكا وتبتسم لي بلامبالاة وبخلاعة سافرة،

فخمنت تهمتها، قلت في نفسي لأجد ما أحاورها به وأتسلى في سجني. وحين سألتها عن سبب وجودها أجابت بلا مبالاة وهي ما تزال تمضغ علكتها بغنج :

- أنا عاهرة، وأنت؟

- أنا شيوعي

- نفس الشيء.. قالت ثم أردفت:

- الحكومة لا تقدر سوى علينا وعليكم.

كان ذاك السياسي يروي قصته باندهاش، ويقول انه لم يفكر يوما بردها هذا. وصار يفكر عن سبب ردها وعن التشابه في موقفيهما، فقال لنفسه، نعم، اننا سجينان وبذات المكان، فهل أصبحت وأياها الآن في خندق واحد؟

أية سخرية وأي عالم مجنون ! وحينما أخبر رفاقه عن قصته هذه كانوا يضحكون ويقولون:

- كل انسان يناضل بطريقته الخاصة، ربما هي تقصد انكما متشابهان في المنع من مزاولة نشاطكما قانونيا، ولهذا فالأمر عندها سيّان.

بعد تلك الحادثة، صار السجناء يتندرون بكلمة "نفس الشيء" ويستخدمونها لأسباب الضحك ويسمون المومسات بالمناضلات الاجتماعيات.

الوتر العاشق

"لا تضعوا باقات الورود على قبري الحجري، ولا توقدوا النيران، سوف تكلفون أنفسكم بغير طائل، أكرموني إن شئتم مادمت حياً. أما أن تبللوا بقايا جسدي بالرحيق فلن يكون منه إلا الوحل، والميت بعد لا يشرب"

قال هذا شاعر يوناني مجهول. تذكرت قوله ألان وأنا استقريء عمري وسنيني.

كانت روحي عطشى دائما وما زالت.

دائما كان جسدي جائعا ولا زال.

دائما أبحث عمن يحاورني في موسيقاي، ولا زلت.

دائما أتمنى أشياء ما زلت أتمناها.

إذن ما الذي تغير في حياة انتظرتها أعواماً، ومتى يأتي زمن الانعتاق الحقيقي؟.

وهل أستطيع فعلا نفض العبودية عني بكل أنواعها؟

هل سيبقى الصوت الشرقي يطاردني كشرطي حتى في المهجر حيث الحرية والانفتاح والأمان؟

منذ ولادتي وأنا أشعر أنني لم ابتدئ بعد. منذ ولادتي وأنا أعيش كل يوم يوتوبياي وأنتظر حياتي كيف ستكون. انتظرت طويلا كي أعلن ثورتي. انتظرت طويلا، وفعلت الكثير لأرحل عن بلدان التعصب والقهر الاجتماعي، لأحرر أوتاري بموسيقى صدحت داخل روحي منذ

الطفولة. ولأن الكرامة الشرقية في زمن الانحطاط لا تحب الموسيقى، تخلى عني أهلي عندما درست الفن والموسيقى ووضعوني أمام خيار لا ثاني له:

إن أردت إكمال دراسة الموسيقى فعلي الزواج من ابن خالي. أُجبرت على ذلك الزواج، بقيت معه عدة شهور، لم أحتمل بعدها البقاء أكثر، طلب مني التحجب، وعدم سماع فيروز والموسيقى.

كيف تكون الحياة بدون فيروز؟

والأفضع من ذاك هو أن زوجي ذاك لم يرَ جسدي عارياً، حتى في ليلة الزفاف، وتطلقت منه وأنا لا زلت عذراء. فبعد عقد قراني عليه أخذني الى بغداد في إحدى الفنادق الباردة. كان يخرج كل يوم الى مرقد الإمام، يضع ظهره على الشباك، ويباشر بالدعاء ثم يعود لي في المغرب مع سندويشة باردة، بعد أن يكون قد أقفل علي باب الغرفة بالفندق.

فكرتُ بالهرب، لكنني صبرت وقلت ربما لديه متاعب نفسية قد تزول، كان لا يحب أن أتزيّن، ويشيح بوجهه عني لو وضعت أحمر شفاه أو كحل. في ليلة زفافي ارتديت ملابس نوم شفافة كما ترتدي أية عروس، فإذا به يرمي علي ملاءة قائلا :

غطي جسدك، لا أحب أن أراك كالفاجرات.

هربت كي أنسى موت أوتاري ولأعانق الحياة من جديد، وماكنت لأستطيع أن أحصل على حريتي بدون عذاب سنواتٍ، كانت قاهرة.

كم حلمت بساعة صفري التي كلما اقتربت يطرأ ما يؤجلها، حاولت كل هذه السنين أن أحتال على الزمن، لأبقى شابة ولأبدأ من جديد.

ها أنا فراش بارد، أضاجع جسدي كي لا يموت. مع أوتاري أصبح وأمسي.

حاولتُ أن أتجرد من الحب الذي اجتاحني كالعاصفة في الغربة، لأستعيد نفسي، حينما كنت فرحةً بحريتي، حاولت أن أقنع نفسي بأني ما رأيت حبيبي هذا ولا أحببته، لكني أجد روحي تريد رجلاً بمواصفاته، رجلاً لا تجده إلا هو. لجأت لهذا البلد لأعزف موسيقاي وأحلم أكثر، لكن الحب داهم احلامي فوقعت.

تضطجع سومر على فراشها، تفكر فيه.

هاهي تراها الآن، حشرات لا هي بالعناكب ولا بالصراصير، تلاحقها، في الحمام، في غرفة الطعام، في غرفة نومها.

اليوم رأتها بأم عينيها تحت نوتاتها الموسيقية القريبة جدا من روحها والتي تحتفظ بها على طاولة صغيرة جنب سريرها، قريبا من العود الذي تجالسه ويجالسها في غرفة نومها.

أدركت اليوم أن ما هو مرعب قد اجتاح حياتها. حشرات تسير بهدوء، بسرعة البرق، تهرب حينما تنتبه لها، صغيرة ليس أطول من سنتمتر ولربما أقل، سوداء مقسم جسدها إلى أجزاء متلاصقة ومخيفة، عندما تُسحق تذوب مخلّفة سائلاً لا لون له ولا رائحة كالماء، تكتشفه بصعوبة على ظهر الشيء الذي صفقتها به.

ماذا تفعل بعد الآن؟ تعودت منذ فترة طويلة أن تنام بلا ملابس داخلية. الان بدأ يخيفها هاجس انثوي، علّه من ابتكار الشرق، تصحو عليه الفتاة وتنام، هاجس الخوف من أن يخترقها شيء ما، يدخلها دون علمها. هاجس الاختراق هذا اختلط بذهنها بأحاسيس كثيرة، تحولت

الى فوبيا تؤرقها، وظل ذاك الشيء يتراءى لها على الأغطية والملاءات، مع تساؤل مخيف:

هل تخترق جسدها تلك الحشرة القبيحة حينما تغرق في النوم؟

هاهو قلق آخر في غرفة نومها. لماذا غرفة نومها، هي دون سواها، تثير هذه المخاوف؟

لماذا تجاهد جميع المخلوقات للدخول الى غرفتها، وكأنها عرش سليمان؟

لماذا يدخل الآخرون غرف نومهم لينـاموا، وتدخل هي غرفتها، لا طلبا للنوم، انما لتهرب الى عالم مجهول يجلدها بأسئلته؟

كيف تستطيع ألان أن تمنع تلك المخلوقات الدخول إلى هناك، حيث الرغبة ورائحة الجسد؟

تدرك سومر، بالوهم الذي تصنعه، أنها تقترب من هوة تخترق ما تبقى من الأحلام بدمعة يأس، هوة تنسجم بها الحشرات وأغطية المستشفيات برائحة المعقمات ووخزات الإبر.

تجرعت ثلاث كؤوس من النبيذ الأحمر ومازال خوف الحشرات يعيدها الى ما قبل الظهيرة عندما كانت تعد نفسها بنسيان حبيبها. تقسم أن سوف تلجم جماح عواطفها، وتلعن الجسد والشموع، تلعن الملابس الشفافة وألف ليلة وليلة، تلعن الروض العاطر وطوق الحمامة والجنس عند العرب، بل كل الكتب والاسطوانات التي رافقت تضاريس جسدها. تلعن رائحة جسده المثيرة، ستنسى لونه الحنطي الذي يمتزج بلونها حد التوحد، ستنسى حتى مذاق لعابه، أكسير حياتها، خليط ثمار فراديس الكون، و مذاق اللقاح البشري، لعابه الذي كانت تعب منه،

فتثمل وتطير بأجنحة من حرير، وهي بين اليقظة والنعاس الشفيف. كانت تقول له:

– ألا تتفق معي يا حبيبي بأن هرمونات جسدينا منسجمة تماما وكأنها خلقت من دم واحد؟ ألا ترى، يا حبيبي، أننا خلقنا ليذوب أحدنا في الأخر؟ إلا تتفق معي؟

يبتسم هو، ويهز رأسه بالإيجاب ثم يضمها الى صدره ليغيبان في قبلة طويلة..

دبّ الألم الخفي الآن أسفل بطنها، والحشرات التي أرعبتها عادت تظهر أمامها، كأشباح، في كل مكان، على الحائط، على خزانة الملابس، تحت مخدتها. حتى صفحات الكتاب المفتوح أمامها بدأت تغزوه الحشرات. حشرات في كل مكان، تدب ببطء كأفراد جيش يخبئون أسلحتهم تحت ثيابهم وهم في الطريق لينقضوا على عدوهم. نادت روحها العاشقة مستنجدة بها:

ياروحي التي عاقرت الوهم، اذهبي اليه، قولي له إنني أعطيت ما يكفي ولم يبق سوى...ورنّ الهاتف.

إنه هو. دافئا كعادته، قويا كعضلاته، واثقاً من حبها له، متسيّداً يدّعي الحب ويطالبها البقاء معه على هذا الفتات من الوقت. يقول لها إنني أعطيتك أكثر ما أعطى الأخرى، ألا تفهمين أني الان عاجز ومهزوم؟. ابتعدتُ عنك قليلا وقلصت الوقت الذي أعطيك إياه سابقا كي أسترد ثقتها. الآن هي تثق بي ولا أريد أن أفقد هذه الثقة..

تتعجب سومر من كلامه، وتحتار محدثة ذاتها، كيف وهو بكل قوته التي تراها بعينيها وتحسها بكل كيانها، يكون أمام زوجته الأولى

مهزوما وعاجزاً؟. هل لأنها المعلنة وأنا السرية التي يخشى افتضاح أمره معها؟. فهل لابد ان نموت، أنا والطفلة البريئة مع الوحدة والغربة، لأبقى بألمي وحرماني ما دامت الأخرى موجودة، ومادامت هي الأثيرة بكل شيء؟. هاهو يريد كسب ثقتها على حساب سعادتي.

إن كانت هي الأهم فلماذا أحببتني إذن، وما الحب في رأيك، وكيف أصدّق أنك تحبني وأنت تتركني أذوي مع معاناتي وحيدة؟.

هاهي الحشرات تتكاثر من جديد .. الآن، لها أذناب وعيون ولها قرون استشعار، تضحك عليّ لحظة أفكر به، تسخر مني إن اكتشفت أمرها، تهرب مني بضحكات ساخرة.

صرت أسمع لها صوتا يرن في أذني، ولعلي وحدي من يسمعها .

في عالمي.. في خفاياي.. بين ثنايا أغطيتي، كيف أحارب دخولها إلى ذاك ألـ...يا الهي، أيعقل أن أبقى ساهرة حتى الصباح يوميا لأحرس نفسي منها؟ كيف أستطيع النوم وأنا قد اعتدت منذ فترة أن أنام بلا ملابس داخلية؟ كيف اعتدت ذلك؟

لا أدري، مع أنني كنت أعجب عندما أسمع أن الأوربيين ينامون عراة. كيف؟

ألا تمتد أيديهم لأشيائهم في دفء الفراش والعري؟ ألا تغريهم تلك الأجساد؟

في شرفة منزل مقابل لشقتي، وقفت البارحة امرأة عارية تماما تتثاءب كسلى، يبدو أنها أفاقت من النوم تواً، أذن بدون ملابس داخلية ! ألا يخافون الحشرات؟ لعلهم تخلصوا من الخوف الذي يلفني ليل نهار..

حشراتنا الكثيرة، مبتهجة نراها على شاشات تلفزيوناتنا، صارمة الوجوه على صفحات جرائدنا، متجبرة في مدارسنا، مختبئة في حقائبنا، ترافقنا إلى التوابيت، تنام معنا حتى في تلك الحفر التي تضم أجسادنا الميتة. لكل جسد حشراته، تتناوب عليه في برازخ رحلته.

ترى، هل تعود تلك الحشرات إلى الحياة بعد مفارقتها الموتى؟ وهل أن هذه الحشرات التي كانت تقض مضجعي، هي ديدان عشق، مات من توه، واصبح جثة تستبيح بقاياها زوايا بيتي؟

رفعت سومر ستارة الشباك فأطلت ببصرها على شرفات هادئة، ساكنة غادرها القلق.

الأوربيون، سمعت أنهم غير مهتمين بالجنس كثيرا، يقال أن برودة بلدانهم تنعكس على رغباتهم الجنسية، الجنس ثانوي عندهم، ولا يتقاتل الرجال والنساء سعياً لتحقيق رغباتهم كما نفعل نحن. ترى هل برودة الطقس حقا هي السبب في ذلك، أم هو جنون الشرقيين، وتهافتهم على الجنس كونه أحد أهم الممنوعات، المحرمات القاتلات؟

هل لأن الجنس ممنوع عندنا، وكل ممنوع مرغوب؟

تخلع ملابسها الداخلية، وهي تتذكر ضاحكة ماقالته إحدى صاحباتها، من اللواتي يدعين الخبرة بالشؤون الطبية بأن، ثماني ساعات بلا ملابس داخلية قادرة على القضاء على كل الأمراض النسائية، ولهذا اعتاد الأوربيون أن يناموا عراة.

معلومة بليدة ومضحكة حقا، فإن كان الأمر بهذه السهولة، لماذا اذن كثرة المختصين بالأمراض النسائية؟

منذ سنوات تعلمت أن أنام عارية، لكنني لم أنس عادتي القديمة أيضا، فقبل أن أغفو تمتد يدي إلى نعومة صدري وخصري ثم إلى عصفوري.. لقد أدمنت استعادة حضوره أمامي، أن يكون طيفه معي، استمتع به، حتى ولو في الخيال، بعد أن أترك لأصابعي إثبات مهاراتها، لا في اتقان التطريز والخياطة، ولا في العزف على العود، إنما على فراش النوم، حين تمر على تضاريس جسدي، وتخمد النيران التي أشعلها حضوره البهي في الخيال، لأحظى بعد ذلك بنوم هانئ، انه سرّ أصابعي التي علمتني الاكتفاء الذاتي والنظر الى وجهي جيدا في المرآة واحترام قامتي وعقلي..

الساعة الثالثة صباحا، وأنا أفكر بالأخرى، أنثاه الثانية، تلك المتسلطة، القوية، الثرية. شعرت بخذلان، فهرعت للسياب علّه يواسيني، مرددة مقوله استعارها من الشاعر الالماني غوته (المال شيطان المدينة).

شيطان المدينة؟ هو قاتل الحب، ومفترس أجمل مشاعر البشر وأعذبها، هو المنتصر، دائما وأبدا، هو الجبار الذي لم تغلبه البشرية عبر آلاف السنين.

نعم" المال شيطان المدينة".

كم رددتُها حينما كنتُ أريد بكل جوارحي أن أكون لك وحدك وتكون لي وحدي، أن نعيش بعيداً عن الناس وشياطين المال؟

"المال شيطان المدينة".

كم كررتها، وأنا أتوسلك أن تبصق على هذا الشيطان، أن تاتي لشقتي الصغيرة، ولنقتسم لقمة العيش معا.

قلت لك إعط راتبك وماتملك للأخرى، لتلك، أنثاك المعلنة وتعال معي، أنا أمرأة الخفاء.

تعال لنبتدئ.. تعال معي لأجن بك وتجن بي، وليكن ما يكون. كنت أقول لك، دع المال والعقل، وتعال عاقر الجنون وأسكن عالمي، لكنك لم تسمع. وكانت حساباتك مادية، فأين العشق من المال. العشق يذوي ياصديقي ويموت إن حاصرته عمليات الجمع والطرح والزائد والناقص.

كم جرحتني فكرة أن تكون لديه امرأة اخرى تهمه أكثر مني، انثاه، المعلنة، التي توجهه كيفما تشاء، تغسل دماغه بما يروق لها، وهو المتلقي، حامل عقدة الشرق، عقدة الخواجة، عقدة الضعيف أمام القوي، عقدة التخلف أمام الحضارة.

حين أراد قطافي كباقة ورد طازجة، كان يردد طوال الوقت تميمة واحدة كأنه حفظها عن ظهر قلب: أنت لست من جنس النساء، لست من جنس النساء. ليت نهاري في صحبتك تتضاعف ساعاته، معك لايكفي ان يكون اليوم 24 ساعة، فلابد ان يتضاعف اليوم ويطول، علّ القلب يرتوي من رؤية وجهك، ليت عقارب الساعة يصيبها الشلل. حبيبتي، انت وجبتي اليومية التي لا أعيش بدونها.

وكنت للحب الذي يغمرني به، أحسد نفسي وأردد بسرّي:

هذا الذي أبحث عنه. وما كنت أعرف أن ذلك محض حكايات. ما كنت أدري أنه سيرمي بوجبته اليومية داخل سلة مهملات، ويدوس بحذائه على باقة الورد التي اقتطفها. ترى، هل فعل ما فعله بمحض إرادته؟.

كانت سومر تعلق على صدرها صورة قلب بفلقتين، الأولى صورة طفلتها، والثانية صورته هو. أرتني الصورتين وهي تقول: سأواصل

الصراع حتى انتصر على قلبي. هذا أمر لا فرار منه. لن أرضى أن تداس كرامتي بعد اليوم، لن أظل معه وأقبل بهذا الموت البطيء. كيف أظل معه وها هو يرضخ لأوامر الأخرى، و يلغي حتى اليوم اليتيم الذي خصصه أسبوعيا للبقاء معي. يلغي يوم الحياة ويريدني أن أبقى معه، أنا التي كنت أحيا له وحده، أنا التي امتهنت حراسة جسدي حتى لا يمسسه رجل غيره، أنا حبيسة الجدران، المنتظرة، الصابرة، التي كنت أعاتب نفسي وأعاقبها لو عاتبته، مجرد عتاب، على خطأ يرتكبه بحقي.

يوماً واحداً في الأسبوع يكون لي وابتدأت الأخرى تحاول بكل قوتها إلغاءه..

كنت أقول له أحيانا : أنت زوجي، وإلا ما معنى عقد قراننا الذي تخبئه عندك؟ أريدك أن تكون معي، الوحدة قتلتني، أريد أن اتحدث بلغتي، في هذا البلد الغريب البارد، أنني أموت ببطء، وأريدك دائما معي.

صبراً حبيبتي أرجوك أن تفهمي ظروفي، إنني أحبك، لكن هناك أمور أقوى مني، ثقي بي ودعيني أرتب كل شيء فأنا أفهم بظروفي منك، انتظري وستكون كل الأشياء كما تريدين.

كانت ثقتي به لا حدود لها . وهذا خطأي القاتل، وسذاجتي التي لن أغفرها لنفسي. لقد اعتقدته ماردا، يسوي الأمور أنّى شاء ومتى شاء. صدقت ما كان يقوله، وظننت أنه يفتح أمامي أبوابا جديدة للحياة، ابوابا أغلقتها الغربة، وبدونه ما كانت ستفتح لي أبدا .

تواصل سومر عزف ألحانها وتدندن، ثم تستمر في بوحها، وهي تحدثني عن لقائها معه في أول يوم عرفته.

التقيته في يوم أيلولي رائع. كنت قد حضرت بصحبة آخرين لمشاهدة مسرحية. كانت كل العيون تحوم حولي، وحالما رأيته، بهتُ.

أين كنت يا هذا؟

هذه هي القامة التي أبحث عنها في أحلامي. هذا اللون الذي يغريني فأذوق الموت والحياة معا. هذا الشعر الذي شكل في ذاكرتي خواتم العشق في التاريخ، تمثالا رومانيا كما أحب وأشتهي.

أسرتني نظرته فتسمرت في مكاني، حاولت أن التفت لسواه لكن عينيّ أبتا. وحين رأيته يتملى وجهي مبهورا، قدرت انه يسائل نفسه، يريد أن يتذكر أين التقاني، كأنه أراد تذكر وجهي وأين رآه، أين رآه قبل الآن؟

تتنهد سومر وتردد:

فيما قبل الأعوام التقينا، ما قبل الأوجاع بآلاف السنين، ما قبل الأديان والعقود والقيود،

التقينا أنا وأنت، حين تُعامة لازالت ماء حياة، نحن أول الطالعين منها، ظللتنا قطعة نار فلم نعرف من نحن، وأين نختبئ؟ طفقنا نلتصق ببعضنا، التصقنا حتى اللانهاية ولا ندري الآن من نحن. الشهوة التي في جسدك ناري التي تشربتها روحك، اللوعة التي في روحي نارك التي تشربها جسدي، وهي قطعة النار التي لا ندري هل امتصّتنا، أم نحن امتصصناها وانتظرنا كل آلاف السنين، حتى التقينا في ذاك اليوم، فعدنا الى حيث تُعامة وقطعة النار.

الوتر المهاجر

"الآخـر هـو وسـيط بـيني وبـين نفسـي، وهـو مفتـاح لفهـم ذاتـي والإحساس بوجودي" ..تذكرت قول سارتر هذا حينما رأيت أوروبا أول مرة ..كنتُ حديثة العهد في رؤية هذه الألوان البشرية، بسحناتهم المختلفة، قادمين من كل انحاء الأرض، من بقاع متصارعة، بعضهم الهارب من ذئاب تلاحقه بصور عدة، وبعضهم البشر الذئب الباحث عن فرائس.

كنت أرى سحنات وجوههم، اللون البني القادم من شرق آسيا، الأسود الذي لفحته شمس أفريقيا أو أمريكا اللاتينية حتى أحرقت حظه في المساواة والقبول عند البعض، الهجين الذي لا يدري إلى أي لون ينتمي..

أسود بعيون زرق، بني بشعر أشقر، أشقر بعيون سود، كل الألوان، كل الأنواع، أصفر بعيون مغولية، قصار القامة، طوالها، متوسطوها، مبعثرون لا يشبهون جنساً واحداً بعينه. كأننا في مهرجانٌ كوني دائم. كنت أعجب عندما أرى امرأة سوداء تحمل بين ذراعيها طفلها الأبيض، أو أخرى بيضاء مع طفل أسود، لم أكن أستنكره بل تدهشني رؤيته لأول مرة، يثير بداخلي مشاعر أشبه بالفرح وكأن الإنسان في هذا البلد انتصر على الطبيعة بكل قسوتها وظلمها، رغم تلك القيود التي ما زالت في داخلي، ورغم جبني الذي يمنعني أن افعل مافعله هؤلاء البشر، فقد رأيتهم أقوى مني وأنبل.

ذكرني هذا البلد بتاريخ الهجرات البشرية، عندما كان الإنسان منذ بدء الخليقة هارباً، يهرب من الوحوش المفترسة، ويهرب من الجفاف أو من المرض ثم يهرب من أعدائه، اخوانه البشر. وهاهو حتى

الآن رغم ما ادعاه من حضارة وتطور، هارباً من بعضه، ما زال وسط متاهة، يسير ولا يدري الى أين. لا زالت تعاسة بعض البشر هي ذاتها لم تتغير، ولا زال هو كما كان، بل أتعس بكثير، إذ كان العدو أرحم وأضعف، ما كان يمتلك الأسلحة الفتاكة، ولا الجشع المقنن.

حينما رأيت أوروبا أول مرة في حياتي، بهرت، وجدت كل شيء منظما، وكل شيء مرتبا والإنسان وجدته حراً، آمناً وسعيداً.

كنت أعجب من جهلنا بسعادة هذه البلدان، واستغرب كيف غرسوا بأدمغتنا كل تلك الأكاذيب عن أوربا. لماذا كانوا يزورون الحقائق؟ لصالح من؟ بل أن ما غرس في أدمغتنا هو أن أوروبا لا أمان فيها.. لماذا تزور الحقائق علينا ولصالح من؟

آه، يا شعوبنا المقهورة، الفقيرة، النائمة على حرير الوهم. شعوبنا المستعبدة والتي تقبّل أيادي السلاطين والملوك والرؤساء. شعوبنا التي ترقد على بحار من البترول والذهب والخيرات، وتجوع..

كانت عندي رغبة تدفعني نحو الاهتمام بفلسفة الإنسان، وحقه في حياة أفضل.

بكيت كثيرا، مرضت، وتضاءل وزني بشكل كبير وأنا أعيش غياب النخيل. لا جمال دون نخيل، ولا جنة دون نخيل، ولا فرح دون نخيل، لو كان النخيل في أوربا لأكتملت الجنة. لكنني تخيلت أن أوروبا عروس بعين واحدة، إذ لغابات النخيل روعة اكتمال الجنة وبهاء العروس..

كنت أريد أن أعيش الإحساس بالسعادة رغم الغربة والمنفى، وحينما كنت أسير بتلك القرية النائية بمحاذاة نهرها الهادىء، بعيدا عن الصخب، أحاول أن اقنع نفسي بوحدانية الأرض التي هي لنا جميعا

نحن البشر. ولكي أقوى على الاستمرار والعيش في هذه البلاد، كان لابد من استبعاد الحس بالوطن والتفكير به، فكنت أقنع نفسي بأن كل الأرض هي وطننا. كنت أحاول أن أفرح قليلا وأنسى الحزن والبكاء، ولو لسويعات، فتصدمني اللغة، ويصدمني بعض العنصريين، ويصدمني غياب النخيل ..

لم يكن هو سوى شبيهي، رأيت فيه لوني ولساني الذي ابتعد عني منذ الهجرات الأولى حتى ولد في قارة أخرى. قارة مليئة بالحياة والظلم.

كان بيننا حبلٌ روحي قوي، يربطنا ببعضنا ليشعر أحدنا بكل ما يصيب الآخر ولو على بعد.

كان هو يفكر بطريقة يصارحني بها عما بداخله، لكنه لا يعرف كيف يفاتحني، أستمر بالاهتمام بي سبعة أشهر، وأنا أبحث عن حبيب دون أن التفت اليه، ورغم إعجابي وانبهاري به، لكنني إعتبرته محرماً علي لأنه متزوج، فسمحت لنفسي بصداقة بريئة معه استمرت لسبعة اشهر.

في إحدى المرات سافرت الى بلد أوربي لأعزف هناك، تلبية لطلب من أبناء جاليتي. وهناك حدث لي حادث كاد يقودني الى الموت. وعندما تحسنت صحتي وعدت الى حيث أسكن، هاتفني هو قائلا، دون أن يعرف بالحادث:

كنت قلقا عليك لأنني رأيتك في حلم وكأنك في حفرة عميقة، وهناك فيلٌ ضخمٌ يملأ خرطومه بالماء ليلقيه عليك وأنت داخل الحفرة تستغيثين. لم أعر اهتماما لكلامه هذا، واعتبرته خوفا وحرصاً من صديق ليس إلا. بعد اسبوع واحد صارحني بحبه.

بداية الأمر قلت في نفسي، انني أحترمه وأثق به، فلماذا لا أرضى بهذه العلاقة وأنا وحيدة والوسط الفني يربكني بتخلف نظرته للفنانة. لم يقتنعوا أن أكون وحيدة بلا رجل، صار الكل يدعي علاقته بي، فتحتم علي الدفاع عن النفس بالارتباط بزواج آخر وإن كان سريّا أو نصف معلن. لم يكن في البداية حبا، بل هو هروب من الوحدة التي تطوقني. حتى وسامته التي أبهرتني عندما التقيته لأول مرة، بهتت ثم اختفت. رجل متزوج، قلت لنفسي، ويكفي أن يكون صديقا لي، كبقية الأصدقاء. كيف، إذن، عندما أوقعني في حبه، عدت أراه، ثانية، أجمل الرجال ! هذا هو سحر الحب. عندما نعشق لا نرى الجمال إلا في إهاب المعشوق، ثم تبدأ رحلة العذاب..

بعد أشهر من ذلك عقد حبل قلبي، عندها عرفت الحب كما لم أعرفه من قبل. صار الحب عندي جنونا، وحين سافر، لأول مرة وابتعد عني، تيقنت أن الذي حدث بيننا قد سما إلى رباط روحي عجيب، حتى صرت أفك الطلاسم واتنبأ بعارضات الأيام التي تعترضه عندما يكون بعيدا.

مرة رأيته في أحلامي، وكان على سفر، يقف وإياي في مكان شاهق، وتحتنا وادٍ عميق مياهه جارفة، فجأة رأيت ملابسه تخرج منه لتسقط في تيار الماء المتدفق في الوادي، لكن ملابسه هذه تبقى منتصبة كما التمثال وسط السيول، وبدأت أصرخ. عندما استفقت من النوم زاد قلقي، انتظرت علّه يتصل بي تلفونيا، لكنه لم يفعل. في اليوم التالي جاءني صوته عبر الهاتف، خائرا، لاهثا، وهو يقول:

أنا مريض. البارحة نجوت من موت أكيد. كنت أقود السيارة وأفكر بك، ولم أنتبه إلا والسيارة تهوي إلى وادٍ عميق، ولولا صخرة كبيرة

أعاقت تدهور السيارة وأوقفتها، لكنت في عداد الأموات، كان شيئا مرعبا. الآن أنا لا أستطيع أن آكل أو أشرب، أشعر أن لا أحشاء عندي. أراك في كل مكان. اتخيلك معي. ندمت لأني سافرت بدونك، أتذكرك مذعورة مثل فأرة والرجال يلاحقونك بعيونهم فتقتربين مني، وتحتمين بي. لماذا تركتك وسافرت. كيف تركتك وحيدة، وأنا أعرف كم انت بحاجة لي في هذا الوقت بالذات؟. حبيبيتي، أنا متعب جدا الآن. أتحدث مع الأخرين لكنني لا أشعر بوجودهم معي. زوجتي اعتقدت أنني مريض، فحصتني وهي طبيبة كما تعرفين ولم تقع على علتي. مشتاق جدا لك، ولا أطيق العيش بدونك، انا بحاجتك كما الهواء الذي لا أقدر على العيش بدونه. حبي سومر، سأقطع سفرتي، لأعود إليك.

بعد عودته بيومين سافرنا معا، عشنا شهر عسل ذقت فيه من السعادة ما لم أذقه في حياتي كلها.

كان حبه لي غامراً، واهتمامه تجاوز كل الحدود. تمنيت أن تكون علاقتنا زواجا يعرف به الجميع، أن لا أشعر بالرخص أمام نفسي، وهو يغمرني بكل هذه النعم، وهذه الهدايا. مرة اشترى لي عشرة أزواج من الأحذية، دفعة واحدة، بألوان مختلفة، وحينها راودني أحساس أنه يشتري جسدي وروحي بهذه العطايا، وبقيت أسأل نفسي، إن كان، حقا يحبني، فلِمَ لا يريد أن يكون لي وحدي، لِمَ يصر على البقاء معها؟ ساعتها شعرت بالإهانة، فحزنت وتوترت كل مفاصل جسدي. ويبدو أنه عرف ما ينتابني، فسألني مستغربا:

ما بك؟ حسنا، لن أشتري لك شيئا بعد الآن، أنا لم أر بحياتي امرأة لا تحب الهدايا كما لاتحبيها انت. هو لا يدري أنني أحب الهدايا حينما تكون من رجل يحبني علناً، يضع يده بيدي وأسير وإياه، مرفوعة

الـرأس أمـام النـاس، لا مـن رجـل أدخلـني حبـه في دوامـات دوخـتني وستدوخني ما بقي من عمري. أفرح بهدايا إن كانت من رجل لي وحدي أنا وليس زوجاً لأخرى. لهذا اشعر معه كأن الهدايا هي ثمن خيانتي لنفسي، وخيانة أمراة بريئة لا أعرفها.

هذه حقيقة، لكني لم أقلها أمامه، ما كنت أريد تعكير مزاجه فأفسد الجو الذي نحن فيه. بررت له حالتي العصبية بأنني لا أفضل هذا التبذير، وأمامي في تلك المدينة العربية التي ذهبنا لها فقراء لا يقوون على سد رمقهم. قال مستغربا:

- لا زلت بأفكارك الأشتراكية.

- ماذا تقول، الأشتراكية ! وإذا تخليت عن افكاري هذه، فهل أتخلى عن أحساسي بما يعانيه فقراء الناس ياصديقي.

يمد يده على خدي بلطف يتلمس بشرتي، كان يحب أن يتحسس خدي قبل أن يقترب ليأخذ شفتي ثم يواظب على تفجير كل حرماناتي ويحرقني فأتلوى تحت جسده القوي، وأنا أمتص لسانه اللذيذ صارخة به:

أدخلني بكل قوتك، فلك أنت وحدك أشرعت سماواتي..

كنت أراه بيني وبين روحي، بيني وبين أنفاسي، كان الشعرة التي تربط جسدي بروحي، إن قطعت سأموت.

في إحدى الليالي وحينما كان مسافرا بدوني، حلمت به طوال الليل، وبقيت احلم به، أراه في كل إغفاءة حزينا، أستفيق مذعورة ثم أعود للنوم فيعاودني الحلم نفسه. أقلقني الحلم كثيراً وأيقنت أن أمراً سيئاً حصل له. قبل ان تشرق الشمس اتصلت بصديقة لي في بلد آخر، قلت لها، أنا خائفة عليه فطيفه لم يفارقني طوال الليل ورأيته في الحلم منزعجا.

طمأنتني وقالت هي أضغاث أحلام العشاق. بعد نصف ساعة من تلفوني لها اتصلت بي إحدى معارفي التي تعمل بنفس المؤسسة لتسألني عن صحته، سألتها بقلق وخوف:

ما به؟

زوجته اتصلت بالمؤسسة لتحصل له على إجازة من العمل، لقد سقط أثناء نزوله من درج عال وأصيب بارتجاج بالمخ ووضعه يثير القلق.

طار صوابي وصرخت باكية، اتصلت بصديقتي لأقول لها هل عرفتِ الآن صدق أحاسيسي وارتباطنا الروحي، وهل صدقتِ أنني أرى بأحلامي كل ما يحل به؟

اتصلت بأخيه الذي يسكن مدينة أخرى، فوجدته لا يعرف شيئا عن الأمر قال إنه اتصل به البارحة ولم يقل له سوى إنه مصاب بحمى بسيطة. عندها عرفت أن حالته ليست بالسوء الذي أقلقني، لكنني عشت الجنون بعينه على مدى يومين، حتى تحدثت معه بالتلفون، وسمعت صوته.

منذ ذلك اليوم وصديقتي تحسب حسابا لأحلامي وتخشاها أحيانا، بل تتمنى أن لا أقصها عليها.

تعود سومر لتدندن الحانها عازفةً على العود بعد أن تعطيني طفلتها لتنام في حجري.

وترها الحزين

جاءت سومر اليوم شاحبة متعبة العينين، سألتها عن سبب ذلك قالت:

بعد أربعة أيام، انا مدعوة لعزف الحاني في حفلة، وسأغني أيضا . لكنني أجد جسدي قد زاد وزنه، فقررت أن اتبع حمية سريعة لمدة أربعة أيام، فانا أفضل أن لا أظهر للناس على المسرح، إلا بخصر رقيق.ثم يعاودها قليل من الفرح، فتقول ضاحكة:

على الأقل حتى يتناسب شكلي.مع أجواء موسيقاي الرومانسية. تصمت قليلا، ثم تقول: ألمتني الحمية و لمدة ثلاثة أيام لم أستطع أن أنام جوعا . حاولت أن أنام بكل الوسائل فأخذت أول يوم قرص منوم، وفي اليوم الثاني والثالث وضعت مخدة صغيرة على بطني ورفعت ركبي للضغط عليها . شددت شالاً على خصري حتى سمعت أمعائي تعزف لحن الخواء الموحش، لكن النوم بعيد . أتعرفين تذكرت من؟ الفقراء. هطلت دموعها قبل أن تقول:

اتعرفين، لو كان الصوم يبتدئ من الظهر حتى صباح اليوم الثاني، ربما كان أكثر نفعا، كي يشعر الصائمون بجوع الفقراء، إذ لا يستطيعون النوم جياعا . أما أنهم ينشغلون بشؤون الحياة عن الجوع نهاراً ويتخمون أنفسهم في الليل لينـاموا دون شعور بالجوع، فهذا لا يجدي نفعا . ألا ترين أن الأديان فشلت في أبتكار وسيلة توقظ شعور الأغنياء بجوع الفقراء، فأزداد هؤلاء غنى، وازداد الفقراء في العالم؟ ألا تتفقين معي في هذا؟

- فكرة جديرة بالنقاش ولكن لا وقت لدينا لنناقشها الآن، المهم، كيف هو معك هذه ألايام؟

تجيب بإصرار:

سأقول له غداً إنك اخترت الموت ولم تختر الحياة. اخترت المال والطمأنينة البليدة.

يفهم أو لا يفهم فهذه هي الحقيقة. سأقول له كم أحببتك. كم احترقت في حبك، وكم طاردتك في الشوارع. كنت اشعر وأنا أركض وراءك ملتاعة بحبك أني أدفع الكرة الأرضية بأقدامي دفعا لتركض بي نحوك، في محطات القطار، بخطوط الهواتف. سكبت روحي قطرة قطرة مقابل سماع صوتك، توسلت بمن أثق من الأصدقاء علهم يأتون لي بأخبارك، حتى ملّوا.

قاطعت الدنيا كلها من أجلك، دست على كل المغريات، أردت أن أكون وفية لك وحدك. أردت أن أفخر بهذا الوفاء الذي كنت أحتاجه وأتمنى أن أحققه لرجل طوال حياتي..

كم كنت أتمنى أن أكون مخلصة في الحب مثل مشاهير العشاق في التأريخ، مثل قصص الحب في الأدب، أن أكون مثل جوليت أو ليلى في عصرنا الحديث هذا، وأن يكتب الناس عن جنوني في حبك ويستشهدون به.

ليس لهذا اخلصت لك، بل لأنني أحببتك فعلا وجننت بك، ولأنها ليست تجربتي الأولى في الحب، أذهلني أن تكون بكل هذا العنف والعمق، ولأنني بعمر لم يعتد الناس أن يكون عمر هوى تباهيت به وربما أعطاني دفقا من الإحساس بالشباب والحيوية، وهما أقل ما يذكر من بركات

الحب، حتى أحسست أنني عدت بعمر العشرين، وكعادة جسدي استجاب لهذا الإحساس فكان الناس يسألونني : قولي بربك أي سرٍ يجعلك بهذا السحر والجمال؟

وكنت أجيبهم: لا شيء سوى الحب والموسيقى .

سأقول له كل هذا وأشرح له كل شيء.

.....

يأتي الغد فتنشغل سومر بحبه، ناسية كل ماصممت عليه البارحة. أرادها الكثير أن تكون سيدة لا منازع لها في القلب، مدللة، أثيرة على كل النساء، لكنها رفضت كل القلوب التي التاعت بحبها، وجاهدت هي من أجل بلوغ درجة واحدة في سلم اهتمامه. اختارته هو دون سواه. أقنعت نفسها أن هذا العشق المستحيل هو رقي في المشاعر الإنسانية وإبداع فيها لا يقدر عليه كل الناس، فهو مثل الآداب والفنون، انه العشق الذي لا يرقى له الجميع. أيستطيع أي شخص أن يكون شاعراً أو فناناً؟

إنه موهبة تمنحها الطبيعة للعاشق مثلما تهب الصوت الجميل والقدرة على الرسم ..

. كانت، عندما تلام بهذا العشق، تسأل اللائم:

- أتستطيع أن ترسم؟

- لا

- غيرك يستطيع فهل تلومه؟ هكذا العشق، موهبة لاتمنح لكل الناس. يملكها من لديه إمكانية العطاء والتضحية، العشق كرم في الروح، وهو أعلى أنواع الكرم، بالحب وحده قد أمنح عينا من عينيّ لحبيبي، وقد أفديه بحياتي. لماذا أنتم تصرون على عدم الفهم؟

أنا لم أحبه لأ تملكه، فأنا لا أحب التملك، بل العطاء.

التضحية من أجل الآخرين أو من أجل الإصرار على المبدأ نفسه لا يهم، وها أنا أضحي من أجل أجمل القيم في العالم .. تلهج بفلسفتها عن الحب وكأنها تهذي.

إنه الحب لذاته وهل في الدنيا كلها اعظم من مبدأ كهذا؟

"الحب من غير أمل أسمى معاني الغرام"

تردد سومر هذه الأغنية العربية الشهيرة وتعزفها بعودها دائما.

مرات عديدة يصل صوت عودها الى شقتي، وللمرة المليون تحاول اقناع نفسها أمامي بأن هذا الحب في المكان الصحيح، وبأنها على حق، وبأن الناس لا يقدرون عمق ما تشعر به مثل ملايين المرات التي لمست بها وبالأدلة القاطعة أنه لا يحمل لها ما تعتقده من الحب، وبأنه قد تغير كثيراً عن السابق، بل لا يشعر بها مثل أول سنة من علاقتهما، صار ينساها كثيراً وينسى أن يسأل عنها لعدة أيام.. لكنها تبقى تعزف له على أوتارها مرددة الحان روحها:

يناديك قلبي، تدعوك ارتجافاتُهُ لسماع آخر الكلام في الحب، أفتحُ أمامكَ جروحي،
جرحاً، جرحاً، تلتهمني ذكرياتنا، وكيف أعددنا رفّات قلبينا للخفقان معاً، وحين كتبنا عقد الحب منحتُ الحياة ثقتي وأوكلت الأيام سرّ الفرح الهائم..
تغيّرت الآن المدارات، روّضت الأفلاك نفسها باتجاه أمكنة أخرى، مادت الأرض لتزعزع عرش حبي، لتحطّم بغفلة لآلئ تاجي. ما زلت ملكةً وما زالت دمائي طازجة للخوف من الانهيار. ضعف قلبي، امتصني الألم حدّ

التفتت، وها أنا أمنحك فرصة التحرر بتجميع فتاتي ،ولو على بُعد. القوافل السائرة إليك أتعبها سرابك اللامحدود، تقطعت أشطانها وبان الهلاك. أأنت هو الذي كان؟ لملمت حماماتي أجنحتها واحتملت الطيران أمام النيران. ضمّدت ما كُسر واستماتت في الرحيل. أأنت هو الذي انتظَر؟

كل قلوب الفراشات التي طارت بفرحنا ابتهاجا، وكل نواطير البساتين الذين رأونا نُطلق عنان الرغبة، وكل السواقي التي أقسمنا بمياهها، سهرت اليوم لتوقيع صك الموت معاً

وتخلّفت أنت. وها أنا أشرب موتي وحيدة. أحفظ عقد الحب، أقدّسه ولن أُخلّ به أبدا..

حين سرحت سومر قليلاً، رأتها، ذات الحشرات تتحداها بوقفة لا حراك بها، تنظر لها احدى الحشرات بعيون محسوسة، تشعر بها سومر وتراها هي فقط فتخاطبها كمن يكلم نفسه بعصبية:

كفي عني أيتها اللعينة لأ كمل ما أريد عزفه.

كفي عني يا من دخلت داري لا أدري كيف وأبحت لنفسك كل ما أملك دون استئذان.

كفي عني ودعيني لوحدتي والحاني...

وتر الطفولة

ما كان أهلها يشيرون إلى جمالها أبدا. أمها تربت على تقاليد المحافظين المتزمتين. ولو كان بإمكانها أن تسجن البنات في البيت حتى يوم الزفاف أو الموت لما تأخرت، لكنها لم تفعل، فالمجتمع تجاوز هذه المرحلة.

كان في دماغ أمي فكرة راسخة مفادها أن البنت يجب أن لا يقال لها إنك جميلة، بل على العكس يجب أن تعلم أنها قبيحة وغير مرغوب فيها من الرجال، حتى لا تستقوي بجمالها وتأتي بأفعال لايرتضيها المجتمع، فتجلب العار لأهلها.

أكثر من يسمعها كلاما قاسيا هي أمها. أكثر من يعاملها بقسوة هي أمها.

إنها ليست كأخواتها بعيون ملونة وشعر أشقر، وهي ليست بيضاء بلونهم، إنها بلون حنطي أشقر، يختلط فيه الورد والقمح معا فيسأل من يراها نفسه، ترى ما سرّ جمالها؟

هم لا يعرفون أن زواج الورد مع القمح هو السر وراء هذا السحر، وأن الطيبة التي تشرق منها هي نتاج رومانسية الروح، وعندما تمتزج هذه العناصر، يشع محياها بأنوار تثير الدهشة..

طفلة جنّت بالسماء والنجوم. تصعد في الصيف إلى السطح وقت الغروب لتضطجع في السرير الخاص بأبيها، تراقب السماء باصرار وثبات من يريد أن يشهد لحظة اتقاد نجمة ما. قبل يوم حددت موقع

نجمة معينة. إنها فوق سرير والدها وبالضبط على استقامة من مخدته، تماما كما حددت المكان البارحة. اليوم تحدق الى المكان نفسه علّها ترى أول إشراقة لنجمة البارحة، تبقى محدقة في المكان دون أن ترمش عينيها، لكنها بعد فترة طويلة تلتفت لترى أن السماء مليئة بالنجوم كلها إلا نجمتها المنتظرة التي ربما اتقدت في موقع لم تره وبلحظة لا تدريها . تصاب بخيبة أمل.

كانت تعتقد أن الله يقوم يوميا بإيقاد النجوم كما توقد البلدية مصابيح الشارع، يضغط الله زراً فيتقد كل ما في السماء.

لحظات وجودها في السطح وقت الغروب، أحبتها كثيراً، ترى من مكانها ذاك جميع بيوت المدينة التي تشكل دائرة تنظر لها من فوق، ظانة أنه إثبات لكروية الأرض الذي سمعته من أهلها، لكنها ترى ان العالم ليس أكبر من كل هذه البيوت مجتمعة. أما ما خلفها فهو فراغ، عالم غير مسكون، مجهول ومخيف، ليس فيه سوى الأشباح ولايتردد في ظلامه إلا العواء.

لحظات وجودها على السطح تتيح لها فرصة لرؤية مساكن المدينة جميعها، تلك المساكن المختلفة التي لا يشبه بعضها بعضا، الكبير منها والصغير، القديم والجديد، المصبوغ بالأبيض أو الأزرق أو الأخضر، أو غير المصبوغ إلا بصباغ الفقر. الأسمنتي اللون أو ذو الطابوق الأشقر المبهج، تلك البيوت المتراصة بتشكيلة عجيبة وكيفما أتفق، العالي منها والواطيء، الذي يحوي غرفاً وطابقاً علوياً، والذي يمتد بمترين فقط أعلى من الأرض إذ لا ترى منه سوى الفناء. هناك بيتٌ بغرفة واحدة في الطابق العلوي، تضاء في المغرب وقد تدلت على الشباك ستارة جميلة بلون أزرق وبخطوط بيض وحمر. يشتعل خيال الطفلة، وتأخذها

الظنون أن وراء الستارة امرأة جميلة ورجل عاشق، كانت تتخيل عالم ما وراء الستارة، فتتصوره محاطا بالأسرار، كل ما في داخله ساحر، امرأة فاتنة الجمال تتنعم بالحرير، وترقص لحبيبها، ثم تقدم له الشراب، ثملة من فرط السعادة، سكرى بشراب العشق، وقبل انبلاج الشمس تعود لتختفي داخل الفانوس السحري، لتظهر منه ثانية عند حلول المساء، كما في الحكاية التي قصتها لها امها ذات يوم.

بيت أخر عتيق، في طابقه العلوي غرفتان، امام باب احدهما يجلس شاب لا يبرح مكانه، يقرأ الكتب بنهم حتى لكأنه لا يرى ما حوله من عالم متناقض، فلا يعيره اهتماما بل لا يرمقه بنظرة واحدة، فهو قد لا يبارح الكتاب إلا عندما يغلق صفحاته ثم يهبط السلم الذي لا تراه الطفلة، فكأنه من بعيد ينزل في ثقب غير مرئي في الأرض ليختفي في الظلام، ولايخرج منه الا عندما تراه بذات المكان في اليوم التالي.

شغلها التفكير بهذه المشاهد، مثلما شغلتها الطيور الكثيرة التي تملأ السماء، صيفا، والحشرات والفراشات، ورائحة الأرض الفواحة، ونقيق الضفادع، الآتي من نهر الفرات العظيم.

كل شيء كان جذاباً، مثيراً يستحق التفكير والتأمل. حتى الخفافيش التي تجن في الصيف وتصطدم بكل شيء أمامها لعماها الليلي، كانت تثير انتباهها. كثيرا ما أزعجتها الخفافيش، فهي تخاف أن تصطدم بوجهها، وزاد خوفها ماسمعته من عمّتها أن إحدى الفلاحات فقدت بصرها حين التصق خفاشٌ بعينيها. فجأة تسمع صوت أمها تناديها:

- سومر، أين أنت؟

وعندما لا تسمع جوابا، تقلق الأم، فيتردد صدى اسئلتها في اجواء المنزل:

- أين ذهبت البنت وكيف تبقى حتى هذه الساعة من المغرب؟

تكرر الأم النداء غاضبة، وهي تظن ان طفلتها ما تزال خارج المنزل.

عندها تصيح سومر:

- أنا هنا، إنني قادمة بسرعة..

تهبط السلم، تعود لعالم اليقظة، عالمهم الذي تراه ثقيلا وغير مفهوم.

حتى النجوم، رغم كثرتها وغموضها ورغم بعدها المتناهي، تراها أسهل منهم وأقرب إلى قلبها. تتمنى الطفلة لو تكون دائما بصحبة النجوم. فللنجوم قصص سمعتها من أمها وأبيها.

كثيرا ما يجتمع الأطفال ويطلبون سماع الحكايات من أبويهم، كانت تستمع لكل كلمة، وتحفظها في ذاكرتها لتعيدها على طالبات صفها في اليوم التالي. فالدب الأكبر كما يسميه والدها هو بنات نعش عند أمها، ودرب التبانة هو مجر الكبش. دلها والدها الذي يقرأ كتب الفلك على مواقع النجوم فتلك التي في قلب السماء اسمها المريخ، وتلك زحل، وعطارد التي اصبحت لقرب مدارها من الشمس حمراء لاهثة أكثر من سواها، وتلك نجمة صغيرة تلتصق بإحدى نجوم الدب الأكبر، كان العرب يدعونها السهى وقد لا يستطيع البعض رؤيتها لصغر حجمها وكأنها وميضٌ يُشعل ويطفأ، والعرب يفحصون بها قوة عيونهم، فمن يراها فهو قوي البصر ومن لا يراها يجب أن يعالج عينيه.

أما نجمة الصباح المخيفة بجمالها، فتراها مثل امرأة متسلطة آمرة، كثيرا ما كانت تغطي وجهها حين تراها متفردة في السماء، كلها فخرٌ واعتزاز، تراها دكتاتورة سماوية، وفي داخلها تصور لم تصرح به لأحد، وهو انها كانت تظنها زوجة الله، لهذا يخلي الله السماء لها حينما تريد الظهور واستعراض جمالها المرعب، كأنها لا تريد أن يشاركها في هذه السماء الكبيرة أحد ...

أبي كم الساعة الآن برأيك؟ تسأل سومر واخوتها أباهم

ينظر الأب للنجوم ويجيب :

الآن التاسعة إلا ربعا. يخرج الاطفال الساعة التي ابعدوها عن الأب، ليندهشوا حينما يرون ان الساعة هي التاسعة إلا ربعا .

- كيف عرفت ذلك يا أبي؟

- إنه علم الفلك، عندما تكبرون سأعلمكم إياه.

تتنهد سومر وهي تتحدث عن ابيها وتتذكره بحب:

كنت أرى ان أبي يعرف كل شيء في الدنيا، اتمنى لو أستطيع تسجيل كل ما يقول، كل أشعاره وكل معلوماته وكل الحكم التي يحفظ. كنت احلم ان أكون صغيرة بحجم علبة الكبريت لأستقر في جيب أبي، وأبقى أشم عطره، وأسمع كلامه أبداً.

لا يمكن أن يكون هناك من يعرف أكثر من أبي، أو يحب الناس بقدره. كان يتنبأ بأشياء ستحدث وإذا بعد فترة من الزمن تصدق تنبؤاته. يقول دائما لأخي الصغير أنك ستموت شهيداً، تصرخ أمي في وجهه:

- لماذا تقول ذلك عن الولد؟

- لا أدري كلما رأيت وجهه أراه يموت شهيداً، قد تقوم حربٌ عالمية أو حربٌ مع إسرائيل، لا أدري لكنه سيموت شهيداً، هذا ما أراه وأتمنى أن لا يكون ذلك وأنا على قيد الحياة.

تسخر منه أمي قائلة :

- لا يعلم الغيب إلا الله، مضيفة؛ كذب المنجمون ولو صدقوا.

الإنسان يأكل ليعيش لا يعيش ليأكل.

سمعت هذا من والدها فصارت تسأل الأطفال الذين تلعب معهم وكأنه لغز تتفاخر بمعرفته:

- هل تعلم أننا نأكل لنعيش أم نعيش لنأكل؟

كان ذلك سؤالاً فلسفياً كبيراً على الأولاد، يصمتون عاجزين عن الإجابة، فتجيبهم الطفلة فرحَة وبنفس طريقة والدها في الشرح بل بنفس حركاته وارتعاش عينيه.

اجمل شيء في الطفولة هو عدم إدراكنا أننا سنكبر..

خرق قماش وأغطية مشروبات غازية، صنعت تلك الطفلة منها كل ماعندها من الدمى. تغلف غطاء القنينة بقطعة قماش أبيض، ترسم العيون والشفاه، تلصق قطعة من الصوف أو القطن على رأس اللعبة كالشعر، ثم تثبت الرأس هذا على جسد اللعبة الذي لايتعدى ان يكون عصا بطول الشبر، وتكملها بعصا صغيرة أخرى كما الصليب دالة بها على ذراعين مبسوطتين. تُلبس الدمية ثوبا وتنهى ذلك بإعطائها اسماً ما.

لديها من الدمى عائلة كاملة، لهم مواليد، أعمام وأخوال. وخوفا على سلامتهم تُسكنهم في حقيبة لها من التنك المصبوغ. تفتح الحقيبة عندما لا يكون أخوها الأصغر موجوداً، فقد يمزق الدمى ويستهين بتماسك هذه العائلة التي تحب. تتنازل عن أشياء تحبها لأخيها كي لا يؤذي عائلتها الصغيرة تلك.

إنه رجل وهي أنثى. كثيراً ما تسمع بأن المرأة مرأة، والرجل رجل.

رغم أنها تراه شقيا يأتي بحماقات كثيرة كأن يمزق دفتراً أو يكسر دميةً وهو قد ينسى نعاله ويمشي حافيا، لكنها تتيح له المجال لتمثيل دور الرجل أمامها، فالجميع يريد ذلك.

دائما كان عليها أن تتنازل. دائما عليها أن ترضى بكل شيء وتصمت محبوسة بدائرة مغلقة دونما صراخ. لكن حصارها بدأ يضيق أكثر، والتنازل صار صراعا مؤلماً.

وترها المرتجف

ظهيرة كنا نلعب في بيت خالتي لعبة الاختباء، كنت ألعب مع ابنتها التي تكبرني بعام وابن خالتي الذي يصغرني بعام أيضا. نلعب في الحديقة الكبيرة خلف الدار، فمنزلهم كبير جدا وبه 13 غرفة، قديم كمتحف، يبلغ سمك جداره متراً، ويقدر عمره بمائة عام، له باب يفضي الى تلك الحديقة الفارغة من الأشجار، المحتفظة باسم حديقة تجاوزا، فهي الآن خربة وليست حديقة أو هي"خديعة" كما أسمتها أختي الكبيرة تندرا وبحثا عن اسم يناسب حالها المتصحر. ينتصب بالحديقة هذه تنور لشواء السمك، تحيط به أكوام من السعف لإيقاده ساعة الحاجة. تصطف محيطة بالجدران الأربعة أوان فخارية، كبيرة، ملونة ومزركشة، اللازوردي، الأزرق والأخضر. أوان لصنع الخل ملأى بالماء والتمر. أصعد إلى السطح لأطل على كل ما بهذا الفناء الكبير. كنت أتخيل الأواني الفخارية تلك وكأنها نساء سمينات ورجال يحيطون بالمكان بهدوء كما لو انهم في مجلس عزاء. أحيانا أراهم مخلوقات آتية من عالم آخر، يرون ويفهمون لكنهم لا يتحدثون.

هذا المنزل تسكنه عوائل كثر، كلهم أقرباء، حصة كل واحد فيه غير معلومة وغير محددة. صغار، كبار، نساء ورجال، بعضهم القوي الذي يخدم نفسه والآخر الضعيف الذي يخدمه القوي. كان عالماً مختلفا عن العالم خارجه، بقيمه وبحبه وحنوّه على ساكنيه. ساكنوه أشكال وألوان، فمنهم من هو أعمى ومنهم من يبصر بنصف عين أو بعين كاملة كما حال الشاعر كريم الذي لا يجرؤ أحد على السخرية من عاهته لأنه طيب

ومحب حدّ نسيان الناس لعاهته المعلنة، حتى أن جميع الناس بالمدينة فجعوا حينما وقع في السوق ميتا بشكل مفاجئ وفي وقت الصلاة.

ويمكنك أن تحسب ذلك البيت نادياً للشباب، حينما تتفاجأ بعدد الشباب من ساكنيه، شباب يشربون الخمرة سراً ويرقصون، ويقرأون الكتب الماركسية. بنات وشباب يجتمعون أحيانا داخل غرفة واحدة يغلقون بابها ساعة ادعائهم الدراسة، كلهم أولاد خالات وعمات وأقرباء، يثرثرون ويتحدثون عن الحب، يتناقشون بالسياسة، او يحكون لبعضهم نكات، وكأنهم يعيشون بمعزل عن الأهل، بل كأن مابداخل الغرفة تلك مايشبه مابخارجها من التقاليد.

ذاك المكان الذي أحببته أكثر من أي مكان آخر في العالم. قضيت فيه أعذب أوقات طفولتي، لا يبعد عن منزلنا إلا بضعة أمتار. عالم واسع جدا، أكتشفت فيه الكثير من الأشياء الجديدة.

يومها كنت في التاسعة من عمري عندما اختبأت خلف السعف ليلحق بي ابن خالتي، اضطررنا للتمدد إمعانا بالاختفاء حسب مقتضيات اللعبة وكي لا تكتشف أخته مكاننا. تلك اللحظة التي تمددت بها على الأرض شهدت حادثاً جديداً زاد من تنازلاتي وحصاراتي حيث رفعت عيني وإذ بأخي الأصغر "حسام" يقف كمارد، وهو يقوم بدور الرجل ذي الأربعين عاما. صار تلك اللحظة لا يشبه طفلاً أبداً. أهذا ابن الثامنة؟ غير معقول، كيف كبر تلك اللحظة وأصبح رجلاً شرقياً عرك تقاليد مجتمعه، أغضبه أن يرى أخته الأنثى تتمدد مع ذكر حتى وأن كان أبن خالتها وبلعبة بريئة اعتادها الأطفال. كيف تضخم ذلك الطفل فأرعبني دون أن أعرف لماذا؟ صاح بي بعصبية وعنف:

- هيا قومي بسرعة إلى المنزل.

نهضت فزعة، لا أدري سبب غضبه هذا، صاح بي بصوت عالٍ :

- تتمددين معه تحت السعف، ها؟ ثم ركلني برجله من الخلف.

أجبت بذعر:

- إننا نلعب. قال متوعداً:

- سأخبر أمي.

آآآآه، سيخبر أمي، ما كان يخيفني سوى ذلك. أمي حتما ستتخيل أشياء أخرى عني، ستصدقه وتكذبني، ستضربني وقد يتطور الأمر إلى أكبر من ذلك.

يشتعل قلقي فأتذكر يوم لعبت في السطح مع بنات وأبناء الجيران، نادتني أمي فجأة فاستجبت، وما أن اقتربت منها حتى صارت تكيل لي الرفس والعض كالمجنونة. كنت أجهل سبب ذاك الضرب، ولولا تدخل إحدى جاراتنا لقضيت بين يدي أمي ذلك اليوم.

كان صراخها وصوتها الغاضب يكرر:

- دعوني أقتلها وأرتاح من هذا الجنس، فالبنات نقمة. تتنهد سومر وتكمل قائلة:

حين كبرت علمت أن الجارة قالت لأمي إن ابنتكم جميلة، كيف تتركونها تلعب مع الأولاد الذكور، ألا تخشون خطورة ذلك؟

فما كان من أمي إلا أن أوجعتني ضرباً دون ذنب لتثبت للجارة أنها لا تسمح بترك حبل على الغارب في بيت تديره هي.

مرت في خاطري تلك الحادثة التي لم يمض عليها سوى أيام، فيا لهول ما ينتظرني إن علمت أمي بشيء كالفتنة التي حملها أخي بين فكيه.

.....

متعثرة بخوفي، وانا اتخطى عتبة المنزل عائدة من بيت خالتي، أقول لنفسي علّه ينسى.

كنت صغيرة على معرفة ما يفكرون، بريئة، فابن خالتي لم يمد يده لممنوع في جسدي كعصفوري مثلا، حتى انه لم يره حين نبول جميعا، إنني أغطي نفسي كي لا يراه أحد مثلما نبهتني أمي لإخفاء ذاك الشيء عن الأعين. أذن لماذا غضب أخي؟ لا أعرف..

انقضت فترة الغداء ولم يتكلم حسام وجاء العصر حيث يعطي الأب كل فرد من الأطفال قطعة نقود صغيرة لشراء حلوى أو ما شابه.

أخذتُ يوميتي كما أخذ حسام ذلك، خرجت وابتعت قطعة من الشكولاته المفضلة لدي. هممت بفتحها وقبل أن أتذوقها وإذا بحسام يقف مطالباً بإعطائه الشكولاته كلها.

عندك نقود وتستطيع أن تشتري واحدة مثلها .....ردته بحزم.

لكنه بنفس نبرة الصوت المتوعدة، رد مختصرا بكلمة واحدة:

سعف.

لقد اختلق قصة وأعطاها عنوانا هو المكان الذي حدثت فيه وصار أسمها "سعف" وهاهو يهددني باختصار شديد..

تخيلت أمي في لحظات الغضب والشرر يتطاير من عينيها.

لقد صار من اللاشيء سراً أخافه، أشعر بالحصار، يكرر حسام كلمته بنبرة التهديد

سعف.

يضيق الحصار عليها فتتراخى يدها و..تسلّم قطعة الشكولاته لأخيها، دونما شكوى وصراخ كما يفعل بقية الأطفال. على هذا المنوال وجد حسام، أخيرا، سلاحاً يهددها به، فحين يرغب في اغتصاب لعبة منها يقول:

سعف

وحين يريد أن يصبح قائدا للعبة هو ليس كفؤاً لها يكرر ذات المفردة:

سعف .

تحدثني سومر وكأنها تشعر بالحصار الان رغم بعد السنين مضيفة:

لقد طاردتني هذه الكلمة وأرعبتني ليل نهار، لم يكن أمامي سوى الرضوخ لما يريد أخي. كلمة "سعف" باتت قهراً لا أعرف دفعه بعقلي الصغير الخائف. اعتدت على الخوف من قول الحقيقة أمام أمي . مهمومة أذهب إلى فراشي، متمنية عالما آخر غير هذا العالم.

منذ ذلك اليوم بدأ عالم جديد يفتح أبوابه أمامي، فأدخله طلبا للطمأنينة. منذ ذلك اليوم بدأت يوتوبياي الطويلة. فعندما وجدت أن صخب النهار، بناسه وبأهلي وبصوت معلمة الدرس، وبمفردة سعف المسلطة علي كالسكين، يحاصرني، رحت ألوذ بنفسي وأختلي بها، ولا أفيق إلا وصوت المعلمة يناديني، صارخا:

سووووومر. – لماذا لا تجيبين ألا تسمعين؟

لاسبيل للخلاص منهم سوى ان أستغلَ الليل، حيث ينام الجميع وآنذاك لا حصار على عقلي، وأحلامي التي لا يعرفونها. وهكذا صار الليل مملكتي وعالمي الأثير.

حصل ذلك بعد أن حصلت على فراش يخصني وحدي، لأول مرة احصل على فراش مستقل. فراش لي أنا فقط. لا أحد يشاركني فيه. لا أحد يضربني.

حصلت عليه في يوم من أيام الصيف، حيث الناس يخرجون الأسرّة لينامو في فناء المنزل أو الحديقة، المهم أن يكون مكاناً مفتوحاً على السماء لأن الحرّ خانق ولا يمكنهم النوم في مكان مغلق. إنها المرحلة الأولى من الصيف قبل الصعود للنوم فوق سطوح المنازل.

كان أهلي ينامون في هذا الوقت من الصيف في فناء المنزل وكنت أكملت التاسعة من عمري حين سمعت أبي وأمي يتحدثان عن ضرورة أن يفرقا بيني وبين أخوتي في المضاجع، إذ أن من الخطر أن تنام البنت مع الذكر في هذا السن.

أصبح لي ذلك اليوم سريري الخاص بي. لي أنا وحدي فراش مستقل، عالم أحببته.

فرشوه بأفرشة نظيفة بيض، واسميته عريشا فصار جميع اهلي يسمونه هكذا ويضحكون. نصبوا لي فيه ناموسية اتقاءً للحشرات. دخلت الناموسية البيضاء كمن يدخل غرفة عرس، دنيا من البياض أحببتها، أحببت رائحتها العالق بها بقايا بخور تنشره أمي بعض الأحيان في أفرشتنا. أويت للفراش ذلك اليوم منذ الغروب لشدة فرحي، أردت أن استمتع بحريتي واستقلاليتي التي لم أحصل عليها من قبل. شعرت

بقيمتي وكياني. لم أستطع النوم من شدة الفرح، أنقل المخدة من جانب لآخر، كأنني أريد أن أتأكد أن لا أحد يركلني، لا أحد يضغط علي، لا أحد يجبرني أن أنام كما يحلو له..

لم أنس ذاك اليوم في حياتي قط.

أمتلك مكانا أبيض وكبيراً خاصاً بي، وحدي أنا دون سواي. شيء يستطيع حجبي عن الآخرين دون عناء ولفترة طويلة لا أُطالب فيها بالانتباه ولا الرد على أوامرهم.

كنت فرحة بقدر ما كنت أعاني من اشتراك أمي واخوتي في السرير الكبير الذي ما كنت اجرؤ على تسميته سريري. كانت أمي تنام جنب أخي الصغير والآخر الذي يكبرني بعامين. أما أنا ففي الجانب الآخر من الفراش أي تحت أقدام أخوتي أملأ المسافة بين أقدامهم والطرف الأخر من السرير. كم عانيت من جورهم علي بالركل وما كنت لأشتكي خوفا من أمي، ولأنني أنثى وهم الذكور، كان علي أن أسكت دائما.

وترها المكسور

وها هي تسكت على الظلم في عالم أوربي حضاري للمرأة فيه حقوق مثل الرجل ولربما أكثر. كسيرة سومر تمسح دموعها دائما ببوحها وكأن حبيبها يجلس أمامها، تحدثه وهو الغائب :

أردت لك حياة لا تخسر بها شيئا مما تحب. أردت بحبي المثالي أن أكون بطلة تضحي في سبيل الآخرين، ولأنني أدركت حاجتك الطبيعية والروحية لي منحتك نفسي دون مقابل ودون ضمانات وشروط، وبلا ابتزاز لربطك بعقد قران علني أو رسمي أو بأي شرط مهما كان بسيطاً. ولأن فهمي للحب يختلف عما اعتاده الناس، فقد تحملت اللوم الكثير وصار لي أعداء كثر.

ثم تلتفت لتسألني:

هل علمتنا تربيتنا الشرقية أن نحب دور البطل المضحي لنرتاح؟ وهل نحن على حق ياترى، أم لأنه الدور الأسهل من جميع الأدوار؟ هل هو دور سلبي يشبه الهروب من المواجهة ويعلو فيه المرء ليكون ملاكاً؟

هاهو حبيبي يتنصل من حبه لي منذ أول كلمة تخويف من زوجته الأخرى المعلنة، ثم يعاود الكرة لي شوقا ورغبة. وهكذا بدأنا مسيرة العذاب.

حينما تضغط هي عليه يبتعد عني، وحينما تضغط عليه حاجته لي، قلبه، وطبيعته، يقترب مني دون ان يتخذ موقفاً ولا قراراً. كنت

خائفة عليه من كثرة الضغوط، فرضيت بالهامش من حياته، أتعذب كل يوم وأجرح ألف جرح.

تنظر لي سومر محتارة، باحثة عن اجابات لأسئلتها غير المنتهية، غاصة بعبرتها وهي تلوب:

لست أدري لِمَ يكون نصيب الفقراء الطيبين دائما هو التضحية، هل لأنهم لا يملكون ما يضحون به سوى قلوبهم وأرواحهم فيضحون بها؟

ها أنا فقيرة، لاجئة، أطلب الدفء والأمان.. تهزمني الأمنيات.. تلدغني فأتجرع سمها .. خاوية الوفاض من كل المغريات.. أعطيته كل شيء.. دنا .. تطاول على آخر أحلامي.. سريري يذكرني بأسرّة المرضى.. أُحدّق الى خزانتي الهزيلة ورطوبة الجدار..أستفيق من غفوتي بصيحات لا أدريها، تنبّهني بوجود مارد في غرفتي.. تنكفئ الراحة بقطرات عرق الجبين.. جوعي يحاورني فيستقيم ثوري المجنّح.. أنفخ سحراً بالجسد الذابل بالإحباط..

اخرسي روحي، ولتسكت كلّ حبيبات الوجع الدامي. أسقطتُ حقوقي، والأوراق موقعة أبداً بالحرمان.

اليوم وبعد مرور ثلاثة أعوام على علاقتنا وعقد قراننا السري الذي عرفت اخيراً أنه كان مزوراً، زحف اليأس صوب قلبي . بين المدّ والجزر علاقتي معه. بكاء البارحة أوجعني فهل يستريح قلبي ترى بعد اليأس وينهي عشقه هذا؟

في صباح الغد قد ينسى كعادته ما قاله لي من رغبته في علاقة أخويه لا عشق فيها ولا عذاب، قد ينسى أنني حبيبته وزوجته. مَن هذا الرجل الذي يغسل ذاكرته كل يوم ويأتي بغريب الأفكار؟ يغلق تفكيره كما

يغلق شباك غرفته، يقنع نفسه أن كل شي على ما يرام، وبأنه قد حلّ جميع المشاكل، ثم يغفو حتى يرن جرس المنبه.

طلبني في الأمس لنعمل في الغد اتصالاً هاماً ومبكرا يخص العمل، اتفقنا على أن يتصل بي في المساء، ولم يتصل.

أقسمت البارحة أن لا أتصل به إلا إذا تذكر هو، لكنني كعادتي أيضا بحبه ألغي قرارات البارحة، ولا أجدني إلا وأدير الهاتف أطلبه:

- صباح الخير

- أهلاً، هل ستأتين للعمل؟ كيف حال الصغيرة، هل نامت جيداً ليلة البارحة؟ هل أنت ألان في البيت؟ أليس لديك عمل؟

يلاحقني بالأسئلة اليومية نفسها وينسى الإتصال الذي وعدني به البارحة، ينسى وجودي ولا أدري ما الذي دعاني لمعاتبته عندما قلت:

- أتستكثر الإتصال بي وبابنتك؟ لمَ لم تتصل؟

- أوه أنت دائمة التذمر، عندي أعمال كثيرة وأنا أراك في العمل كل يوم، والطفلة لا تشكو من شيء، إنها في حالة جيدة ولن تحتاج شيئاً وها أنتِ أرسلتيها إلى الحضانة.

- عفواً لم أقصد ازعاجك، سآتي للعمل .. إلى اللقاء

ذهبت بألمي، تأخرت قليلاً بتسريح شعري لأبدو أجمل. حملت معي الصور التي أخذناها آخر مرة معاً، كانت له صورتان ستبقيان تعذبانني ماحييت. رسمت الأبتسامة على شفاهي بعد أن سرت مشياً على الأقدام باكية ماسحة دموعي.

الجو رائع اليوم. إنه طقس الحب. هاهم العشاق يقبلون بعضهم في الشوارع، كم أحتاج لمشهد مثل هذا معه. بائسة أنا الآن مثل يتيمة اشعر بفقدانه.

هل كان عندي حب وانتهى؟ هل كنت أملك حبيبا فضاع؟ لماذا يستبد بي شعور بالفقدان؟

وصلت إليه، شربنا الشاي أريته الصور. أجلس معه وهو يتحدث بالهاتف كأنني لست أنا التي كان يحدق الى وجهي بلا ملل حين أكون معه. كأنني لست من كان يسألها باستمرار وبدهشة:

لماذا أراك في كل مرة جديدة؟ لماذا أنت ساحرة إلى هذه الحد الذي يجعلني أشعر أن الأيام معك تتجدد دائما، أشعر وكأنني أولد من جديد في كل مرة أكون فيها معك؟

لماذا في كل يوم، وحين نفترق عن بعضنا يرعبني هاجس الفراق الأبدي، وكأنك ستذهبين دون عودة، ولن التقيك مرة أخرى؟

أما الآن فهو يعاملني كزميلة فقط، لم يكن قد سافر معها ولا جنٌ بها، ولا جمعهم شهر عسل أنساهم الكون بما فيه، ولا كان لحبهم ثمرة هي طفلة رائعة الجمال اسمياها "لقاء"

قلت له بملل وبعصبية:

- سأذهب لمكتبي للعمل.قال:

- سأمر عليك في الظهيرة

- إتفقنا.

حاولتُ أن أبدو طبيعية، وأن تبدو علاقتي به كزميل عمل لا أكثر.

كيف يتجاهل أنفاسي؟ ألا يحس بحرارة قلبي؟ بدمعة ظلت تترقرق في عيني، دمعة أخالها ستبقى مادام في الدنيا عشاقٌ متألمون.

أعدّ اللحظات ولا أدري ماذا فعلت في عملي، بل فعلت كل ما هو بعيد عن التفكير. أمور يفعلها الإنسان بشكل انعكاسي بلا حاجة للعقل. أكتب على جهاز الكومبيوتر اسمه وأمحوه، ثم أعيد كتابته مرة أخرى. أكتب حديثي معه وأمحوه، حتى كانت الساعة الواحدة، اتصلت به قائلة:

- أنذهب معاً أم أذهب وحدي؟

جاء وخرجنا لنتمشى كعادتنا. في الطريق قررت أن أكون بعيدة، أحتفظ بمسافة يضعها الناس بينهم وبين زملائهم الذين تربطهم بهم علاقة رسمية فقط. تجنبنا أحاديثنا المعتادة. أحسست اليوم أن طقس التمشي معه لن يستمر، أنا الآن غير مؤهلة لإيجاد أحاديث كانت تسعد أوقاتنا. كيف حصل ذاك؟ هل مادت الأرض لتخلخل أجمل الأشياء، وينهار البناء فجأة؟ أحاول أن أجد ما أتحدث به، قلت:

- ستبقى بالنسبة لي إنساناً جميلاً .

قال:

- ثلاث سنين أليس كذلك؟ كانت جميلة ولا تنسى، وكنتِ أروع إنسانة في حياتي، إنك امرأة لا ثانية لها .

أتحدث والأسى يمزقني، الدم في داخلي يحرق عيني ويهدّ عروشي، يتحدث هو كمن يتحدث عن ميت قبروه منذ قرون.

اليوم هو الاثنين، والجمعة كنا معا، شربنا، تغزل بي كثيراً: قنديلي الجميل، أجمل النساء، أنا مدمن بك، وهل تفهمين مامعنى أن يدمن الانسان حبيبه؟ اليوم يقول:

كنا سنكون زوجين رائعين لو التقيتك قبل هذا الوقت. قلت:

أنت كنت مشروع فنان أو أديب لكنك الآن لست كذلك. ربما لو كنا معا منذ زمن طويل لكان لك شان آخر، ولكن الأقدار....

أدير وجهي بين الحين والآخر لأمسح الدموع. أهو غبي لا يشعر بذاك أم يتغابى؟

أم أنه انشغل بفكرة الفنان أو الأديب التي قلتها؟ ولكنه قد يسخر بداخله منها، لأن الأدباء الحقيقيين أغلبهم فقراء ولم يبنوا مجداً مالياً ماخلا القليل منهم الذين فروا من عالم المبادئ إلى امبراطورية المال.

قد يقول في نفسه حسناً فعلتُ ولم أصبح أديباً او فنانا فقيراً مثل آخرين ومثلك أنت.

تساءلت مع نفسي، ياترى هل أن العشق في المنفى هو عشق حقيقي؟ أم هو علاقة مشوبة بالوهم غالبا؟

على مصطبة في حديقة مررنا بها في طريقنا كان يجلس عجوز ثمل، رفع قنينة البيرة كمن يرفع إصبعه ليشهد على حق أو يحذر من أمر خطير مخاطبا إياه بلغته الأوروبية مع دمعات تجمعت في مآقيه:

انتبه وتمسّك بها، لا تدعها تذهب بعيداً عنك فتفقدها، إنها جميلة.

كم آلمتني كلمات الرجل، وددت لو أقبله وأبكي معه لأعرف وجعه. أي قلب ترى تركك تدمن وتبكي بالشوارع؟ وهل أنت صورة لمصيري وأيامي المقبلة؟

لو علم هذا العاشق الجريح كم يهملني حبيبي هذا ويسافر مع زوجته الأخرى ثلاث مرات في العام ويبقى أشهراً بدوني وبدون أن يكاتبني أو يسعدني بكلمات عذبة تجعلني أنتظره كما يفعل الذين أرّقهم العشق. آه، لو علم هذا الرجل بوفائي لك رغم كل هذا الذي أعانيه بسببك؟ هل سيقول كلمات أخرى، وماذا ستكون؟.

ساءلت نفسي ألف مرة: ما الذي يدفعني لأهيم به، ولم أجد جوابا . ربما لأني وجدت فيه كل ما ضيعته، وكل ما أحببته من عالمي الذي خلفته ورائي. عنده ومعه عثرت على الوطن والأهل والأستقرار والدفء، الشمس والشوارع الذي أحببت. وجدت عنده، اوهكذا ظننت، بساطة الفقراء الذين كنت التقيهم في طفولتي، وجدت فيه شيئا من تمردهم، والنخيل بكل عطائه وبكل ما يكتنفه من أسرار، وجدت في عينيه مشاهد الأنهار الكسولة، الصحراء الغامضة كالمجهول، طيور البرية بكل ألوانها، ألوان الحياة هناك ... هناك الذي أصبح هنا محض ذكرى، ليس إلا، ذكرى هي الألم بعينه.

ربما كل هذه الحيوات والعوالم يختزلها المحب بوجه وروح محبوبه، يحاول دون علمه صنع تمثال يخلط في صلصاله حب كل ما فقده، يلملم ويصنع من الوهم كل هذه المحببات أليه، على بعدها وتناثرها، ينفخ فيه من روحه، يشبهّهُ بأعز ماعنده، ويوما بعد آخر يتمكن منه، إذ لا خلاص مما كان. عندها يقول:

سبقَ السيفُ العذل .

وحينما يسأله أحد: هل صاحبك يستحق كل هذا الجنون؟ وهل هو أهلٌ للحب؟ يكون الجواب

- لا أسمع ولا أرى سوى تمثالي الجميل.

وحتى لو صرخ حبيبك بوجهك وكشف عن حقائق لا تعرفها، تدل على خديعتك؟ ستقنع نفسك قائلا:

- إنه عصبي المزاج لا يدري ما يقول.

يقولون لك إنه ليس صادقا معك كما تعتقد، ويعطونك الأدلة الدامغة على ذلك. فترد بقولك:

- دعهم في غيهم يعمهون حسداً وغيرة، ورغبة في التخريب.

ولو كشفتَ زيفه، بعينيك وبعقلك، وبحواسك الأخرى مجتمعة، تقول:

يجب أن لا أصارحه بما عرفت كي لا يجرح، وما أدراني ظروفه ونواياه حين ارتكب ما أرتكبه..

فجأة تخرج سومر مفكرتها من حقيبة يدها، تفتحها وتقرأ ماكتبته له بعد أول مكالمة بينهما حيث اتصل بها أول مرة حينما كان في سفرة لوطنه صيفاً، وقال لها لا أدري لماذا تذكرتك كأكثر البشر بعد مغادرتي أوروبا، لم يكن قبلها قد اتصل بها تلفونيا إنما كانت تلتقي معه بالعمل أو صدفة في أي شارع، تريد سومر اعطائي برهانا على انها لم ترغب بداية أن تقيم علاقة معه لأنه رجل متزوج على رغم إعجابها به. أرادته حلما لذيذاً يحفزها في الاستمرار بعشق الموسيقى، وتقول أنها أرادته حباً افلاطونياً ولو على بعد لا غير. تقرأ لي بوجع رسالة وجهتها الى مجهول معلوم وتقرأ:

كيف اتقدَ وقيدي بجنونٍ علوّي فصار الأثيرُ وطني؟

هل انتظرتك كل تلك السنوات لأشرب نخباً بحاسة واحدة فقط ؟

أعرفُ ان لابد لكل الحواس أن تستمتع بالخمرة، وها أنا اتنازل عن أخطر ثلاث حواس معك، واستمتع.

قرعت كأسي على صوتك وأنت تبعد عني قارات وبحار.

لست مجنونة ياصديقي، ولست عاشقة لحلم، إنما باحثة عن جمال حملته قضية وسط أكوام البشاعة التي تغلف حياتنا، باحثة عن ورقة أسقط عليها فسحات غربتي وأنغامي، باحثة عمن يبهج قلبي فأهيم، بذات اللحظة التي أهرب فيها ممن يلهث وراء سرابي.

لماذا نحن هكذا نبحث عن المستحيل ونزهد بما لدينا؟

البحث عن العناء واللامعقول ياصديقي قد يكون سمة من سمات المبدعين، وقد يكون هو الابداع ذاته.. لست فيلسوفة في زمن غابت به الفلسفة فضاع الناس.

كنت حينما اقرأ عن مراسلات جبران خليل جبران ومي زيادة، استغرب كيف يتبادلون الرسائل طوال عشرات السنين ولم يلتقوا، كيف يكون حباً بيته الفضاء، بكل سعته اللامحدودة؟ حتى عرفت ان الورد لا ينبت دوما في مكان تمتد له أيدينا .

بيضاء عاطفتي أيها الوسيم، فلا تخش التعدي على مملكتك السمراء.

حينما شطح الخيال بي، قلت لك ستأتي لي حتماً، لم يكن ذلك هدفي، إنما هو المعتاد بين الناس، ولا مطمع للكلمات بغير الكلمات.

هدفي أن يهطل النهار بصوتك ولو على بعد، لأبقى تلك الفراشة الجانحة الى الزهد، حتى برحيق العسل الذي تقتات عليه.

هل تصدق انني أشعر بالقرب منك حينما تطأ قدماي الأرض، أقول هو قريب وعلى ذات الأرض، لكنه هناك.. أفرح بالنظر لسماء هي ذاتها التي ستراها أنت عندما تطل من نافذة شباكك صباحا. فكم محظوظة انا بوجودك في هذا العالم.

كنت يائسة بوجود من يزلزلني في عالم سقطت كل تماثيله من عينيّ، انا الباحثة عن جمال يوقظ موسيقاي من نومها الذي طال، فطفقتُ أداري جمالي، بانتظار دورة أخرى للأرض.

عاشقة، وحيدة، تسكنني الغربة، فتهجم صورتك، مجرد صورتك، فأنطلق راقصة في غرفتي رقصة الوحدة المهيبة بجلال الفرح الغائب.

انت لا تعرفني عن قرب، فكيف أزيح كل مياه البحار التي تقف في ما بيننا، وكيف أطوي المسافات لتبصر لمحة مني، لمحة وليتوقف الكون، لا يهم طالما التقت عينانا.

سهرتُ مع خيالك، ومعهُ تحاورت، قد أكون امرأة تستغرقها الموسيقى، مأخوذة بعذوبة الالحان، ربما لم أمنحك اهتماما بقدر الفن، فكم أتمنى أن أمسح تلك المكالمة اليتيمة التي تحاورنا بها من قاموسي لأعيد الدقائق مرة أخرى فاهتم بجلالك اكثر من الفن والأنغام.

هل يحق لي أن أحزن، بعد تلك المكالمة وانقطاعك عني؟ هل يحق لي أن أقلق حين لا أجد كلمة واحدة في بريدي تسكت خوفي كي أعرف من أنا في نظرك، فالصمت يقتل اعتدادي بنفسي ويرهق روحي.

ألا سقيا لمرابع ضمتك بالرياحين والأعناب، فغدوت كبساتين جنة لم يعرفها دين ولا بشر من قبل، جنة أشجارها أنت، وظلالها روحك، وأنوارها بريق عينيك المتعبتين. متعب وجهك ياصديقي، لكن هذا العناء في ملامحك يسحرني فأتوهج.

قد تكون فهمتني خطأ، واعتقدت انني أريد تأميم حريتك المقيدة.

إطمئن ياصديقي، فلست ممن تبحث عن أسير، بل أنا من أبحث عمن يأسر روحي السابحة بفضاءات لا تُحد.

سامحني، بريئة أنا أكثر مما تعتقد، وواضحة كالأطفال، لكنها صدفة تعثرتْ بها قدماي، لأتوقف عند حدودك الممنوعة، واذا بك صليبٌ يُعبد.

هكذا نحن البشر نقدس صلباننا ونضعها إيقونة على الصدور. فلا تتعجب من إمرأة تبيع ليلها للأوهام وتفضل الوحدة على كل شيء.

لا تعتقد انني أريد تملكك، أو أريد قطف ورقة حمراء من وردة قلبك، أبدا، فأنا مؤمنة أنك لست ملك نفسك ياعزيزي، ولا ملك أحد، ولا يحق لكائن أن يطالب بك، أنت ملك خيال البشر جميعاً، ملك أحلام النساء، ملك النجوم والقمر والأنهار. ملك الشعر والفن وكل أحزان الوحيدين والمغتربين، ملك لحظاتهم السعيدة. أنت إرث بشري لا يحق لأحد أن يعبث به أو يقترب منه.

هكذا عشقتك وبطريقتي الخاصة جدا، وأريدها ان تبقى بيضاء، لا تخدش الحاني، بل تزيد بحطب الهامي ليشتعل وقيدي فأكون فنانة من جديد..

تعتدل سومر في جلستها قائلة:

كنت أحسب نفسي موضوعية جدا في الحكم على الآخرين.

الآن أرى كم أنا منحازة له، كم أنا لا منطقية حين أبرر له مالا أبرره لسواه. عجيب هذا الحب الذي اجتاحني !

كنت حينما أتعرف على الناس، أحكّم المبادئ في علاقاتي معهم، وحينما أكتشف نقصا ما أو عيبا في أخلاقهم اقطع العلاقة بعد أن تتغير مشاعري إزاءهم بشكل تلقائي بل منطقي لما أراه فيهم. أما هذا الرجل، فلماذا لا أرى عيوبه؟ هل إنها المرة الأولى لي في الحب، والحب أعمى؟ ترى أكانت كل علاقة سابقة في حياتي شيئا آخر غير الحب وما كنت أدري؟

لكنني كنت أتألم، أعاني وأضحي فماذا يسمى هذا؟ وهل الحب أن يقبل المحب حبيبه بكل عيوبه ويغفرها له كما الإدمان على شيء لا يحبه الإنسان لذاته، بل لأنه لا يعيش بدونه ولا يرتاح؟ فهل أن الحب بهذه الطريقة حب للذات أكثر منه حباً للآخر؟

لست أدري.

وهل أن ابن حزم محق حين يقول:

"إن محبة العشق الصحيح لا فناء لها إلا بالموت" .؟

وماذا عن الموسيقى العربية التي هي العشق الأول في حياتي؟، اتذكر حين انسابت اناملي على الآلة لم أعرف معنى الحب بين رجل وامرأة.

كنت اذهب مع والدي حيث يعزف أحد أصدقائه على آلة العود، يترك صديقه هذا أناملي تعبث بالأوتار ..

أجدتُ العزف قبل الأوان، رافقت والدي وصديقه إلى المقاهي مع العود الكبير الذي كانت أصابعي لا تستطيع الاستحواذ على أوتاره، وكان والدي وأصدقاؤه قد اطلقوا علي اسم قيثارة، تشجيعا لي وإعجابا بمهارتي المبكرة في العزف.

ماكانوا يعلمون أن الموسيقى التي حرموني منها كبيرة، كانوا قد غرسوها هم في روحي حينما كنت صغيرة ..

كانت ادماناً لا أستطيع الخلاص منه كحبك.

الوتر الرنان

في أرجاء بيتنا القديم كان أبي يدور ومعه تدور أصداء صوته العذب، منشداً كل قصيدة كان يكتبها وتعتمل في صدره. كان يعمّ بيتنا إيقاع حياة، وكانت الموسيقى تذوب في كلمات أبي فيضبطها بفاعلاتن وفاعلن ... كلمات وأحرف لا أفقهها، وطالما سألته عنها فيقول: ليس الآن، حتى كان يوم حدثني فيه عن بحور الشعر وإيقاعه، وبدأ يضرب على جلد كتاب سميك كان بيده ليعلمني أمورا في أوزان الشعر لن أنساها ما حييت. ومع حديثه ذاك عن الشعر، ظل يحدثني بفرح وعشق عن الموسيقى، حتى شعرت أنه يدفع بي صوبها، دفع الخائف على عزيز له من قدَر الشعر.

لِمَ أتكلّم عن قَدَر الشعر؟

ربما سمعت أبي ذات مرة يتمتم بهذا، وبالتأكيد سمعته من أمٍ ما كانت لتجد متسعا من الوقت لشاعر مرهف يستحق الكثير..رغم أنها كانت تردد معه لازمة كلّ قصيدة قيد الكتابة، وتتمايل لموسيقاها ..

كانت تقول الشعراء كالشحاذين، فقراء ولا يحبون بعضهم، وتردد بيت شعر للشافعي:

ولولا الشعر بالعلماء يزري××× لكنت اليوم اشعرُ من لبيدِ

أبى يريد المزيد والمزيد، ولعله حين شجعني أراد الوصول إلى فن أكثر عذوبة، فلطالما حدثني عن الموسيقى القديمة وعلاج القدماء بها وتطببهم بأنغامها، وكم حدثني عن تعلّق سكان بلاد ما بين النهرين بها .

كان أبي يقترب مني بالحديث العذب ويغوص في التأريخ، بينما تخاطبه أمي متوجسة:

- أترك الصغيرة ولا تفسد دماغها.

ولم يكن دماغي يفسد، بل كنت أسير على طريق النضج المبكر، كنت أشعر بزهو وأنا أردد على مسامع صديقاتي مقولات أب شاعر مثقف عرف كونفوشيوس وحفظ قوله:

"لو أردت أن تعرف مقدار رقي أمة من الأمم فاستمع إلى موسيقاها"

كنت أحدث معلماتي عن أشياء كانت تبدو أكبر من عمري، أو كأني أفتعل قولها، ولكن كل شيء واقعي بحديث أبي عن الموسيقى وعن يعقوب بن إسحق الكندي.

- ليت الناس تعرف من أدخل الموسيقى إلى الثقافة العربية.

قالها أبي بألم جعلني أتعلق بالموسيقى أكثر وأكثر، خصوصا لأنه ذكر أن الكندي المغيب في التاريخ قال إن تعلم الموسيقى كتعلم الطب..

وأذكر أنه حدثني كأنه يبوح بسرّ:

ان الموسيقى، ياابنتي، تعلو فوق حكمة الحكيم وفلسفة الفيلسوف.

الموسيقى مبعثها دهشة هي ذاتها دهشة الفن والأدب والشعر..

كم حاولت أن أعشق الموسيقى الغربية لكنني لم أفلح.. لم أكن اندمج معها كما يندمج أهل

الغرب.

دعيت يوماً إلى حفلة موسيقية عزفت فيها فرقة موسيقية آتية من روسيا إحدى سيمفونيات الروسي شوستاكوفيتش، بعضها رباعية وترية كان قد ألفها بين عامي 1938 و1974.

كنت أعجب كيف يستمر الفنان كل هذه السنين بتأليف معزوفة واحدة، أو يكتب الأديب كتابا لاينجزه إلا بعد عشرين عاماً، حتى تذكرت أنني، أنا نفسي، بدأت بلحن لم أكمله منذ أربعة عشر عاماً.

هل يكون هذا اللحن غير المكتمل هو عمري الذي لا يعرف اكتمالاً للأشياء؟

يومها عزفت الفرقة رباعيات وترية أخرى. واحدة لبيتهوفن وأخرى لجوزيف هايدن. لقد أدخلتني هذه الرباعيات بدوامات متقلبة بين الفرح والحزن وكأنني أمام مشهد حرب خاسرة، وأسرى محنيي الرؤوس، يسيرون بذل الاندحار والخيبة، مثقلين بأوزار الحرب، وفجأة أجدني أمام مسرح يضيء بأرشق وأجمل راقصة رأيتها بحياتي، تتلوى بحيوية تخلب الألباب. أحيانا تنطلق أمامي وأنا أستمع للرباعية الوترية آلاف الأسراب من الفراشات البيض، تطير بمرح وبهجة، أكاد ألمسها، و قبل أن أصل، تغطي غيمة ضخمة بستان الورود بالسواد، ويهجم على عالمي جيش من العسكر يحطم كل مايراه أمامه بعنف، ثم تتحول الموسيقى إلى جبار يجرجرني داخلاً بي زنزانة لا تتسع لنصف جسدي فأختنق، وأتنفس الصعداء بلا وعي، مدركةً أن مانراه أثناء سماع الموسيقى ماهو إلا حياة الفنان، معاناته، وأفراحه، نقرأها بموسيقاه، نرافقه ونلوّن الأماكن لنطبعها بطوابعنا الحياتية، نشعر به على قدر مايتسع خيالنا لفسحات، هضاب ضبابية، أوبساتين نخيل، أوساحات حروب أو فضاءات لامحدودة؟

لكن هناك حقيقة اجهل تفسيرها، وهي أني صرت بالفترة الأخيرة كلما أستمع للموسيقى الكلاسيكية تطفر إلى ذهني أفلام كارتون" توم وجيري" وتركض في رأسي صور القط والفأر وملاحقاتهما الفكاهية. أحاول كثيراً أن أطرد صورة هذين الحيوانين من رأسي لأندمج كما يندمج أهل الغرب، دون جدوى، فهل الفنان يفضح بموسيقاه صراعه مع عالمٍ لايفهمه فتصل الهوة الفارقة بين الموسيقى وفهمي لها حد الفكاهة بعد يأس، فأستحضر أفلام كارتون؟

هل أستعمل مخرج أفلام كارتون هذه الموسيقى لترسخ في أذهان الأطفال وتكوّن ذائقتهم الروحية، وهل بهذا يكون قد انتصر على الموسيقى الغربية وتفوق عليها بصورة القط والفأر التي تحضر لتمحو التأمل وتوقف ذهاب الخيال صوب عوالم الموسيقى التي لا حدود لها؟

هل انني لا أستطيع الاندماج مع الموسيقى الغربية لنقص في تكويني الحضاري؟

هل الصراع بين الحضارة والتخلف يتجلى في الموسيقى كمظهر من مظاهر تلك الحضارة؟

قد يرى البعض ما أقوله هذياناً، فمن يفهمني يا ترى؟

هل فهم الناس أهل الفن من قبلي؟ إن كنت غير مفهومة في العشق فهل سيفهمونني بالموسيقى؟ آه، تتنهد سومر وتضيف:

يقول بعض الموسيقيين العرب بأن النغمات العربية فيها فوضى لا توجد بالموسيقى الغربية، سمعت هذا من موسيقيين كبار. قالوا إن السلّم الموسيقي العربي مبعثر، لكن آذاننا تعودت عليه، فهل لأن حياتنا نحن العرب فوضى انعكست حتى على موسيقانا التي تتردى يوما بعد

آخر على يد مطربات لا يفقهن من الموسيقى سوى هز البطون والصدور والغنج؟.

لكن بعض الموسيقيين العرب لهم رأي آخر وايجابي بالموسيقى العربية . فما هو الصح ياترى؟

ولماذا حينما اسمع أحيانا موسيقى غربية أراني أردد في سري نغمات أعزفها على آلتي العربية، أسمعها في داخلي مع ضجيج القاعة بموسيقى أخرى؟

حتى اللغة الأجنبية للبلد الذي أعيش فيه، تعلمتها على مضض ولم أتعلمها بل لم أستطع أن أحبها . كنت أراها ضرة وعدوة للغتي التي أعشقها . فلماذا أتطرف أنا بكل عشق لي؟

ثم كيف أن فوضى الموسيقى تستطيع إبكاءنا أو إمتاعنا كل هذه القرون؟

هل نحن أناس اتعبتهم ظروفهم الاجتماعية والسياسية فاصبح فن إبكائهم أسهل من أي شيء؟

وهل اللغة مثل الأم لا يمكن استبدالها دون استبدال أشياء أخرى معها، كالعواطف أو القلب مثلاً ؟

وتنتقل سومر كعادتها في البوح الى هاجسها الأكبر، حبيبها، فمرة تخاطبني ومرة تخاطب نفسها وأخرى تخاطبه:

لقد قلت لي يوما إن زوجتك، مع كل كلمة علمتك إياها بلغتها الأوروبية، كانت تمحو شيئا من شرقيتك وعالمك القديم ..

فهل استبدلت شرقيتك حقاً؟ وهل غادرت التخلف الذي صبغ حياتنا؟ هل تخليت عن موقفك الذكوري من المرأة؟

أشك في كل هذا عندما أرى بعض تصرفاتك وأعجب من سنوات وجودك وعيشك بين الأوروبيين، كل تلك السنوات التي لم تتعلم منها سوى الشكليات..

هل وقعت وأنت في زحمة ارتداء حياة أخرى بخطأ خطير أفقدك قيمك كإنسان، ففقدت غيرتك عليّ كرجل، فكل رجلٍ غربياً كان أم شرقياً، لديه غيرة على حبيبته ولو بحدود، فلماذا لم يعد يهمك أن تتركني وحدي مع رجل سواك؟

يومها أحسست بطعنة في روحي حين كنت عندي، وكان زميل لنا قد رافقك بسبب عطل بجهاز الكومبيوتر طلبت منه إصلاحه ثم اتصلت بك زوجتك. هرعت لتتركنا بعد الساعة العاشرة مساءً، وأنت تعرف أنني ما كنت أحب الجلوس معه ولم أكن أحترمه كثيراً، بل لم أكن سأدخله بيتي ولو في وضح النهار بدونك، وحين تقرب مني وأراد خيانتك، لقنته درساً بالوفاء سيبقى يذكره طوال حياته.

أهذا أنت نفسه الذي انفعل قبل أعوام حينما أراد أحد المعجبين التعرف علي أثناء حفلة عزفتُ بها لحن حنين إلى وطني؟

يومها سحبتني من يدي إلى الغرفة الأخرى تاركاً الرجل ماداً يده ليصافحني .

ألانه كان وسيماً وشاباً إلى حد جعلك تموت غيرة؟ أم أنك كنت تحبني وحينما ماتت مشاعرك ماتت معها أشياء أخرى؟

تكرر سومر الكلمات بطريقة النواح، تلوبُ محركة رأسها الى اليمين واليسار وتخاطبه وهو الغائب:

كيف تتدفأ يدي في هذه الغربة، وجليد جبالك شامخ لا يتزعزع؟

هل أستطيع - على ضعفي - أن أنال من الوقت؟

ها أنا يضيع ضوئي بين الجدران. استعطف هاتفي ليرن بصوتك.

كيف لا تخاف من قسوة الأيام علي وأنت وحيدي؟

ألا تخاف أن أنفجر وأكسر قفصي الذي تهمله بجهل؟ قلت لك قبل أن تسافر: قد لا تجدني،

ربما سأموت حباً، فقد يوصلني الحرمان إلى الشجاعة التي أحتاجها لأنهي حياتي المبعثرة بين وهم حبك ودقات الساعة التي تعلن كل دقيقة أنني مهجورة ولابد لي من البحث عما يقتل صورتك بداخلي، وليكن رجلا سواك يمتطي صهوةَ سحري ويدثرني في صقيع الحياة بعد أن غادرني قليل الضحك والابتسام.

ألا يكون لي وأنا الوحيدة قول هنري برجسون:

إن الإنسان لا يستطيع أن يضحك إلا في وجود غيره من الناس بل إنه لا يستسيغ الضحك حين يستبد به الشعور بالوحدة، إذ يبدو أن الضحك يحتاج دائما إلى أن يكون له صدى ليجد تجاوبا مع الآخرين.

الآن أحاول أن أسجل موسيقاي وترا وترا، لابد لي أن أبوح بما يعذبني.

قبل أيام كنت في المقهى الذي اعتدت الجلوس به لقربه من مكان عملي، كانت عشرات الوجوه تلاحقني، مئات من العيون تنظر لي برغبة

التعـرف الي، وفجـأة تقـدم مـني صـحفي كـان قـد تعـرف علـي في ذات المقهى، قدم لي ماكان قد كتبه عني في إحدى المجلات العربية بعنوان " فاتنة في الغربة"

كـان قـد رآنـي قبـل أيـام قليلـة وكنـت في المقهـى نفسـه بالجلسـة نفسها، فنشر ماكتبه عني:

"رأيتها تجلس هناك. كانـت رائعـة، امـرأة ممشـوقة، هيفـاء ترتـدي فسـتاناً بنفسـجيا طـويلاً بـلا أكمـام، تسـدل شـعرها الطويـل الكسـتنائي علـى كتفين عـبلاوين برشـاقة، تشـرق بالجاذبيـة، لا تلتفـت لأحـد سـوى الكتابـة في أوراقهـا، يحـاول الرجـال اقتنـاص نظـرة منـها، دون جـدوى ..يتوقـف المـارة أمامهـا باهتمـام. غريبـة ووحيـدة تجلـس كزهـرة بريـة... الخ" .

آه ليته يعرف ما أعانيه بحبك ولهاثي وراءك؟ هل سيكتب ما كتبـه عني ترى لو علم بتعلقي بك؟

قلت له بلا تردد :

أخطأت الهدف، فأنا قد منحت قلبي وانتهى الأمـر، ورددت أغنيـة عربية قديمة لحنها سيد درويش (أنا هويت وانتهيت)..

أخبرته بثقة:

لـيس لي سـوى قلـب واحـد . دعـك مـني واكتـب مـا شـئت عـني ولا داعي لإخباري بما تكتب .. أشكر إعجابك بي ..

ثم نهضتُ مسرعة باحثة عنك في شوارع المدينة التي ترتادها . كان وقت سيرك اليومي بها ساعة الظهيرة.

يحدثني المعجب بي فأسخر منه. أنتظرك وأخاطبك في روحي:

تعال حبيبي، خذني من عيون وكلمات هؤلاء، أريدك أنت فقط، لا أرى سواك، تعال لي أنا المقهورة فيك حد العظم. أحدثك وكأنني أعيش معك، أناديك طوال الوقت.

يبحث الناس عني. أبحث عنك. لا يجدونني . لا أجدك..

أدركت فداحة الغربة عن الوطن الآن، وأدركت كم أنا غريبة دفعتني بعدم مبالاتك للتعصب الذي أكره. قلت لي أنتم العرب، وبعينيك نظرة اشمئزاز.

لماذا كل هذا الغيظ وهذه القسوة؟ لماذا تدفعني بغباء لهوة سحيقة من التعصب؟

يكتبني الناس بعيونهم وأكتبك بقلبي وعقلي. كيف أطمئن لرجل انسلخ عن جلدته؟

تعود سومر لتحدثني عنه بدلا من ان تخاطبه هذه المرة:

أي رجل هذا الذي شكل عنده الوطن أوقاتا ممتعة وأشجار لوز وتين فقط دونما حنين.

أيعقل أن التشبث بالسعادة والحصول عليها يطغى على كل هؤلاء، الوطن، والأهل؟

وما هي السعادة؟

لأرى السعادة لغويا، وكم حرف بينها وبين كلمة البلادة. انهما حرفان، إذن الفرق ليس بكبير بين السعيد والبليد . كيف أستطيع بعد الآن أن أحول الحب إلى صداقة وأنا لا أستطيع أن أصادق البليد؟ وهل

أستطيع؟ لا أدري، لكن من يكذب على نفسه ويقنعها بالسعادة مع عدم وجود أدلتها في حياته، يكون أكبر بليد، بل ان سيد الأغبياء مَن لا يعيش حياته بصدق.

تتنهد سومر وتخاطب والدها الراحل:

أين أنت يا أبي لترى أن الناس لا يشبهونك، إذ هم يضحون بالحب في سبيل مسميات كثيرة وهم لا يعلمون أن السعادة هي الحب كما كنت تقول.

أين أنت يا أبى لترى أن الحب ألمٌ لا يطاق، فهل أعاهد روحك أن سيكون الفراق بيني وبينه؟ وهل أستطيع وأنا معه أشعر بلذة الحب؟ الحب الذي أسميته لذة الألم، فبالحب وحده يستمتع الحبيب بالألم مع من يحب.

هل أعاهد روحك أن أبقى وفية لقيمك النبيلة؟ ولكن حتى متى يا أبي أبحث عن العشق الحقيقي ولذة الألم والعمر يمضي؟ لماذا اعتقدت أن الحب موجود في كل زمان وبداخل كل إنسان؟ ها أنا ذي، حين أحبني قال:

لن أتخلى عنك ما حييت. علاقتي بك قارّة فلا تقلقي واهدئي حبيبتي.

سوف أعوضك عن كل حرمان. سوف أسافر معك لأماكن عدة. سوف اقترن بك علنا لو كان آخر يوم بحياتي، سوف وسوف وسوف...

مثل الأنظمة العربية حين تعد شعوبها، لكن الوعود تبقى حبراً على ورق دون تحقيق، بينما الفقراء يزدادون فقراً، والمهاجرون

واللاجئون يتوزعون على المنافي والأصقاع، والأميون يكثرون عاماً بعد آخر في حين تزدهر قصور الرؤساء والملوك وتكبر.

الآن هو لا يعترف بما وعد ويحاول أن لا يسمع، لماذا يا أبي قلت لنا إن الحب أجمل شيء؟

لماذا قلت إنه أعظم فكرة عرفتها البشرية؟

لماذا غرست في رأسي بان الحب هو المتعة الاولى التي لا تعادلها متعة؟

تربيتك غالية يا أبي أدفع ثمنها دائما من راحتي ونومي وبكل ما أستطيع وأملك.

كم خُدعت لصفاء نيتي، وكم ضعت في الحب وما ارعويت، وكأنني مسؤولة عن إصلاح العالم، فحينما أُخدع أسامح لأغرس الحب في النفوس وكم أخشى كره أحد حتى لو كان سيئاً وحقيراً.

لماذا أصبحت يا أبي جبانة جداً؟ أطلب الحب والسلام حتى من المذنبين معي؟

وماذا عن زوجي السري هذا الذي لم ير مني سوى الحب والتسامح؟ كيف سأتعامل معه وماذا أقول؟ وماذا عن زوجته تلك التي لا تدري كل مايفعل والتي يستطيع اقناعها بكل أكاذيبه الشرقية؟

أحياناً كثيرة أضيّع حقي لأنني لا أستطيع ترتيب أفكاري وإقناع الآخرين.

الآخرون دائما يقولون: كذب مصفط أحسن من صدق مخربط ..

أنت وحدك يا أبى كنت تقول أن من قال ذلك هم الرعاع، وهذا مبدأ خاطئ لا أتمنى أن تستشهدوا به في أحاديثكم، لماذا أنت نبيل الى هذا الحد يا أبي؟ لقد طغى مبدأ الرعاع يا أبي وصار الصدق مهمشا والكذب المحبوك هو القائد وهو السلطة والقوة والغنى..

تلتفت سومر لي لتحدثني هذه المرة متذكرة أنها استغرقت في البوح لأبيها كثيراً، وتعود للحديث عن حبيبها وكأنه مرضها العضال:

كنت أحسبه لا يفرق بين أصله وأصلي، فنحن جميعا كأسنان المشط . هنا في أوروبا جميعنا غرباء، دخلاء، معطوف علينا كمهزومين. جميعنا من العالم المدعو بالعالم الثالث، العالم الذي نتباهى بحضارته القديمة وهو محض ماض كل ما تبقى لنا . العالم الذي لا يكاد يلحق بالتطور، والمليء بالأديان، وبالسحر، والتقاليد، والخرافات.

جميعنا من عالم الظلم والصراعات التي لفظتنا، فلا فضل لأحد منا على آخر ونحن نسكن في أوطان الآخرين. الآخرون الشقر الذين لا يشبهوننا، والذين سكنّا مدنهم لنبقى فيها ربما حتى مالا نهاية. الشقر الذين يفتحون لنا المدارس والمعاهد لنندمج معهم ونسير في هذه الحياة يداً بيد .. الآخرون الذين منهم من ينتظر رحيلنا بفارغ الصبر، هنا حيث الغربة تجلدنا، واختلاف الثقافة التي نحاول التكيف معها .

هل أنت تكره العرب يا صديقي؟

لماذا قال لي انتم العرب؟ لماذا اختصر بي أنا وحدي صراعات البشرية جميعها مع العرب؟

ما الذي أذنبته أنا؟ أنا التي تحب بقدر ما تستطيع، المنفية بسبب فني وأوتاري التي ما بعتها في زمن بيع فيه كل شيء، العاشقة للحق،

المتمردة على كل الأعراف اللا إنسانية، الزاهدة بالمال، المؤمنة بأن الحب أثمن ما في الوجود. أمثلي تستحق هذا؟

أمثل حبي يواجه بالنكران؟.. ثم ترتسم على وجه سومر نظرة الاشفاق لتقول:

ولكن ما ذنبه هو، الذي عاش ممنوعا من القراءة بلغة الأم، هو من قومية لا تستعمل لغتها في المدارس. قومية تجبر على استعمال اللغة العربية ولا خيار لهم سواها؟ باسم الدين أو القومية أو باسم القوة أو باسم أي سبب. ،آه حبيبي كم أنا أحبك، وكم أظلمك أحيانا.

توقفت سومر للحظات لتقبل طفلتها التي استسلمت للنوم على الأريكة بجانبنا وكأنها تريد تقبيله من خلالها، وأكملت الحديث معي قائلة:

ربما من هنا جاءت عقدته أمام الآخر المتحضر حيث يراه دائما أحسن منه وإن كان هذا الآخر لا يستحق أدنى الإهتمام. ثم تضيف:

ها أنا أيضاً أبرر له أخطاءه، فكثيرا ما أشعر أنني مذنبة في تقدير وضعه، أبحث عن زاوية إنسانية أعذّب بها ضميري، أعود إليه وأعتبره هو الضحية في هذا العالم المتصارع الأطراف، وكما قيل: كلما يفعل المليح مليحُ.

ولكن، الى متى أعامل الناس كأطفال أومجانين وأبرر لهم حتى أفكارهم المغلوطة؟

وهل أنا حقا كذلك مع الجميع أم أنني هكذا فقط مع من أحب ولأبقى على هذه العلاقة التي أريد؟ لست أدري.

هاهو عندما أتركه لعدة أيام وأختار درباً أكثر حزناً واستقراراً وأعقّل نفسي وأقول:

لأهرب من رجل ليس لي، رجل متزوج وله أولاد، أراه يتقرب مني حين يرى جديتي. يتقرب بأسلوب غاية في الغرابة، متوسلاً معتذراً، يكاد يبكي قائلاً:

لا طعم لحياتي بدونك فالأخرى لا تفهمني. هي غريبة عني، وصدق من قال يجب أن لا ينام رأسان مختلفان بالثقافة على مخدة واحدة. حياتي معها تكاد تخنقني وبدونك لا حياة لي

أيتها الفراشة الملونة الجميلة التي تحوم حولي بكل مرح وموسيقى، هل أنا مجنون لأفقدك، ما الذي يجري لي؟

يتسارع بالأسئلة والاعتذار ولا يدع لي مجالاً لقول كلمة واحدة. يغرقني بكلام الحب ويضيع عقلي، فأغرق بطعمه العذب، بعطاء جسده الممتع ورائحته الأخاذة.

وتري المرتعب

الخروج من الوطن تشبه حالة الخروج من لحظة الحب.

كان الوطن خلفي بكل ما فيه من حب وخوف، كان قاصراً عن جذبي وربطي اليه، فثمة خطر محدق بي يدفعني لقرار السفر، أقف مرة أخرى أمام الحدود.

أعود الان بالذاكرة لأقسى حدود مرت بي ولا أدري هل هي فعلا أقسى من حدود الحب المحرم القاتل الذي أكتب عنه بروايتي؟

هل الوطن الآخر الذي سأعبر إليه يشبه العشيق؟

أخترتُ أن أسافر هذه المرة عن طريق تركيا، علني أستطيع من خلالها المرور إلى العالم الآخر، العالم الحر الذي يفهم معنى أن يكون للإنسان رأي في الحياة والاختيار، وكما المرة الأولى قررت أن أصوم عن الطعام حتى عبور الحدود.

انطلقت الحافلة بنا البارحة . حين أبصر وجهي في المرآة أراه وقد أصفرّ بشكل واضح، أتذكر أن معي طفلاً، يسكن أحشائي وأنا المسؤولة الوحيدة عنه لأنني أقرب له من كل البشر ولأنني أستطيع وحدي العناية به دون سواي، أتألم لهذا، لكن الوضع السياسي يغتصبني ويجبرني على القسوة عليه وعلى نفسي.

قيل لنا ستصلون الحدود في ساعات الفجر الأولى، قد يكون ضابط الحدود مازال في نعاسه، لذا سيختم لكم ختم المرور دون تدقيق، لقد حصل هذا مع آخرين.

كانت الساعة تشير الى السادسة صباحاً وأنا أخشى أن يتكرر الأمر ويكون اسمي على قائمة الممنوعين من السفر أيضا، وها أنا أسمعه على لسان شخص آخر، وبصوت أوضح في هذه المرة لأنني أتوقعه:

موناليزا سامي الخطيب

أقترب واثقة من مراد المنادي.

أنا موناليزا.

أنت ممنوعة من السفر.

أحاول تمثيل دور المتفاجيء من سماع الخبر وأتظاهر بعدم معرفتي بالسبب. مرة أخرى يجب عليّ لعب دور المرأة الساذجة، قلت باستغراب:

لماذا؟

- لا أدري، لكن اسمك ممنوع من السفر.

- أنا لم أسافر إلى الخارج، هذه أول مرة ،فلمَ هذا المنع؟

- هذا ليس من شأني، تستطيعين بعد العودة إلى بغداد الاستفهام عن هذا الأمر من مديرية الهجرة والجوازات ليفتحوا ملفك ويعلموك بالسبب.

حاولت أن أبدو كمن لا يعرف شيئا، والذي يجهل من أين يأتيه الظلم فيحتج بقدر ما يسمح له العالم الظالم أن يحتج فقلت:

- هناك خطأ ما، أنا لم أسافر في حياتي، وهذه هي المرة الأولى التي اسافر فيها، وبصحبة زوجي .ألا ترى أن هناك خطأ ما حضرة الضابط ؟

- ربما، ولكن القانون هو القانون. أترين؟ تقدمي لتري اسمك الثلاثي.

"موناليزا سامي الخطيب" ..

الاسم ليس شائعا ليكون منه الكثير في مدينة صغيرة، وبنفس اسم العائلة. إنه أمر محير لأنني أنا أيضا لا أرى أنكِ ممكن أن تكوني مهربة أو مجرمة أو خارجة على القانون، أنت صغيرةَ، و..أراد أن يقول جميلة لكنه تدارك لسانه، نظر لي باحترام وخجل، قائلاً:

صدقيني لو كان بإمكاني المساعدة لفعلت. أنا متعاطف معك لكن الأمر ليس بيدي.

بكيت، توسلت به أن يفعل شيئا لأسافر كوني بريئة، وأن أمر منعي من السفر خطأ ليس أكثر. وعدته عند عودتي سأذهب لأرى من الجهات المسؤولة سبب الخطأ. لكنه يصر على موقفه مؤكداً أسفه:

عفواً أختي، أرجوك أن تفهمي موقفي، أنا موظف مسؤول عن سلامة المرور في هذه النقطة من الحدود.

في هذه الاثناء، جاء صوت سائق الحافلة منزعجا من طول المكوث في الحدود قائلا:

- سيدي أنا لا أستطيع الانتظار أكثر هل أكمل رحلتي دون هذه البنت، فيجيبه ابو صفوان:

- نعم، هي ستبقى هنا وسافر أنت وركابك مع السلامة.

ذهبت لزوجي باكية. كنا قد اتفقنا على أن يكمل هو سفره في حال منعي هذه المرة، وقد فصلنا منذ البداية ملابسه عن ملابسي

بحقيبتين. دخلت معه إلى المرافق العامة، سلمته الرسالة السرية التي احتفظت بها في طيات ملابسي من فوق الجدار الخشبي الفاصل بين مرافق النساء والرجال، ودعته باكية وعدت لأبي صفوان أعذب ضميره.

كان رجلاً في غاية الاحترام، أبدى حزنا وأسفا على ما حصل معي، وقال أبقي هنا حتى تعود حافلة قادمة من الخارج إلى بغداد لتذهبي.

استغرب الرجل كثيرا من سفر زوجي بدوني. قلت له أنا من شجعه على السفر ليأتي لي بملابس كثيرة وقد حملته قائمة من الطلبات. وبما ان سفري قد تعرقل، فعلى الأقل سأفرح بما سيشتريه لي..

صدق الرجل ما قلت إذ استطعت أن أمثل الدور جيدا وأقنعه بسذاجتي.

انتظرتُ الحافلة الذاهبة إلى بغداد . كان المطر غزيراً أكثر من أي يوم آخر، أصوات الرعد تهدر كأصوات الحرب، مخيفة تفاجئنا بين الفينة والأخرى. الثلوج سدت الطرقات ولا زالت وكأنها تهطل اليوم لآخر مرة في التاريخ، ولم يعد هناك ثلج ولا مطر أو برد إلا وتساقط بوحشية ووحشة مخيفتين.

أبو صفوان يتصل كل خمس دقائق يسأل عن حافلة عائدة إلى بغداد، دون جدوى، الطريق غير سالك، الثلوج منعت حركة السير فلا سيارة عائدة إلى بغداد .

خلال هذه الساعات الطويلة التي جلستها معه تحدث معي الرجل كثيراً، سألني عن عائلتي، ذكرت له أسم أخي الذي كان مهندساً ناجحاً فقال:

لأرى هل أن أسمه موجود في قائمة المنع، فقد يكون بسببه منعت من السفر. دهشت حين أراني اسمه الثلاثي وقد منع من السفر قبل أربعة أعوام أي حينما كان طالبا في الجامعة. ماذا أفعل وماذا أقول؟

ذكرت له اسم إحدى قريباتي التي أعرف تماما أن لاعلاقة لها بالسياسة، لكنني صدمت حين علمت أنها ممنوعة هي الأخرى من السفر. قال هل لك صديقات، إعطني أسمائهن

أعطيته أسماء من معارفي في المنطقة التي أسكنها وأسماء بعض صديقاتي، وجدت أن صديقاتي جميعهن ممنوعات من السفر وصديقتي "أزهار" صدر بحقها أمر بإلقاء القبض. صعقت مما عرفت فسرحت لبرهة، لكن صوت الضابط أيقظني قائلا :

- أنت محظوظة لأنك لم يصدر بحقك إلقاء قبض.

- لكنني لم أفعل شيئا .

- صديقاتك لديهن حتما ما يدعو لمنع السفر.

وجدت ذلك اليوم أن الأكثرية من أبناء بلدي قد منع من السفر. ترى أيعلم هؤلاء الناس أنهم في سجن كبير؟ أكمل أبو صفوان حديثه معي قائلا :

- ألا يوجد رجل ما مثلاً أراد الزواج منك فرفضتيه مما دعاه أن يكيد لك وينكد عليك شهر عسلك مع زوجك؟ لأن هذا يحصل كثيراً وقد مرت علينا حالات من هذا النوع.

لقد ساعدني هو بإيجاد العذر. فقلت وأنا أفتعل الحقيقة:

- نعم، تذكرت، الآن عرفت من وشى بي، إنه ابن خالتي وقد رفضته وهددني بالانتقام، وكم حاول تخريب علاقتي بزوجي قبل

الـزواج، لكنـه لم يسـتطع، والظـاهر أنـه لم ينجح بفعـل شـيء إلا بفبركـة هذه الوشاية.

أحسست أن الرجل اقتنع بهذا، فراح يبحث كثيرا الى أن عثر على رقم الملف العائد لي، حتى يتسنى لي أن اقدمه بنفسي إلى دائرة المخابرات العامة، علهم يتأكدون من صحة التقارير المرفوعة ضدي.

قلت:

- شكراً حضرة الضابط على هذه المساعدة، سأذهب غدا بهذا الرقم لهم وسأمحو الخطأ الحاصل.

لو يعلم أنني أكاد أموت رعباً من اسم هذه الدائرة، وأنني أهرب منها كالهارب من المجذوم، ولو أصبحت بين أيديهم فعلا وعلموا بأنني أحمل أفكاراً ضدهم لذبحوني ذبح النعاج بعد أن يفعلوا بي ما يريدون.

تـذكرت سـاعتها خديجـة الـتي سـجنوها لأن أخاهـا كـان مـن المعارضة. كانت امرأة جميلة، لم تسمح لهم بالاعتداء عليها ودافعت عن نفسها بأسنانها وبكل ما تملك من قوة، وحين تمكنوا من تكتيفها أدخلوا بها عصا أزالوا بها بكارتها ثم تناوبوا عليها بعد فقدانها الوعي.

شعرتُ بالغثيان وأحسستُ أن شيئا ما بداخلي يريد أن يطفح إلى الخارج.

أطال الضابط اتصالاته وقلبي يكاد يفر من بين اضلاعي رعبا، خفت أن يجد شيئاً في الملف يدل على أفكاري المعارضة للسلطة، أرعبني أن يتعرف على انتمائي اليساري فيسلمني لهم.

كنت ساعتها عاجزة عن التفكير بأي شيء سوى الخوف، بعد أن وضع سماعة الهاتف قال:

- لا حافلات عائدة إلى بغداد بعد الساعة، الطريق غير سالك بسبب الثلوج، ثم نادى الشرطي المزروع عند باب المكتب.

- خليل.

- نعم سيدي.

- خذها إلى البيت.

كالملدوغة صرخت رافضة ما سمعته: ماذا؟ أي بيت؟ سأنتظر هنا، لن أذهب إلى أي بيت.

فيرد أبو صفوان على رفضي:

- لا يمكنك الانتظار هنا، هذه دائرة حكومية ستقفل، ممنوع بقاؤك هنا.

- أرجوك حضرة الضابط إلى أي بيت سأذهب؟

- لا تخافي ستذهبين إلى بيتي.

- كيف؟ قلت باستنكار مكررة الرفض: لا لا أرجوك دعني هنا.

- عندي عائلة وستبقين معنا حتى الغد.

بكيت متوسلة: أرجوك أنني لا أريد دخول أي بيت، سأبقى هنا حتى الصباح، سأبقى خارج الدائرة لو كان المكوث بها ممنوعاً.

- ستموتين من البرد، أتعلمين كم درجة الحرارة اليوم في هذا المكان؟ إنها عشر درجات تحت الصفر. لا تخافي، أطفالي سيفرحون بوجودك فنحن هنا نسكن في مكان شبه منعزل، كما ترين أنها حدود، لا بيوت ولا سكان إلا بيوت العاملين وهم قلة، اطمئني.

كان وجهه مريحاً وحزيناً في آن، و ما أبدى من أدبٍ أجبرني على احترامه. إنه ليس من هؤلاء القوم الذين اعتدنا معرفتهم على الحدود، أو في دوائر المسؤولين والضباط من الحزب الحاكم. كان مختلفا عنهم، يرتسم على وجهه ألم ومعاناة، حتى تخاله يداري دمعة تكاد تطفر من عينه، دمعة ربما سببها قهر لا يريد أن يبوح به، فقد يكون مضطرا للعمل في هذا المكان. لا ادري لماذا شعرت بأنه لا يحب عمله. شيء ما في نبرة صوته طمأنني، فقلت في نفسي لعله من المغضوب عليهم داخل الحزب، لأن من يعيش هنا في هذه البقعة النائية مع زوجه وأولاده، لابد أن يكون من غير المدللين. فالذي عنده واسطة كبيرة، أو يملك ثقة الحزب الحاكم، يعمل حتماً في مناطق غير هذه المنطقة النائية.

كنت اجمع افكارا تزيح الخوف والشكوك لتغرس مكانها الإطئنان، ولكن هيهات.

بين خوف وتردد واضطرار وجدتني أسير مع الشرطي خليل نحو المجهول. سرت مسافة مائة متر عن الدائرة، كانت عشرات الحكايا ومئات الوجوه تلح بأسئلتها المرعبة، تذكرني بمسيرات أخرى غير مسيرتي مع الشرطي هذا. كم شخصاً سار مع الشر طة وعاد؟ إنني أقول الشر، ربما هذا سر خوفنا فالشر جزء من كلمة الشرطة، علّه اكتشاف خائف. سألت نفسي:

أتعلمين أين تذهبين؟ ماذا سيفعلون بك؟ الاغتصاب أول حفلة من حفلات تعذيب السلطة. تراكضت إلى ذهني في تلك اللحظات كل قصص التعذيب من قلع الأظافر، إلى حرق الجسم، إلى التعليق بالمقلوب وكهربة الجسد، إلى فرم أجساد المعارضين بفرامة للبشر، الى رمي أجسادهم للوحوش إلى التذويب أخيراً بالأسيد.

تذكرت وأنا طفلة حين نرى شرطياً في الشارع نسرع داخلين بيوتنا وكأن هذا الرجل المرتدي الأخضر وحشٌ يريد افتراسنا. يا للرعب الذي يوقظ بداخلي عددا هائلا من الأسئلة، ولكني لم أجد إجابة واحدة لأي سؤال طرحه علي فكري المرتبك. أسير وكأنني غير موجودة في هذا العالم بل أن من يسير هو جسد وملابس فقط.

توقفنا أمام منزل بطابق واحد، قرع الشرطي جرسا، أتاه صوت امرأة من الداخل

بالانترفون :

من هناك؟

أنا خليل، أرسلني أبو صفوان مع هذه البنت لتبقى عندكم حتى الغد، سيأتي هو لشرح الأمر.

فُتح الباب أتوماتيكيا، قال أدخلي.

دخلت، وأذ بامرأة شابة جميلة، تبتسم بطيبة وتواضع، وبفرح، رحبت بي كثيراً، انفرجت أساريري وذهب الخوف بعض الشيء. دخلت الصالة فوجدت طفلين لطيفين يستقبلانني ويأتيان لمعانقتي، هاتفين:

أهلاً أهلاً عندنا ضيوف.

قدمت المرأة نفسها لي:

❖اسمي روعة، وهذا ابني صفوان، ستة أعوام، ورضوان في الخامسة، ثم أشارت إلى رضيعة نائمة في السرير، وهذه ابنتي مها آخر العنقود. فقد قررت أن لا أنجب أكثر من ذلك، نرحب بك جميعنا..

عرفتها بدوري بنفسي وقلت إنني كنت مسافرة مع زوجي لقضاء شهر العسل، لكن خطأ ما في الاسم منعني من ذلك. إنها فرصة جميلة أن أتعرف على هذه العائلة الطيبة.

قالت:

أنت لطيفة جداً شكراً لك على هذه المجاملة.

قلت: إنها الحقيقة، وأنت روعة كما هو اسمك.

هنا أحسست بعضا من الارتباك قد غادرني، فوجود امرأة منحني الكثير من الدفء والشعور بالحماية. عظيم أن تكون المرأة معادلاً موضوعيا للدفء في تلك الحدود المعزولة والمنقطعة ليكون وجودها هو سر الاطمئنان في زحمة الهلع، وغريب أن يمنعني من السفر ضابط تابع لنظام يطاردني سراً، ثم يجد لي مأمناً في بيته، لكن الأجمل هو وجود المرأة الذي يشبه الحضارة والاستقرار ويدل عليهما. لقد منحني وجودها الإحساس بالأمان والحرية، كما قال فولتير" المرأة رمز الحرية"، والحرية هي التي تمنحنا الشعور بالقوة. كم هو رائع أن تحفل بشعورٍ مثل هذا في ظرف الخوف والمجهول. كان البيت نظيفاً ومرتباً، والمرأة تبتسم بنقاء أدخل السكينة لقلبي.

قالت: حتماً أنت جائعة، الطعام قريباً سيجهز، ننتظر أبو صفوان لنأكل جميعاً.

لا، إنني لست جائعة، لا تهتمي.

ذهبتُ معها إلى المطبخ وعرضتُ عليها مساعدتي، لكنها أبت أن أساعدها.

قالت: إجلسي معي لنتحدث، فهذا يؤنسني كثيراً.

شعرت بأنني قريبة من هذه المرأة بل أنني أحببتها حقاً، شبهتها بإمرأة رأيتها في أحلامي. أحلامي التي أحفظ معظمها، والتي لا تفارقني في ساعات يقظتي، وبفضلها أرى ذات الوجوه التي فارقتها، كما لو انها تجالسني الآن.

كم تمنيت أن الظروف التي دعتني للكذب على هذه المرأة غير موجودة، أحسست أنها طيبة وصادقة في مشاعرها، إن لديها حبا يشع في ابتسامتها، حبا تريد منحه للاخرين. هناك بعض الناس لانستطيع إلا ان نحبهم من أول لقاء، وروعة واحدة منهم.

أحسست أنها الأخرى ارتاحت لي ووثقت بي، فقطعت على نفسي وعدا- في سري- أن أبحث عنها في قادم الأيام وأقول لها إنني كذبت عليك تحت سلطان الخوف والموت المنتظر، نعم، سأخبرها الحقيقة، عندما سيحل ذاك اليوم الذي تتغير فيه ظروفنا ويرحل الخوف.

كان خوفي، وكل ما مر بي من أحداث، أنساني الحاجة الى الطعام. كنت احاول خلال تلك الفترة أن أعطي المرأة فكرة زائفة عن نفسي، وبأنني امرأة لا تهتم سوى بالملابس والمكياج والعطور، وهكذا أخرجت من حقيبتي علبة مكياج جديدة كنت اشتريتها لنفسي ولم أستعملها بعد، وأعطيتها لها كهدية قائلة:

أرجو أن تقبلي مني هذه للذكرى، حتما اننا سنلتقي مرة اخرى، لأنني لن أسكت، وسأعمل على الغاء قرار منع السفر عني، وسأمر عليكم مرة اخرى، عندها أكون قد جلبت لك هدية تخصك.

بدورها دخلت غرفتها وأحضرت لي وردة حمراء جميلة حريرية تعلق على الصدر للزينة. صرنا صديقتين وبسرعة البرق. بعد اقل من ساعتين، جاء أبو صفوان.

أعدت المرأة كل شيء على طاولة الطعام ودعتنا للأكل. كنت خجلة وشعرت بأنني دخيلة على هذه العائلة مثلما شعرت بالذنب لأنني بالغت في مخاوفي منهم.

كان الطعام شهياً ومعداً بطريقة بارعة، لكن معدتي كانت قد سدت منذ أول لحظة غادرت بها بغداد. حاول أهل البيت إعطائي الشعور بالأمان وقد نجحوا، أحسست بعد أن قاسمتهم طعامهم أنني أعرفهم منذ زمن طويل، فتمنيت أن أقول لهم الحقيقة حتى لو قتلتني السلطة بعد ذلك.

بعد الطعام أعلن أبو صفوان عن قدوم مسؤول المنطقة للحزب الحاكم إلى منزلهم ليراني. داهمني الانقباض والخوف. كان في داخلي شيء أشبه بالحرب بين أن أصدق ما حصل معي وما سوف يحصل، وبين أن يكون كابوساً سأصحو منه وأجد نفسي وأنا لا زلت متخفية في بيت سري مع متخفين معارضين آخرين يحملون أرواحهم على أكفهم. هناك في ذاك البيت السري حيث نطفئ الأضواء ليلاً وكأن البيت غير مسكون، والذي يريد الخروج من المنزل عليه أن يفعل ذلك فجراً وقبل بزوغ الشمس وليعد في جنح الظلام.

كان هذا تدبيرنا كي لا يسأل مسؤول الحزب الحاكم في الحي عمن نكون، وما هي أسماؤنا، وأعمارنا، وأعمالنا، وإتجاهاتنا و و و جملة من الأسئلة ستوصلنا حتماً إلى حبل المشنقة أو المعتقل في أحسن الأحوال. الأمران شبيهان بالكابوس، وأنا بين الفينة والأخرى أتحسس بطني وأشعر بالجنين يتحرك معلناً حياته التي من واجبي المحافظة عليها قدر ما أستطيع. ترى أين وصل زوجي الآن، هل سأنفذ من الموت والتقيه ثانية؟

حضـر أبـو محمـد، كـان شخصـاً فظـاً، غليظـاً، آمـراً ذا صـوت جهوري. عندما سلم ورآني، مباشرة قال مستنكراً:

أمثـل هـذه الشـابة الصـغيرة الجميلـة يتركهـا زوجهـا وحـدها في الحدود ويذهب؟ كم حقير هذا الزوج؟ ثم يوجه كلامه لي:

كيف ترضين البقاء معه، أقسم أنني عندما يعود سـألقنه درساً لا ينساه أبداً.

تحـرك الرعـب في قلبي مـع حركـة الجـنين في احشـائي. كـان أبـو محمد يتوعد بعصبية فكيف لو علم أننا من المعارضة؟ كيف لو عرف أنني كذبت عليهم في كل ما قلت؟.

أحسست بألم مفاجيء في رأسـي سـيطرت عليـه ووجدت أن علي أن أبرر كل ما فعله زوجي فقلت:

إننـا عنـدما تزوجنـا قبـل سـتة شـهور وأردنـا الـذهاب إلى الخـارج لقضاء شهر العسل توفي أخي فلم أستطع الذهاب، ثم هممت قبل ما يقارب شهرين بالسفر مع زوجي وإذ بي أصاب بالزائدة الدودية. لذا، عندما وقع خطأ ما ومنعت من السفر هذه المرة، وجدت أن ليس من المنصف أن أحرم زوجي للمرة الثالثة من السفر وبسببي أيضاً، فقلت لماذا لا أدعه يذهب ليجلب لي على الأقل ملابس جميلة من هناك.

كنت أجيبه بأسلوب بسيط، أسلوب امرأة لم تتعلم بالكاد سوى القراءة والكتابة، حتى سألني عن تحصيلي الدراسي قلت:

أنا لا أحب الدراسة تعلمت حتى صف الخامس الابتدائي وتركت المدرسة.

الخوف ...إنه أكبر دافع للكذب .. وها أنا صرت أبدع بإيجاد كذبة تنجيني من الموت، فليس لي أخ قد مات، ولم تُجرَ لي عملية لاستئصال الزائدة الدودية، ولا أنا كارهة للدراسة ولم أتركها، لكن العجيب هو أنني قلت ذلك بكل ثقة.

علّمني الخوف أن أكذب.

ترى هل الخوف هو الذي انتصر عليّ إذ علمني الكذب، أم أنني انتصرت عليه باستخدامه وسيلة للنجاة، أم أن النظام المستبد هو المنتصر الوحيد بكل ما يحصل لنا؟.

نظر لي بريبة قائلاً:

هناك شيءٌ ما تخفينه عنا لكننا حتما سنعرفه قريباً.

تسارعت نبضات قلبي. لاحظتُ أن أبا صفوان يخشى ذاك الرجل كثيراً. أو ليس هو المسؤول الحزبي عن كل فرد في هذه المنطقة الحدودية البعيدة، إنه كل شيء هنا فهو المطاع الذي لا يُرد له أمر، الكل يصمت أمامه برهبة وكأنه آت من السماء.. الكل يريد إرضاءه.

خرج بعد أن شرب الشاي وأكل شيئاً من الحلوى.

ليذهب إلى الجحيم. تنفستُ الصعداء وأحسستُ أن هذه العائلة أيضاً تنفست الصعداء معي.

إقترب مني الأطفال كثيراً بعد أن لعبت معهم في النهار. سأل أبو صفوان زوجته عني:

ماذا تتوقعين هل أن هناك خطأ ما أو إجحاف بحقها؟ أجابته المرأة:

نعم أنا لم أر فيها ما يريب أبداً، حرام عليكم ما فعلتموه، إنها إنسانة مهذبة وطيبة جداً.

نظر لي الرجل بألم بل شعرت انه كاد أن يبكي، ثم قال:

أعندكِ عنوان ما في تركيا لتذهبي وراء زوجك؟ سأرسلك على مسئوليتي.

استغربت من هذا وأجبت بدهشة:

إن جواز السفر مع زوجي فهو مشترك بيننا. لكنه زاد دهشتي أكثر، عندما قال:

هذا لا يهم سأتدبر أمره، لكن المهم إلى أين ستذهبين لو سمحت لك بالسفر؟

اطرقتُ مفكرة بما سأقول، فليس لدي عنوان في أي مكان، وما كان عندي سوى رقم تلفون في بلد عربي آخر ورسالة سلمتها لزوجي لا أعرف ما بها.

مع الأسف لم نفكر في ذلك قط، لم نتدبر أمرنا من الخوف، إذ كنا شبه واثقين من فشل المحاولة وإلا لكانت فرصة ذهبية لي ولجنبتني الكثير من المعاناة. لو كنا قد اتفقنا على عنوان فندق، لكان الأمر هيناً، ولكن كم من الأمور تغيب مع الخوف لتأتي مكانها أخرى مُربكة وضارة، وهذه الأمور علمتني، أن أحد أسباب تخلفنا هو الخوف. الخوف من الأنظمة، الخوف من التقاليد، الخوف من الأهل، الخوف من الفشل، الخوف من الحرام، الخوف من أي شيء، كل شيء نلبسه صورة الشبح وترتعد فرائصنا منه، يربك حياتنا ويولد مخاوف اخرى، أكبر وأفظع، تفقدنا إيجاد الحلول فنضيع..

تذكرت الخوف الذي كان ينتابني حينما كنت أتأخر عن الوقت المتاح لي خارج المنزل قبل زواجي. كان لابد لنا، انا وأخوتي، وبقرار من الأهل،أن نعود قبل أذان الظهر إذا خرجنا صباحاً، وقبل آذان المغرب إن خرجنا بعد الظهر، وحينما أتأخر عن الوقت المحدد، أعود مرتعبة مما سيحدث لي، أسير مضطربة، أحسد العجائز السائرات بالشارع باطمئنان ولا أحد يفرض عليهن وقتا بعينه. قد أرى عجوزاً يتوكأ على عصاه ماداً يده للمارة ليشحذ مايسد به رمقه، فأتمنى أن أكون هو رغم كل ما به من آلام وفقر وشيخوخة، أو قد أرى زبالاً يلمّ أوساخ الشارع وقت الظهيرة، فأتمنى حريته. كنت مستعدة أن أكون أي شيء أو أي إنسان أشعر أنه حر، سوى بنت خائفة مما سيفعله أهلها بها إن تأخرت وخالفت أعرافهم. كان الخوف ينصب نفسه قائداً بطلاً في كل تحركاتنا وفي كل لحظاتنا حتى السعيدة منها ..

راودتني كل هذه الأفكار، وانا أجيب محدثي قائلة:

- لا أعرف مكاناً بعينه، وأشكرك على الثقة. ثم سألت نفسي:

أية قوانين يطبقونها علينا؟ قبل قليل منعني من السفر لانني ممنوعة، والآن يقول أن بمقدوره تدبير أمر سفري حتى بدون جواز سفر، فقط لأن زوجته لامته، وزكتني أمامه، أية قوانين هذه التي تبيح لموظف بسيط في الدولة أن يمنع مواطنا من السفر، ثم يعود عن قراره فيسمح له بالسفر.

تبادل ابو صفوان مع زوجته نظرات توحي بندمه، وتتوسل الغفران، بعد ان شعر أمامها، ربما، بتأنيب الضمير. سمعتها تهمس له بصوت خفيض وأنا مشغولة باللعب مع الأطفال:

– لقد أحبها الأولاد كثيرا. إنها فتاة لطيفة جدا، الواضح انها من عائلة كريمة. ثم تلتفت لتخاطبني بصوت أعلى:

لا تبالي بما قاله أبو محمد، فهو هكذا خشن لكنه ليس سيئاً.

قلت: هو لا يعرف زوجي لذا لا أغضب منه لو تحدث عنه بسوء، فهو لا يدري بأنني أنا التي طلبت منه السفر، وبأن زوجي لبى طلبي لا أكثر.

بعد ذلك سهرنا معا وتحدثنا عن أشياء كثيرة، تحدثنا عن الأطفال، الطقس، التلفزيون. كنت بارعة بتمثيل دور الساذجة، ويبدو ان سذاجتي التي تقمصتها زادت في تعذيب ضمير الرجل.

أعطوني غرفة وحدي للمبيت، سلمتني روعة مفتاح الغرفة قائلة:

أعلم أنك خائفة. خذي المفتاح لتغلقي عليك الباب من الداخل.

عجبت من هؤلاء الناس المتعاطفين معي حتى العظم. ما كنت أحلم أني سأجدهم هنا وفي محنتي هذه التي كانوا ضمن المساهمين بها، فلو تغاضى عن المنع وجعلني اسافر مع زوجي لما كان كل هذا.

كانت الغرفة مؤثثة بشكل جيد ونظيفة. قبلني الأولاد وتمنوا لي ليلة سعيدة قائلين، سنذهب للمدرسة باكراً وقد تكونين نائمة. أبقي عندنا لنلعب معا، هيا قولي نعم، أرجوك هل ستبقين؟ قبلتهم وكدت أبكي حبا لهم وللبراءة التي أنستني بعض ما أنا فيه.

أويت إلى الفراش بعد أن أقفلت باب الغرفة، لكن الوساوس والخوف اللعين من آلة تصوير أو شيء ما من أساليب المخابرات قد وضع لي داخل الغرفة، جعلني أخاف من أتيان أية حركة، فلم أغير

ملابسي، بل نمت بها حيث افترضت أن أحدا يراقبني. وبرغم الظلام، تصرفت على أن أحدا يراني في هذه الخلوة، خفت من أن أمد يدي تحت المخدة أو أقلبها، لقد تمكن الخوف مني حين أصبحت وحدي.

كان في الغرفة شباك مقفل، يطل على الخارج، من خلاله صوّر لي الطقس ذاك اليوم أشباحاً كثيرة، فالرعد والبرق والثلج تعاونوا جميعاً ليوقظوا خوفي، فأبقى مفتحة العينين حتى الصباح، أخشى أن أغمضهما فيحصل ما لا أدريه. من يدري، قد يكسر أحدهم الشباك ويهجم علي، كأن يكون أبو محمد مثلا. أين أنت أيها الفجر؟

كيف سأنام بعد كل هذا الكذب الذي اجترحته اليوم، رغم انه كان عفويا وتحت سطوة الخوف ومحاولات الإفلات؟ ماذا لو عرفوا بحقيقتنا انا وزوجي، ماذا سيفعلون بي ياترى؟

بقيت عيني مفتوحة، شاخصة نحو الشباك مرة، والباب مرة أخرى.

هدوء مخيف سيطر على المكان وفجأة سمعت أصواتا، لا أدري من أين انبثقت، نقاشاً وحواراً خافتاً لا أستبينه، يشتد النقاش، يعلو بعض الشيء أستطيع تمييز كلمات، مثل "غير ممكن" و"لا أعتقد". ربما لم تكن هذه الكلمات هي التي سمعتها بالفعل، لكن خوفي كوّن لي كلمات وغرسها في سمعي. من يدري لعل الخوف وضع برأسي كل تلك الأصوات.

هل سمعت يا ترى أصواتاً حقاً، وهل سمعت تحذيراً لخفض الصوت يأتي من شخص آخر؟

من المخيف أنه لم يتناهَ الى سمعي صوتٌ نسائي واحد. هناك محاولات لشيء لا أعرفه.

رحت افتش عن علاقة بين الحزن الذي يلف وجه صاحب البيت وبين هذه الحوارات التي لا أسمعها، او ربما يخيل لي اني اسمعها . اسئلة خائفة تتوالى على ذهني. هل هناك من يطلب من "ابو صفوان" تسليمي الان؟ ماذا يجري في الخارج؟

هل اتصلوا في المركز هناك وعرفوا من أنا، وما هو نشاطي السياسي وافكاري؟

أم هم قرروا الاعتداء عليّ وانتهاك جسدي، وأنا العزلاء التي وقعت بين أيديهم؟

الخوف اللعين لا يعرف سوى أن يداخل الأفكار بعضها بالبعض الاخر، فتختلط الأمور، حتى لم اعد أميز بوضوح. كيف يستطيع البعض مع الخوف إيجاد الحلول؟ لا أعلم. وهل أن الخوف يعلّم اموراً غير الكذب؟ ولماذا أنا أصبح احياناً، وتحت تأثير الخوف، لا ميتة ولا حية، ولا أفكر إلا بارتباك غير مجد؟ وهل الجميع مثلي؟ هل استطيع ان أدافع عن نفسي ان هددت حياتي في هذه الساعة؟ لكن، حتى لو امتلكت سلاحا الان، فأنا لا اعتقد ان بامكاني قتل اي انسان، حتى لو كان يريد قتلي. نعم انا لا استطيع أن أتخيل، مجرد التخيل، بانني قادرة على قتل انسان او حيوان، بل انني لا أستطيع رؤية رأس دجاجة مذبوحة، وكأن عيون الحيوانات التي تنحر وتؤكل تعاتبني وتلومني، اذن، كيف يدافع الناس عن انفسهم؟ لعل اطلاق النار أسهل، لكنني اخاف من رؤية أي سلاح وكأن مجرد الاحتكاك به يؤدي الى اطلاق الرصاص علي. ماذا سأفعل، انني في مأزق حقيقي، والرعب لا يثمر نتيجة مرضية.

لم أفكر سوى بما يخيف، رغم كل ما استحضرته من أفكار. قلّبت خوفي على كل الوجوه، فوجدت ما يشجعني. لماذا الرعب وأنا

موجودة في هذا المكان الموحش بسبب اعتناقي لمباديء انسانية، اعتنقتها بقناعة. اذن، علي تحمل مايحدث والقبول بكل النتائج.

خفتت الأصوات وسمعت مفتاحاً أدير في باب ما، قد يكون الباب الخارجي للمنزل. لابد وأن يمنحني الصمت الآن بعض الهدوء. لكن كيف لي بالنوم ومن أين اجيء به؟

لأضطجع على ظهري، فقد يغلبني النوم سريعا في هذا الوضع. تذكرتُ أبي والمقولة التي يرددها دوما :"النوم على الظهر نوم الأنبياء، وعلى اليمين نوم الحكماء، وعلى اليسار نوم العلماء، وعلى الوجه نوم الشياطين". قد أكون نسيت المقولة كما هي بالضبط، إلا أنني لم أنسَ أن النوم على الوجه هو نوم الشياطين. لم أفلح في النوم على الظهر، سامحني يا أبي سأجرب نوم الشياطين. آه، كيف يسامحني وأنا بعد أن توفى اصبحت اشكك بكثير مما يقدس؟

حينما كنت في السادسة عشرة كان أبي قد توفى قبل ذلك بعامين، التقيت وقتها بابن عمتي الذي لم أره منذ أن كنت طفلة بالابتدائية. كانوا يسكنون في مركز المحافظة لكننا لم نكن نزورهم، فأبي كان معارضاً لزواج عمتي لأن زوجها رئيس بلدية لإحدى مدن المحافظة، وكان أبي يرى دائما ان في السلطة فساداً، وكم عُرض على أبي أن يكون رئيساً لبلدية مدينتنا زمن الملكية، لكنه رفض، زهداً منه بالسلطة وكرهاً لرجالها.

تزوجت عمتي بإرادة أمها التي هي زوجة جدي، ولأنهم لم يعيروا اهتماماً لموقف أبي قاطعهم الى الأبد. عندما توفى والدي وسكنوا هم قريبا منا، عادت العلاقات لمجراها فتعرفت على ابن عمتي. كنت أرى أن أباه لا يحب ترددي عليهم، أواجهه بالابتسام ويواجهني بالريبة. منذ أول لقاء لي مع الشاب لم أنم حتى الصباح، فقد دخل قلبي بسهولة.

كان أول حب بحياتي، هذا إن كان معنى الحب هو أن ترى إنساناً وتحبه من أول نظره وتعشق صوته وصورته. كان قد اعطاني دروسا في الكيمياء التي كنت أجد صعوبة بهضمها، تخلل تلك الدروس إعجاب متبادل في ما بيننا.

كانت حدود الحب فيما بيننا قبلات معدودات، حفظت تاريخها في ثنايا عقلي.

كان هو طالباً في كلية الهندسة، وسيما، ثوريا يريد – كالكثير من الشباب وقت ذاك- أن يشيد النموذج السوفيتي.

لماذا تذكرت الآن هذه الأمور كلها وأنا في هذا المكان؟ تذكرت حينما أحببت ذلك الشاب. تغيرت حياتي كثيرا، تلبستني افكاره وأثرت فيّ حواراته وأقنعني أن الدين من صنع الانسان. كان يحاورني كثيرا محاولا إقناعي بأن الرب من أوهام البشر، فالانسان يخشى الطبيعة، ولأن عقله لم يستطع الإجابة على كل الأسئلة التي تواجهه في الحياة، وجد أن الحل الأسهل هو الدين. كان يناقشني بما آمن به هو، بأن الإنسان مادة عضوية تتفسخ وتتحول إلى مواد أخرى في الطبيعة. يقول ابن عمتي ذلك محاولا اقناعي، ثم عندما يرى مني شكا وريبة، يروح هاطلا علي باسئلته وتساؤلاته:

- ألم نتعلم في المدرسة أن الإنسان حيوان ناطق؟

- نعم

- إذن هل تعتقدين، إن الحمار عندما يموت، سيذهب إلى الجنة مثلا أو الى النار؟

- لا أعتقد

- هكذا نحن البشر، لا نختلف عن الحيوان إلا بهذا العقل الذي صنع لنا الأوهام في مراحل بدائية من حياتنا الأولى وإحدى هذه الاوهام هو الدين.

مرة، أعطاني كتباً، اتذكر منها "موجز في المادية الديالكتيكية"، وأخرى عن "تحرير المرأة العاملة لأكسندرا كولونتاي". كلها أحرقتها أمي حين اكتشفتها بين كتبي المدرسية، و أحرقت كتابا عن المادية التاريخية، وكتابا عن كيم أيل سونغ، وكتبا اخرى لماركس وإنجلس ولينين وفهد ومكسيم غوركي، وصور بعض الثوار في الحركة اليسارية العراقية.

قالت أمي سأحرقك في المرة القادمة إن عدت لهذه الكتب ولهذه الأفكار، سأسمك بالسم وأكون فخورة بموتك. صرت بعدها ولأيام أخشى أن آكل في بيت أهلي. قاطعتُ الطعام إلا ما اختلستهُ اختلاسا، أوتأتي به صديقتي بجيوبها من بيت أهلها من بسكويت وماشابه.

لكن الخوف آنذاك غير الخوف هذا اليوم، فأن يخشى الإنسان من أمه وأبيه أهون ألف مرة من أن يخشى أناسا لا يعرفهم ولا يعرفونه. كما ان الخوف من الأهل في سني المراهقة قد يشكل دافعا للعناد وللمضي أكثر وبخطى أسرع نحو المراد.

هكذا، أصبحت كافرة في نظر أمي، صرت أناقش الناس بأن "الدين أفيون الشعوب "كما قال ماركس، رحت أفتخر بهذا وأعتبره أحسن شيء تعلمته بحياتي عدا الحب الذي تعلمته من أبي. فبدأت اعيش صراعا هائلا بين الإيمان واللا ايمان. عندما أرى السماء أتذكر أبى فأبكي وأحس اني عصيته وكأنه كان يمثل الله لي، وحينما أكون مع صديقي، أشعر بالقوة وبأنني تحررت من الوهم الذي يجعل الناس كالعميان.

صرت أرى أشياء كثيرة، أشياء ما كنت أراها سابقاً. لكن السماء والغيم والقمر تعيدني أحياناً كثيرة لحضن أبي. أبكي كثيرا، ليس كمن يبكي على أبيه الميت بل إحساساً بالعقوق وعودة إلى الله، لأن ابي علمني الإيمان بالله كمعادل للحق والعدل والرحمة.

الصراع يستمر ويأتيني ساعة الشدة، وهاهو يأتي الان، مع الخوف الذي يهاجمني وانا وحيدة في غرفة مظلمة، ومع مصير مجهول، فهل سأعود لمن كنت اتخفى معهم طوال العام في بيت سرّي في بغداد أم سأموت في هذا المكان المنعزل؟. لعلّهم الآن احتفلوا بمناسبة عبوري الحدود، وما أدراهم باني الان حبيسة هذه الغرفة الموصدة، لا اعرف ماذا سيحل بي. ماذا لو عرف هذا الرجل الغليظ، أبو محمد بأمري؟ سيقطعني إربا إربا وسيرمي بجثتي للكلاب، في هذه الحدود النائية الموحشة.

لا أستطيع من الخوف والعتمة في هذه الغرفة أن أرى كم الساعة الآن. إنني قليلة النوم غالبا لكن الأرق أنواع، منه اللذيذ الذي يفكر فيه المرء بمن يحب ويعشق، كما أرقتُ حين عشقت. وقتذاك، كنت أجد في الليل ملاذا لي، فأستمتع بأفكاري كما أشاء دون ان يزعجني أحد. أتحدث مع حبيبي ،أفكر بما سأقول له غداً. ماكان عندنا تلفون، لذا كان القمر هو رسولنا الوحيد، وهو لا يبلغ الأمانة أبداً. موقفي الان، داخل هذه الغرفة المغلقة، يجعلني أصدّق بأن اللوذ بالدين ضعف ومحاولة للخروج من الحيرة، فأنا الان ضعيفة، خائفة.

مخاوفي السابقة تعود، وقلقي يزداد، لكنني أحاول الإمساك بحبل يبعدني عما أنا فيه، فأتذكر أبي الذي يوصلني بالله.

كنت اعتقد أن الله لن يعاقبني على هذه الأفكار المنافية له، لأن الله يعشق أبي لما عنده من اخلاق نبيلة. كنت منذ صغري مؤمنة بأن

لأبي علاقة وطيدة ومميزة مع الله، مع أنه قد لا يصلّي كل الاوقات الواجبة، ولعله مثلي ينتابه الشك أحياناً، فقد قرأت مرة عجزاً من الشعر وجدته مكتوبا على علبة سكائره يقول فيه:

"فصرتُ أشككُ حتى بذاتي"

ربما كان أبي يعيش الصراع نفسه الذي عانيته، خاصة أنني سمعت من أمي أن الناس ومنذ ثلاثينات القرن العشرين كانت لدى بعضهم أفكاراً غريبة.

كانت امي تستغفر الله كثيرا وهي تتحدث عن تلك الافكار الغريبة، وتقول ان اصحاب تلك الافكار، كانوا يسمون بالطبيعيين.

مجلس جدي لأمي فيه البعض من هؤلاء منهم "عبد الكريم العنبري"، الذي كان صديقا لوالدي، أتذكره جيداً حينما كنت طفلة. كان رجلا مرحا يتحدث بسرعة، وكثيراً ما كان يردد أقوال العظماء التي حفظتها منه، وكانت الكلمة التي يرددها كلازمة في حديثه هي كلمة "أحمق"، وهكذا عندما كان يريد أن يصف فلانا بالسوء، يقول إنه أحمق، قبل أن يطلق ضحكته الرنانة .

كان يقولها بشيء من الثقة والبهجة، وكأنه اخترع هذه المفردة اللغوية. كان سعيداً بتكرارها كمن يعرض نتاجه الخاص، يكررها كثيراً ويضحك ساخراً من الحمقى حيث يراهم كثيرين في هذا العالم، وهل هم كذلك حقا في عالمنا؟. ربما كان صديق أبي على حق، وإلا كيف نفسر وجود المزيد من الجوع والموت والحروب والدمار، فلولا كثرة الحمقى لما كانت هذه الأمور لتحدث.

من يدري ربما كان أبي أيضاً طبيعياً، لكنه كان يخشى المجتمع ويساير الأكثرية، وربما كان يعيش صراعا بين تحكيم العقل، وبين الخضوع لما كان سائدا من أفكار في عائلته.

ليتني أعرف كم الساعة الآن ومتى سيأتي الفجر، وهل سيطلع علي وأنا حيّة؟

كيف أستطيع طرد الخوف في هذه العتمة؟

ليس لي سوى الذكرى حتى ينقضي هذا الليل، يحضر الان أبي، كأحب الناس الى روحي واقربهم لها . كان أبي يحب أمه كثيراً، أمه التي ماتت في سن الثانية والثلاثين. قتلها الحب حين عرفت أن زوجها سيتزوج امرأة سواها . مسكينة، لقد فرحت حين رأت ملابس حريرية جديدة في سلةٍ توسطت باحة الدار، تهللت بالمفاجأة سائلةً أخت زوجها :

- هل جلب زوجي هذه الهدايا لي؟

أجابتها أخته مؤكدة على جرحها، موغلة بتعذيبها :

- لا، إنها ليست لك، هي لزوجته الجديدة.

ثلاثة أيام من الحرارة والإسهال، أعطتها أخت زوجها دبساً وسمناً قالت لينظف بطنها، فما كان من الإسهال إلا أن زاد .. فقدَ جسمها السوائل ..ماتت بصمت، بعد أن تركت أبي في سن الحادية عشرة وأختاً وسطى والصغرى في الثالثة من العمر، والتي اصبحت فيما بعد عمتي الأقرب لي من أمي، لم أنس ماتعلمته منها من المحبة والمرح والعبث والاهتمام بالتطبب بالاعشاب. كانت عمتي تجمع نواة " الدراق" تقول انه مفيد لعلاج أمراض الاذن. كانت تجففها وتجمعها في كيس من القماش. كل مرة يصبح الكيس أكبر، لكنني لم أر مرة واحدة أن عمتي استعملته لعلاج أحد، ولم أعرف حتى الان كيف يستعمل. هل يسحق ويوضع في الاذن أم يغلى ويقطر؟ هل اللب مفيد أم قشرة النواة؟ ندمت كثيرا لأنني لم أسألها مرة واحدة عن هذا، وبقيت حتى الان كلما أكلت الدراق اتذكر عمتي وأندم لأنني لا أعرف كيف استفيد من النواة لعلاج آلام الاذن.

كان أبي يقول إنني أشبه أمه، ربما لهذا، كان يحبني كثيرا وبشكل متميز، وهو لم يعنفني أو يقس علي في حياته مطلقا.

أه، يا أبتي، لو تعلم أين ابنتك الآن؟ وما الذي فعلته من بعدك، ما عساك تفعل، يا ترى؟

ترى كم الساعة الآن، وهل الفجر قريب؟ لماذا تقفز بعض الذكريات قبل سواها لذاكرتي في وقت كهذا؟ أم أن مرور شريط الذكريات على المرء هو نذير بالموت؟ اذن لأعيد المزيد من الذكريات، لأقص على نفسي كل الوقائع التي عشتها كي لا تغمض عيني، فقد يحصل ما لا أدريه إن أغمضتها.

أنا الآن في قبضة الحكومة المتوحشة، شئت أم أبيت، ولا أدري في أية لحظة سوداء سيكتشفونني. آه لو اكتشفوا أمري، آه لو عرفوا من أنا.

تركت تساؤلاتي هذه معلقة، وعدت ألوذ بالذكريات التي خلفتها ورائي. ولا أدري، لماذا قفزت الى ذهني صورة "حسناء"، الفتاة الشابة إبنة صاحب المعمل. لا أدري لماذا تتربع صورتها الآن في ذهني .. هل لأن حسناء غيرت تفكيري بعض الشيء؟

حين غادرت مدينتي قبل أشهر، متجهة الى بغداد، هربا من مطاردة سلطات الأمن، انقطعت عن المدرسة وعملت في شركة للنسيج والجوارب في بغداد. كانت لدى صاحب المعمل ابنة شابة أصغر مني، تأتي أحياناً معه حين يوصلها من المدرسة أو إليها. كانت شابة مشرقة الوجه، تسلم علينا باحترام، تبتسم لنا. في البداية حقدت عليها، حقداً طبقياً مقدساً، فأنا عاملة وهي برجوازية. كنت أمارس مع المسكينة كل

ماقرأته وتعلمته من أفكار حول الصراع الطبقي المقدس، وعندما لاحظت الفتاة نظراتي الحاقدة، خافت بعض الشيء وبدأت تشيح بوجهها عني. تصورت نفسي بطلة أمثل دوري في فلم عن نضال العمال ضد البرجوازيين، مصاصي الدماء. تماما مثلما قرأت في بعض الكتب الإشتراكية. لم أستطع الاستمرار بهذا الدور ولم أستطع تحمله أكثر من يومين. صرت أحاور نفسي: ما ذنب هذه الصغيرة البريئة التي لا تعرف من الحياة سوى أن ترتدي ثوباً جميلاً يشتريه أبواها؟. ما علاقتها بالاستغلال والمال والصراع الطبقي، ثم أنني أدفعها لأن تكرهني بهذه النظرة.

يومها تذكرت أبى الذي يحب الناس كلهم فقيرهم وغنيهم. صحيح انه كان يردد دائما مقولة الإمام علي " ما جمع مال إلا من بخل أو حرام"، لكنه كان يحب أن يوزع حبه على جميع الناس، غنيهم وفقيرهم، ولم أذكر أنه كره أحدا في حياته. كان أبي ينطلق من فلسفة خاصة به مفادها أن الفقراء أحرار وهم أغنياء بهذه الحرية، وإن الأغنياء هم الفقراء، وهم عبيد المال دوما وأبدا، وكثيرا ما كان يردد أمام أمي، وهو يتحدث عن الأغنياء قائلا: لا تغرنك ممتلكاتهم، فهي، مهما عظمت، لا تكسبهم حب الناس ولا أحترامهم، كان أبي وهو يتحدث هكذا عن الأغنياء، إنما يعطف عليهم، بل يسميهم "بالمساكين".

استعادتي لأفكار أبي وأقواله وأفعاله في الحياة جعلتني أنسى مفهوم الحقد الطبقي، وألغيه من أفكاري، بل جعلتني فلسفة أبي في الحياة أعيد النظر في علاقتي بالفتاة (حسناء).

أبي على حق. لماذا الكراهية، والحب أسهل على القلب وأقرب إلى الروح.

ترى كم الساعة الان؟ هل سأعبر الحدود فأنجو؟ هل سألتقي بزوجي من جديد ؟ اين هو الان؟ هل سأطمئن على حياتي وعلى الجنين الذي أحمله في احشائي؟

أين أنت أيها الفجر ولماذا لا تأتي.

وتر منسيّ

في منتصف ليلي الساكن، سمعت طرقات مضطربة على الباب، فأسأل عن الطارق.

من؟

يأتيني صوت سومر وهي تحثني على فتح الباب بسرعة. أفتحه فأرى طفلة سومر بين ذراعيها وهي مصابة بحمى ووجهها مزرق. ألمسها، فأشعر بالهلع وأنا أتأكد من ارتفاع درجة حرارتها. أسرع لأتصل بالإسعاف، سومر ترتبك ولا تدري ماذا تفعل. بسرعة، أقوم بعمل كمادات باردة أضعها على جبين الطفلة وانا أنتظر وصول الإسعاف، اخيرا، تفتح الطفلة عينيها على بكاء سومر، نلتقط أنفاسنا بعد أن خفنا ان تموت الصغيرة بين أيدينا.

أسأل سومر: الم تكونا قبل سويعات عندي، ما الذي حصل لها؟

تبكي سومر لاعنة حظها دون أن تجيب. أصمت أنا وأحاول أن أهدئ من روعها،

لكن في داخلي اسئلة لاتجد اجابات.

هل تسمين ذلك حبا أيتها العاشقة المسكينة؟ كيف تركت تسلل الحياة الى رحمك في ساعة ضياع، لتنجبي منه وتتعذبي أكثر.

وترها المحترق

جاءت سومر اليوم محتقنة الوجه، ملتهبة المشاعر، تحمل طفلتها النائمة بين ذراعيها لتقضي أمسيتها معي، كانت حائرة، وعلى شفتيها تساؤلات لا تعرف كيف تجيب عليها.

قالت:

اليوم جلسنا، أنا وهو وضيفة لنا، فنانة جاءت تعرض لوحاتها هنا، لكنها غريبة الأطوار، اتعرفين لقد احتالت هذه الفنانة على زوجها وكذبت عليه. قالت له ان دعوتها تستغرق مدة اسبوعين، والحقيقة هي أن الدعوة أربعة أيام، ليس إلا، لكن هذه الفنانة تريد أن تبقى، طوال الأيام الأخرى، في بلد اوربي آخر مع عشيق لها.

تمسك سومر يدي، وكأنها تريدني أن أصغي إليها جيدا، وأن أصدق ما ترويه لي عن التصرفات الغريبة الداعرة لهذه الفنانة. تصوري، إنها وضعت يدها على فخذ حبيبي بعد لحظات من لقائها معه، تريد أن تغريه، لكن تصرفها أثار تقززه، فنهض مبتعدا عنها الى كرسي أبعد.

أعجبني تصرفه وجعلني أنتشي بوفائه لي. والأدهى من ذلك، أنها لم تكف، وكلما ابتعد عنها أمعنت هي في التقرب اليه. وهكذا، ظل هو يدافع عن جسده ويصد اعتداءات يدها التي امتدت لعضوه. اشعلت تصرفاتها وقيد غيرتي، وظل هو يبادلني النظرات ويبتسم، كأنه يريد ان يطمئنني، ويقول لي أن لا تخافي فأنت في المكان المكين من القلب. ثم،

صعدنا السيارة متجهين الى الفندق، كنت قد تركت لها المقعد الأمامي كونها ضيفتنا وهي أكبر مني سناً، جلست بجانبه حيث يقود هو السيارة. كانت تفتعل الحركات المثيرة. وكانت بين دقيقة وأخرى تضع يدها على فخذه، وهو يحاول أن ينكمش في المقعد ليشعرها انه محرج ومحاصر، لكنها لم ترعو عن محاولاتها المجنونة. وضع، متعمدا تسجيلا لأم كلثوم، فراحت تغني "وان غبت أحافظ على عهدك وافضل على ودي ويّاك".

يرفع صوت المسجل عالياً بهذه العبارة، ناظراً لي عبر مرايا السيارة. كانت هذه الضيفة تظهر وقاحتها معه أكثر لتتغزل بوسامته، ثم تلتفت لتقول لي:

سومر كيف لا تعشقين هذا الرجل الوسيم الذي لو رأته الأميرة ديانا لما تركته؟ أقول لها:

إنني أحبه كأخ، قلت هذا مضطرة لأنه نبهني أن لا أفضح العلاقة، فهذه الفنانة ثرثارة وقد تسبب لنا المشاكل.

لا تصدقني طبعا وهي الخبيرة بالعلاقات. كانت تطيل إبقاء يدها على جسده، وأنا أحترق، لا أستطيع البوح بأنه حبيبي وزوجي، وهي تقول له بكل وقاحة:

إنني أشتهيك أيها الوسيم، فلا تتركني بسرير الفندق الكبير وحدي. يجيبها هو:

أنت أخت طيبة ومن واجبي احترامك والاهتمام بك.

أحترق أنا رغم معرفتي بأنه لا يحب المبتذلات من النساء وكأنه مصاب بالحساسية منهن، رأيته في مواقف احترمته بها، إنه حقا لا يحب الاقتراب منهن أبدا، ولكن هل توقف كل هذه المعرفة به تصارع العقل

وقلبي. لماذا لا يجرحك ارتباكي لحظة محاولة أخرى اختراق حدود مسافاتك التي أرسيتها بالدمع وعذاباتي؟

لابد لي من أن أكون هادئة كي لا ينكشف أمري، وكيف أهدأ مع كل هذه الاستفزازات التي أراها وأسمعها بكل جوارحي. تسلحت بقول طاغور:

"ما هو بطولي حتما هو أن يبقى المرء هادئاً، لأن انعدام الحركة تحدٍ للكون أجمع الذي ليس سوى حركة"

إنها مجرد محاولات كي أنسى ما يحدث لحبيبي أمام عيني من هجوم رغبوي من قبل امرأة مجنونة بكل المعاني.

وتعود سومر لتراه أمامها بدلا عني لتقول له وهي جالسة معي:

ها أنا ذي أتحدى القهر للحظات، تستفزني الذكرى، أضع عقلي في حقائبي وأسير إليك.

منذ زمن الصراع ذاك، صمتت أوتاري، وبالكاد أحط أناملي على الوتر وأنزف. أسمع أحياناً موسيقاي فيك، حيث الحب لوعة ونار، وأتذكر، حين وثّقت عقد حبنا، يفيض حزني، فألعن طبيعة البشر.

تنتبه سومر لوجودي فتلتفت لتسألني:

لماذا نحن نقترب حين يبتعد الحب، ونبتعد حين يهوى بين أيدينا وتحت أقدامنا؟

ليس هو وحده على هذه الحال. أنا أيضا عندما أراه يموت فيّ حباً، أهدأ وأطمئن، وأنام بلا قلق. لكن حينما ينفر مني، أجنّ بحبه، وأريد الارتماء جارية تحت قدميه، فهل الحب يقترن بالقلق أم بالهدوء؟

وأية ساعة حب هي الحقيقية ياترى؟ إنك لا تعترف بقانون يبيح لي حقوقاً ويعلن الحقيقة بلا خداع.

لماذا لم يعترف القانون بهذه الطريقة الأخرى أو الحب الآخر ويجد له شرحاً؟

أكثر المتزوجين قد ملواّ من الارتباط التقليدي، وهم يتندرون عليه بشتى أنواع الكلمات الساخرة، والغالبية تعتبر غير المتزوج هو الأسعد، والبعض يحاول التهرب من شريكه ولو لأيام بحجة تجديد الشوق، فلو كان الحب حقيقيا وصادقا لما ملّ احدهما الآخر لحظة واحدة.

إذن، أين الحضارة في قانون لا يلبي حاجات المجتمع ولماذا هم سباقون إلى فتح مراكز بغاء تعرض النساء بها أجسادهن كالسلع المتنوعة من كل الأصناف، ليتخلصوا من توترهم في هؤلاء النسوة، دون أن يفكروا بهن كبشر.

أين الحضارة في دفع الرجل المال مقابل حاجة يقضيها وكأنه في دورة مياه وينتهي الأمر؟

أرى هذا النوع من الرجال أحياناً، أغلبهم من ذوي الشعور السود القادمين من العالم المسمى ثالثاً. عالمنا الذي انتشرت فيه الأديان، أراهم يسيرون في طرقات النساء ذوات الإضاءة الحمراء المنتشرة في هولندا، يسيرون أمامهن ببطء وكأنهم يحملون أثقال عالمهم الكئيب، عالم الممنوعات والانتحار الجماعي، أراهم يتلفتون ويفاضلون بين نافذة وأخرى، والنساء العاريات يعرضن ما لديهن من أجساد كالبضائع الكاسدة، متحركات بإثارة رخيصة مفضوحة، ضاحكات غامزات وكأنهن يتاجرن بقطع أثاث وليس بجسد من لحم ودم وعواطف.

أرى هؤلاء الرجال يسيرون شاعرين بالتفوق على الجنس الآخر، فلديهم الخيار بالشراء وتقليب البضاعة والزهد ببعضها إن شاءوا، وليس لديهن سوى التسليم والخضوع والإحساس بأنهن يخدعنهم ويستغللن حاجتهم ورغبة أجسادهم واستثارتها اللاإرادية.

فمن يخدع من يا ترى؟

هل أن من يتشاجر مع زوجته ثم يسارع الى الانتقام منها بواحدة من تلك النسوة يشعر بالارتياح حين يستأجر منها جسدها لدقائق؟

وأين الحضارة من وقوف تلك النسوة العاريات أمام الملأ جميعا بانتظار من يدفع؟

اين حرية المرأة في الاختيار حينما تنام مع رجل لا تقبله إلا لأنه يدفع فقط، حتى وإن كان حقيراً مشوهاً أو مكروهاً؟

أليس هذا هو الإغتصاب أو الغدر مع سبق الإصرار والترصد؟ وهل أن النساء والرجال الذين يمارسون هذا النوع من الجنس أحرارٌ؟

تلتفت سومر لي قائلة: تصوري اننا تحاورنا طويلا في هذا الموضوع حين سألني:

- أعندكِ أنتِ حل آخر؟

- ألا تتفق معي بأن تعدد الزوجات هو الآن سائد في المجتمعات الغربية أكثر منه في المجتمعات الشرقية، لكنه إما سري للغاية يمارسه صفوة القوم، وإما معلن حد قبوله من جميع الأطراف، والذين يمارسون الجنس الجماعي هم أبطاله؟

رد هازئاً: ماذا تعنين هل تعدد الزوجات كما في الإسلام هو الحل؟

-أنا لم أقصد أن التعدد هو الحل، ثم أنني ما كنت يوماً سوى المدافعة ضد تعدد الزوجات، لكنني عندما رأيت المجتمع الحضاري هذا، وعرفت أن كل المجتمعات البشرية سائرة طبعا في طريق التطور ذاته شئنا أم أبينا، وجدت أننا يجب أن نتوقف عند هذا الأمر، ولأنني أعاني من هذا الوضع، كان من واجبي أن أناقشه. ألم تقل لي أنت، لست أنت فقط، بل الأكثرية من الرجال تقول بأن الجنس مع الزوجة بعد سنوات يصبح واجبا لا لذة فيه، وبأن الرجال يبحثون دوما عن عشيقة جميلة تجدد لهم حياتهم، ويبذلون من أجل ذلك الكثير.

فما الحل اذن؟

ها أنت منذ سبعة أعوام تأتيني يوماً في الأسبوع لنأكل معا ونسهر وقد تنام عندي ببعض الأيام، تتصل بزوجتك وأنت معي لتقول لها:

أنا سأنام عند صديق، لقد شربت لذا لا يستحسن أن أقود السيارة..

تكون أحياناً على فراشي ملتصقا بجسدي لتمد يدك الى الهاتف وتتصل، أسمع أنفاسها على الطرف الآخر وأسمع حديثها معك. قلت لك عندما عدنا من شهر العسل، لا أتمنى أن تذهب بعيداً عني، أتمنى أن أبقى معك دائما، ثم تأملت بك حالمة قائلة:

ماذا يحصل لو أننا عدنا معا لبيتك؟ ما سيكون رد فعل زوجتك؟ أجبت بسرعة مستكبراً المفاجأة:

- ستكون قنبلة تقع على رأسها من السماء، فهي حتى الآن تظن أنني معها بحب ووفاء ولم أخنها، فبذكائي أستطيع أن أقنعها بكل ما أريد. هي تعتقد إنني لا أعرف الكذب وأنني لا أستطيع أن أخبيء عنها شيئاً، بل هي مؤمنة بإنني إنسان واضح جدا وشفاف وتستطيع معرفة كل ما بداخلي. صرت تسرد ذكاءك وغباءها، وتستغرب قائلا:

- غريب لو أنني مكانها لعرفت كم أنا تغيرت. لو أنني مكانها لعرفت أن الشخص الذي يعيش معي ما عاد لي. وتخبرني عن استغرابك من عدم إحساسها بتغيرك ازاءها قائلا: تصوري إنني أحيانا اشعر بالانزعاج عندما تقترب مني لتقبلني وهي تغادر المنزل. أشعر بالبرودة ولا أريد أن تلمسني، ومع ذلك هي لا تشعر وتعتقد أنني لا أحب سواها.

نعم أعرف أنك مخادع وممثل بارع تستطيع أن تخدع زوجتك التي عاشت معك ربع قرن وأكثر، ولولا أن مجهولين أرسلوا لها الرسائل لما شعرت بخيانتك، ولبقينا معا في أسعد حال. لولا الرسائل التي نبهت زوجتك، لكنت استطعتَ أن تأخذ قراراً شجاعاً لتغير حياتك. فهل الحسد الذي يتعرض له العشاق يدمر الكثير من الحب، أو هو يكشف زيف الطرف الكاذب ويغير المعادلة؟ وإن كانت السعادة أن تعيش امرأة مع زوجها حتى لو كان لديه عشيقة فزوجتك تملك السعادة بخيانتك لها، وجبنك مكنها من تلك السعادة، أية سعادة ترى هذه وكيف تقاس؟

وهل أن الإحساس بالسعادة يدخل ضمن ذكاء الإنسان أو غبائه؟

وإلا كيف أستطيع فهم أو تفسير حالة زوجتك وأنت تأتيني كل أسبوع لتبقى معي أكثر من 12 ساعة أحيانا، تغادرني بثيابك الممتلئة بعطري وبعض ألواني. كيف لا تشعر زوجتك بأن قبلتك لها تغيرت،

ورغبتك الجنسية تغيرت، ألا تشمك وتشعر أن رائحة جسدك أخذت شيئا مني؟.

أتذكرُ يوما من الأيام حين طفح بي شوق للحديث اليك، فاتصلتُ بك، رفعت زوجتك سماعة الهاتف، لم أتكلم أنا، فعرفتني من الصمت، وقالت لي قبل أن اغلق الهاتف: سترين من منّا ستضحك أخيراً.

تكرر سومر كلماتها وكأنما هو الجالس أمامها وليس أنا لتقول له:

أعرف أنها هي التي ستضحك أخيراً. وكما ضحكت هي أولاً بجهلها أو تجاهلها لكل ما كان. أعرف أنها غيرت معك أسلوب حياتها، أصبحت تتفرغ لك وتهتم بك أكثر وتلتصق بك وتراقبك، لا حباً بك، بل انتقاماً من غدرك ومحاولة للانتصار في معركة اعتبرتها مشتعلة بيني وبينها. لم تصارحك بأنها تأكدت من العلاقة، فمن خلال مراقبتها لمكالماتنا الهاتفية وبعد معرفتها رقم هاتفي رصدتك وعرفت مع من تتحدث في ساعات الليل المتأخرة. كانت تعيد ذاكرة الهاتف بعد اتصالك بي مباشرة، فأهرع للتلفون معلنة عن اسمي، لكن الطرف الآخر يغلق الخط. كان ذلك يحصل معي بعد كل مكالمة لك، وفي الغد أسألك هل اتصلت أنت بي مرة أخرى؟ وكنت تنفي.

كانت هي تتصل لتتأكد أنك كلمتني لكنها خبأت كل هذا رغبة منها للاحتفاظ بك، فهي بعمر يصعب عليها به أن تجد رفيقا مثلك. إنها أدركتْ ذلك وجعلتك تتعذب معها بحياة أقرب إلى السجن رداً منها على غدرك وخيانتك لها. لم تطلب حريتها، لأنها لا تريدك أن تعيش هانئا مع سواها. كم أشفق عليها إذ تعتبر السعادة أن تكون زوجها فقط، وهي تعلم أنك على علاقة بامرأة أجمل وأصغر منها. هل هذه هي الحقيقة ياترى أم انني واهمة بكل هذا، ومتى سأعرف الحقيقة؟

كنت تقول لي: توحدت رائحتنا، ما كنت أعلم أننا سنكتسب بعد فترة من الحب رائحة بعضنا. أنت قلتها لي، قلت ستتوحد رائحتنا بعد فترة وسنكون جسدا واحدا، وكنّا كذلك، هل كنّا كذلك حقا؟

" لو كان من المستطاع أن نوصل بالكلام ما يسهل أن نوصله بالموسيقى، لما كانت هناك حاجة إلى الموسيقى"

ربما قال هذا" تاير جاستون" أو سواه، لا اتذكرأما أنا فمعك أستنزف روحي، حتى صارت الموسيقى عسيرة علي فاستسهلت الكتابة، كبوح صارخ وواضح يصلك أسرع من معزوفة قد لا تفقهها.

موسيقاي التي أرسلها لك من أوتار روحي، موسيقاي الملتصقة بي، أنا التي ما ملكت آلة موسيقية إلا بعد أن عرفتك، أنت الذي أهديتها لي بعد أسبوع من مصارحتك بحبي.

كنت تخجلني بعواطفك وكرمك ولطفك واهتمامك بي فأحبك أكثر وأكثر.

تتنبه سومر لوجودي بعد أن استغرقت في مخاطبته رغم البعد، فتلتفت لي وتضيف:

لسنوات عديدة كنت أعزف على آلات الآخرين، أستعير آلة من هنا وأخرى من هناك. كنت لاجئة بالروح وبالموسيقى، حتى فاجأني هو بها يوما قائلاً: سأمحو كل غبن سببته لك ظروفك القاسية، أنت فنانة حقاً، وكم من فنان يختنق ظلما في العالم العربي. صار يسمع ألحاني الجديدة والقديمة. شجعني، وجمعها في قرص. طبعها لأكون فنانة معروفة، توجه لي الدعوات من بلدان ما كنت أحلم برؤيتها يوماً.

كنت أنا هدفه، كما يبقى هو في كل الأحوال هدفي.

وترها المهجور

سلمتني سومر رسالة طويلة كتبتها له بعد عودته من سفر دام شهرين دون اتصال. أرادت مني أن أقرأها وأصلح جملها لتكون جزءاً متصلاً بقصتها التي تدفعني لكتابتها وتلحّ قائلة:

كما تعرفين، أنا أجيد العزف على العود لكنني لا أجيد كتابة الجمل مثلك. كانت الرسالة كالتالي:

"عزيزي

حينما يعجز الإنسان عن دفع الألم الذي يلم به، يفقد اللغة المعتادة ويلجأ إلى أيجاد لغة أخرى أخف وطأة عليه، أو أسلوباً يجنّبهُ الإمعان في تعذيب نفسه واستعادة فتح الجروح،

لذا أجدني أكتب إليك هرباً من الألم الذي يحيطني وأنا أمام أقرب إنسان لي وأمام ذكريات عشتها ولن أنساها ما حييت.

كم كنت أتمنى أن أرسل رسالتي إليك لحناً أعزفه فتفهم، عندها يكون كلا م "جاكوب جوست"واقعياً حينما يقول:

" عندما تتوقف القدرة على الكلام، تبدأ الموسيقى"ولكن أجدني الآن مضطرة للكتابة بعد أن عجزت عن إيصال لحني إليك وانقلبت المقولة ..

أرجو أن لا تنسى أنني إنسان، ومن حق الإنسان أن يحتج أو يغضب أو يلوم أو يثور، ومن حقه أيضاً أن يرى أنه محبوب من قبل من يحب.

من حق العاشق أن يسمع ما هو جميل، ومن حقه أن يعلن مشاعره بصراحة وبدون خوف أو تحفظ . أرجو أن لا يزعجك لومي كعادتك، لكن لي الحق بأن تسمعني مهما طالت رسالتي. لطالما أخافني غضبك فصمتُ، وأغلقت الباب على ما أريد قوله. ولطالما أرّقني هذا الصمت لكنني كنت دائماً أفضلك على نفسي. كنت أتحمل العذاب كي لا تغضب وكي أحتفظ بهذه العلاقة أبداً، ولأنك دائما تهرب من هذا الحديث فأبقى بعذابي وإشكاليات هذه العلاقة التي لم تدع لي مجالاً لإيضاحها لك ولإيضاح أفكاري المجهولة لديك عنها . كنت ولازلت كما سمعتك قبل سفرك، تهرب من الحديث وتقول وداعاً معلناً إنهاء المكالمة.

زوجي العزيز

أحببتك حباً لو وزع على هذا العالم المتناحر لأوقف الحروب وجرد الناس من السلاح. أحببتك كأعز ما يلتقيه المرء في طريق الحياة الطويل، كمن لم ير سوى وجهٍ واحد ولم يسمع سوى صوت حبيب وحيد . كنت أحبك وأنا في غمرة الإحساس بالذل، ولأنني لأول مرة في حياتي أرضى بموقع المرأة الهامشية، غير الأثيرة، كان هذا يعذبني ويكرهني الحياة أحياناً . كان إهمالك لي واستهانتك بعواطفي كامرأة وكعاشقة يضعني بين المطرقة والسندان، المطرقة التي تدق عليّ من الجميع ومن نفسي، والتي لن تهدأ من أنني لك، وأنك لست لي، المطرقة التي تطرقني بها أنت دائماً بتكرار جملة "إنني أحب زوجتي الاخرى"، وأرى أسفارك معها وتوقفك عن الاهتمام بي كالسابق، وما إلى ذلك، وفي الوقت نفسه الذي أتوق به لسماع كلمة منك ألمس من خلالها الحب والاعتزاز.

وبين السندان الذي هو حبك ومشاعري نحوك والتي أشعر أنها لا يمكن أن تنتهي إلا بتوقف قلبي المتعب. كنت أروض نفسي شيئاً فشيئاً

على قبول هذا الوضع، وحين أعتاد عليه بعض الوقت وأشعر بالسعادة، يفاجئني بُعدك الروحي عني، وأن هناك ظروفاً وضغوطاً ووو.

أبكي أمامك متوسلة منك إطالة لحظات السعادة. أستجدي منك الحياة. أطلب منك إبقاء قلبي المسكين في هذا الظل البسيط من الفرح. كنت تقسو وتبتعد. كنت تسخر و تتجبر، وأنا الوحيدة، الغريبة في هذا البلد البارد والذي يجهلني وأجهله، كنت أحاول الانسجام، وأحاول التحدي، وأحاول التعلمّ، وأحاول إعطاءك الحب من روحي ودمعي ودمي. وكنت أناضل لا لشيء محدد أو هدف يدور في ذهني بل لإرضائك فقط لأنني أحبك.

تعاملني كجارية أحياناً، لكنك تتراجع أمام قدرتي الهائلة على الحب والتحمل والعطاء، وأعاملك كسيد لا شريك له. كنت أريد أن أمنحك كل ما يريده أحسن رجل في العالم، بل وأراك كذلك ولو على حساب كرامتي. ما كنت أريدك أن تفقد شيئاً أحببته في حياتك. حاولت أن أسقط المقولة التي تقول أن لا أحد يستطيع امتلاك كل شيء. كنت أريدك أن تمتلك كل شيء ولأنني أفضّلك على ذاتي وأرى أنك تستحق ذلك، رضيت أن أبقى في حياتك هامشاً لا تهتم به إلا بقدر ما يدخل لك البهجة أو المتعة، غير باحثة عن نفسي ومستقبلي، ضاربة بكل المغريات الاتية من سواك مهما كانت، ما فكرت يوماً بالضغط عليك، ولا طالبتك بأن تكون لي وحدي، ولو أن هذا من حقي كعاشقة.

لقد تفهمت ظروفك وضعفك أمام الماضي. كنت دائماً أريد أن أوصل لك رسالتي المختلفة بالحب، ولأن الناس اعتادوا على الحب الذي يتبعه التملك أو الزواج التقليدي، لكني رأيت أن هذا الارتباط قد سقط عبر قرون من التجارب فأنجب العقد النفسية والكذب والخداع والهرم المبكر.

كان لي ديني الخاص وفلسفتي الوحيدة المستهجنة من الجميع، وما كان الجميع يوماً على حق حينما تكون الأفكار الجديدة والمبدعة قد تدفقت من عقل ما، لتضع أساساً لتفكير جديد قد لا يكون هو الأفضل والأكثر بقاءً، لكنه ربما الأكثر صدقاً.

كان حبي لك دائما ومازال هو للحب ذاته، ليس وسيلةً لزواج أو مصلحة أو مراد، وهذا سبب كاف لتقديس هذا الحب الذي بقيت ماضية فيه ومتحدية به أصعب الأحوال.

كنت طوال سنوات معرفتي بك أحاول أن أعطيك أقصى الحب واللذة ولو على حساب رغبتي وظروفي وصحتي، ولأن هذا الحب وهذا التفاني يُقابل باللافهم واللا اهتمام، كنت أتعذب وأبكي بغير علمك. كنت أحاول دائما وأنا معك أن آتي بما يضحك وما يلطف الأجواء، ويا ويلي لو شطح ذهني بشيء من كرامة أطلّت في حديثي، إذ كنت تقابلني بالعناد وكأنني بنت هوى أو امرأة بلا كرامة ولا مكان لها في حياتك، بل كأنني لست المرأة التي أحببتها والتي كنت تتمنى أن تمضي معها إلى أبعد مما كان.

لو كنت متفرجا على نفسك بموضوعية ليوم واحد، ولو كنت قد رأيت العلاقة كفلم سينمائي، لبكيت ألماً مما عانيته بسبب اضطهادك لهذه العلاقة وتعذيبي بأكثر ما يكون العذاب والشعور بالذل والانسحاق.

نعم ياعزيزي، كنت تسحقني بقدميك بعصبية، وأواجهك بالحب والرغبة في الاحتضان. كنت ترفضني، وأركض وراءك باكية. تقسو علي وأسرع لاستغفارك وأنا المجروحة والمعتدى عليها. كنت ترى حبي لك ضعفاً وأراه مقدرة على العطاء.

كنت في كل الأحوال خاضعة لك، منتمية اليك، أبحث عما يفرحك ويدخل لقلبك البهجة والسعادة مع بساطة وسائلي وضعف إمكانياتي وقلّة حيلتي.

وكنت انت منتمياً لسواي، بعيداً عني، وحين أعاتبك، أجد أن الرد أقسى إذ ليس أمامك سوى حل واحد هو إنهاء العلاقة وأنت تدري بأن هذا الحل يمكنه القضاء عليّ وبسرعة و كأنه ليس من حقي أن أكون مهمة بالنسبة لمن أحببت، وليس من حقي أن أكون عزيزة مكرمة بعلاقة أعلم أنها خطرة والخاسر الوحيد هو أنا فقط. ولأنني امرأة شرقية، تكون الخسارة أفدح إذ هي من سمعتي ووجودي بل واحترامي من قبل الجميع.

آه لو عرفت أيام السهر الطويلة وعرفت الإحساس بأنك تحب من يمنّ عليك بسؤال بالتلفون ويعتبره فضلاً يسقط أمامه كل عتب أو لوم.

"أن تحب وتكون محبوباً فتلك الذروة".

قالها فنسنت فان خوخ.. حتما قالها بحسرة بعد هزيمته بالحب، وها أنا اليوم مهزومة مثله.

لو عرفت ياعزيزي معنى أن يقول لك حبيبك إنني أحب سواك ويتصرف بما يوحي لك أنك بالنسبة إليه ليس سوى شيء للمتعة، وحين يخاف على حبه الآخر يتخلى بسهولة عنك دون الالتفات لدموعك وحسرتك وقهرك.

لو تعلم ما معنى أن يسافر حبيبك مع سواك ويتركك للوحدة والحرمان دون أن يجهد نفسه من أجل إدخال الفرح البسيط بمحادثة تلفونية أو كلمة عذبة تبقي قلبك نابضاً وبدون مرض، أو ببطاقة بريدية

تجعلك تتوازن وتبقى فرحاً لفرحه ولسعادته. لو علمت ما معنى أن يهجرك الحبيب وهو يعلم مقدار حبك له وولعك به مثلما يعلم عنوانك وتلفونك وقلقك عليه.

لو تعلم ما الأفكار التي تنتابك وتعذبك حينما لا تجد سبباً مقنعا لكل آلامك مع من تحب وأنت تعطي ما تستطيع من الحب وأكثر...

لو تعلم معنى أن تكون محبا صادقا وتلقائيا سلساً أمام حبيب غامض غير مفهوم لك، بل هو يستكثر عليك الصراحة في كل شيء..

مؤلم أن ترى نفسك حلماً لآخرين لا تحبهم وغير مهم لمن تحب. لو تعلم قدر الألم الذي يلم بك حينما تكذب على نفسك وتعادي المنطق والعقل لأنك تريد أن تصدق من تحب لتبقى معه حتى الرمق الأخير، وأنت تعلم علم اليقين أنه ليس كما تريد. والمؤلم أكثر من ذلك أنك تشجعه على استغفالك وتظهر له التصديق كي لا يُجرح بل ليبقى معك ولتبتهج ولو قليلاً بدفئه المؤقت درءاً لبرد المنفى وقسوته ومتاهاته..

لو تعلم كم هو مؤلم أن تتمسك بحبيبك وتحاول تأجيل لحظات متعة الجسد، ليبقى معك أكثر إذ أنت تخاف أن يغادرك بعدها، فهو يصبح بعد أخذه قسطا من الجسد، بعيداً، غير حميمي بالقدر الذي كنت تراه منه. ولو تدري كبر الفجيعة حين تلمس لمس العقل والعين تغيّر حبيبك وترى فقدان الحب يوماً بعد آخر. ستذوي، وتحتار، وتجن.

خطيئتك يا صديقي انك تصورت نفسك متفوقاً على جميع من حولك، وخطيئتي أنني ساهمت في ذلك حباً مني بشخصك. خطيئتك أن ثقتك بقدراتك لا تحد وهو مصدر الارتباك بيني وبينك، واعتقادك أن تعلقي بك ضعف وتردي وليس وفاءً ورقياً.

أعتقد أن لي الحق بطرح كل ما يعذبني حتى وإن كان بنظرك كفراً فمن حق الإنسان- كما جاء في اللائحة العالمية لحقوق الإنسان- أن يقول ويكتب ما يشاء ولو كان مخالفاً لأفكار الغير.

أتتذكر آخر يوم قبل سفرك، كنت تريد توديعي بعشرين دقيقة مثل الأغراب، وأنت تدري ما معنى ذلك، وما الحزن الذي سيسببه لي. كان عليّ أن أتوسل، وأتعذب، وأحاججك كثيراً لتبقى . كأنك قد وجدتني مرمية في الشارع وأشفقت عليّ لأكون شيئا تلزمه متى شئت وترميه متى شئت وبدون سبب أو حسب مزاجك.

سأحدثك عما حصل لي في غيابك، وذلك حين تعبت وصرت أصرخ ألماً لا أدري موضعه من جسدي. لقد ذهبت لطبيب نفسي طلباً للشفاء، إذ فقدت الوسيلة للاتصال بك بعد مسلسل طويل من الاتصالات التلفونية والبحث من خلال من أعرف ومن لا أعرف، وتلفون أخيك الذي كتبته لي ونقلت ارقامه بشكل خاطيء.

حين يئست قلت يجب أن أعالج نفسي من هذا الداء. سألني الطبيب كثيراً، أخبرته عن كل شيٍ عدا أسمك أو من تكون، بكيت عندها كثيراً، بل انهارت أعصابي وها أنا ذي مريضة حتى اليوم . عجب الطبيب من حبي لك ورد قائلا:

إنك إذا تفانيت في الحب أكثر سوف تموتين لأنك إنسان وليس ملاكاً، والذي تفعلينه فعلاً ملائكياً غير معترف به في ساحة الواقع، بل يوصف على أنه غباء وبلاهة، وأن هذا الإنسان الذي تموتين به حباً، لا يحبك بل يستغلك، فأنت إمرأة مثيرة وفنانة يعشقونها الرجال. كان الطبيب يحاول اقناعي بخطأ العلاقة قائلا:

لو كان هذا الرجل يعرف الحب لعاش معك وأحبك لأن الإنسان يعيش مرة واحدة، وهذا ما يفعله آلاف الناس يومياً حتى وإن كانوا متزوجين من أمير أو ملك، أما هذا الرجل فهو لا يعرف الحب حتى لزوجته لأنه يخدعها ويخدعك. قلت للطبيب إن عالمكم غير عالمي ومفاهيمكم بالحب ليست مفاهيمي.

لقد قال لي عنك أشياء أخرى حسب معرفته بالناس وتحليلاته في كشف دوافعهم، خرجت منه منزعجة ولن أذهب له مرة أخرى.

تذكرت أن أسألك اليوم، وأنت قد طلبت مني اللقاء، لماذا تريد اللقاء بامرأة هجرتها أكثر من شهر ونصف ولم ترد أن تعرف ما حل بها؟ لماذا تريد اللقاء بامرأة لا تحترم قلقها عليك؟.

حتى عندما اتصلت بك آخر مرة، كنت تحاول إنهاء المكالمة فأحسست أنا بالجرح لأنك لم تفرح بي كما كنت تفرح بمكالمتي سابقاً.

ولماذا نلتقي إذا كان اللقاء بدون حب؟ لماذا وأنا لا أؤمن بلقاء رجل لقاءً جسدياً بدون حب؟.

لكنني رغم ذلك نسيت كل ما قاله الطبيب واحتقرت أقواله مقنعة نفسي بضرورة الاستقلالية في الرأي كي أجد لك العذر، وصرت أبرر لك برودك معي وأقول قد تكون مع اخرين حين هاتفتك ولم تستطع الحديث معي. دافعت عنك كثيراً أمام عقلي وسامحتك أخيراً، ثم قلت لنفسي، لو اتصلت بي بلهفة ولمست أنا الحب من خلال حديثك معي على التلفون، أو لمست ما كنت أراه فيك سابقاً من لهفة حقيقية للقاء وبحب، سوف لن أعاتبك أبداً وسأنسى كل زعلي، وسألقاك. قلت لو عدتَ واتصلتَ بي قائلا: حبيبتي أحتاجك كثيراً وأريد لقاءك وبأن

الرحلة بدونك ليست جميلة وبأنني تمنيتك هناك لأنك أحببت هذا البلد، خاصة أنكِ الان كمن لا وطن له، وقَد استمتعتِ كثيراً حين سافرتِ معي.

لو قلت ذلك ولو مجاملة، لنسيت عتبي ولهيأت نفسي لأجمل لقاء بعد فراق طويل، لكن الذي خيب ظني هو أنك تتحدث معي عن موعد لقاء وكأنه لقاء عمل. لم تتحدث عن المشاعر والحب، وكأنني لست امرأة وليس ما يربطني بك هو الحب دون سواه، وكأنك تريد حقاً لك تطالب به بدون أدنى ملاطفة أو كلمة شوق.

سابقاً كنت حينما تعود، تتصل بي وانت في المطار بعد، كنت تتحدث معي في التلفون كثيراً وبمواضيع تخصني وتخصك، كنت لا تنسى اهتماماتي لتسألني عنها.

كم تمنيت أن تقول : حبي آسف على ما سببته لك من القلق وآسف على أنني تركتك وحيدة متألمة، وأعاهدك أنني سأعوضك عن هذه الأيام بأجمل من هذا، لكنك أبداً ما فكرت بذلك. وعندما أعاتبك تقول: مع السلامة. معلنا رغبتك بإنهاء المكالمة.

ورغم ذلك قلت لك إنني مشتاقة إليك لكنك لم تبادلني حتى هذه الكلمة بمثلها.

لطالما أقنعت نفسي أنك تحبني، أما الآن فعقلي يأبى التصديق فما العمل وأنت بحديثك معي في التلفون، وأثناء طلبك اللقاء، تعاملني بجفاء. وتريد مني أن أسامح وأصدق حبك. أنت لم تمنحني الحق بسماع كلمات الشوق منك، فإلى أين أنت سائر وما الذي أنت فاعله معي؟

قد أكون مخطئة بحقك لو أن هناك معطيات وظروف لا أفهمها، لكن إن كان ذلك واقعا فمن واجبك كشف النقاب عن ما يوجعني ويدخلني بدوامة لا تنتهي، فمن أين لي بمعرفة ظروفك وأنت لا تحدثني عن أي شيء في حياتك وكأنني من الأعداء.

دعني لفترة أستعيد بها نفسي وصحتي وسيكون لنا حديث آخر قد يكون أعذب وأجمل بكثير، وقد تكون لنا وقفة أخرى لصالح الحب، المهم أولاً يجب أن أكون في عافية لأناقش أكبر مشكلة وأعقدها في حياتي، وكي لا أجرحك أو تجرحني بأكثر مما فعلنا، دعني أرى تصرفك معي إنسانياً لأقتنع بما كنت قد اقتنعت به سابقاً.

كنت لك وبأمرك أبداً، لك روحي وجسدي متى تشاء. وكم كنت قبل أن تتغير رائعاً وحبيباً حميماً وصديقاً ووطناً وأهلاً وسنداً، ولن أنسى لك ذلك ما خفق قلبي، لقد أحببتك في كل أحوالك، قوتك وضعفك، شجاعتك وجبنك، في كل ظروفك قلت لك إنني معك مادمنا بهذا الحب الممتع والرائع، منحتك حبي دون أن أنتظر مقابلاً، ولم تسأل نفسك يوماً ماذا تريد منك من تمنحك كل فتنة جسدها وحلاوة روحها سوى الشعور بالحب؟.

سومر"

... في المساء جاءت سومر عجلة لتأخذ الرسالة بعد تصحيحها وصياغة جملها بشكل افضل مما كتبته. لم تستطع الدخول لشقتي فطفلتها تنام وحيدة، كما أن سومر نفسها أرادت أن تنام مبكراً لتستعد للعمل في الصباح. وفي اليوم التالي اتصلت بي ظهراً من مكان عملها وهي تغص بعبرتها لتقول لي:

تصوري أعطيته الرسالة في العمل وتركته، لم يلحقني، ولم يتصل بي، ولم يتأسف.

عادت سومر بعد الدوام لتقول لي وهي تلوب كعادتها حينما تبوح:

انتظرت رد فعله الذي لم يصلني، فلم أحتمل واتصلت به، فإذا به يقول ممثلاً دور المفجوع :كم أنت تتحملين، إنها محنة كبيرة وأنا لا أدري ماذا أقول لك، أمر صعب، مؤلم ولا يحتمل، وكم أنا غافل ولا أدري بما تعانين. لم يقل آسف، ولم يقل شيئاً عن معالجة الموقف، بل لم يقل كلمة حب واحدة، كان يواسيني بدون اتخاذ موقف وكأنني فقدت عزيزاً يعجز هو حتماً عن إعادته إلى الحياة. كان لا يريد حتى أن يعطيني أملاً، بل تصرف كزارعٍ لليأس بقلبي لأعيش معه كحلم ممنوع على عيني أن تراه، فكيف أتصرف إزاءه سوى أن لا أنام؟

كانت سبعة أعوام من الحيرة والأرق، أنام ساعتين باليوم أو ثلاث ساعات متجملة في قول الخيام الذي قصم ظهري: فما أطال النوم عمراً ولا قصّر بالأعمار طول السهر

وهاهو الأرق يتعبني فأشحب، وتتغير ملامحي فأبحث عن الأقنعة ومقويات البشرة مع أنها لا تفيد مع قلة النوم والإرهاق النفسي، والتهام الاقراص المهدئة.

ثم تخاطبه عاتبة عليه وهو الغائب:

وأنت تنام حتى الصباح بلا حراك وتصحو نشيطاً كأنك كل يوم تبدأ حياة أخرى وعمراً آخر.

هاأنت منذ أن عرفتني ولأنني أصغرك بكثير صرت تلصق كل مساء لصقات لتداوي بها تجاعيد وجهك.

أيُصدق أن امرأة جميلة تحب التجاعيد بوجه من أحبت !. نعم تقول وتغني سومر عند عودتها إلى البيت عازفة على عودها باكية.

في كلِّ ساكنَةٍ أراكَ وكلِّ ذكرى تحتويني. ليست كما الأيام إنّي اليوم فيك زهدتُ

وحدّتُ للطرف المعاكس. جسدي بلا شوق إليك وكل أحلامي تلاشت.

كيف أحبك الآن وقد تخليت عن الموت معي، غسلت ذاكرتك سريعاً، وأنا النازفة بك؟ كم زيّنت جروحي بأكاليل الانتظار. إهتزت الأرض الآن واصفرّت الأشياء فأعجز عن تلاوة صكوك الغفران لك. لماذا يا حبي، بلحظة إغفاءة على صدرك، خنت غفوتي؟ لماذا قطعت أشجار جنتي المنتظرة؟ لا ألوان بعد الآن، أنا امرأة الحرمان والموت المنتصر، هل أزهد بك اليوم، هل أقول لك: لستَ أنت التجاعيده جميلة، ولست أجمل المخلوقات، ولست حبيبي؟

لكنها حين تستفيق من سكرتها في اليوم التالي تنسى كل ماغنته على عودها من نسيانه وتحبه من جديد.

وترها الهائم

اليوم أقف أمام إشارة المرور أنتظر الضوء الأخضر للعبور، لكنه لم يأت. الضوء الأحمر باق وأنا نسيت نفسي مع التفكير بك وبدهشتي من تعلقي بحبك لهذا الحد. لم أخرق الإشارة فأنا غريبة وإذا عبرت الشارع متجاوزة الضوء الأحمر سينظر الناس لي على أنني متخلفة لا أعرف ولا أحترم النظام، آتية من بلدان التخلف أو العالم الثالث، أي انسان من الدرجة الثالثة حسب التصنيف اللا إنساني الذي يؤلمنا في زمن القوة.

أقف وحيدة أمام الإشارة فالشارع فرعي وقليل المارة، أقف ساهية عمّا يحدث غير منتبهة للوقت. أقف وأتمنى أن تتوقف الحياة لبعض الوقت لعلّي أستطيع الإجابة على تغيرك عليّ بعد أن كنت مجنوناً بي، كنت تكرر دائماً:

حبي أنا لا أصدق أنني أجلس مع أجمل امرأة شرقية مثقفة ورائعة وفنانة وفوق ذلك اسمها سومر. سومر الحضارة الأولى. كنت أظن انه لا توجد امرأة شرقية تحمل كل هذه المواصفات من الرقة والجمال والرقي والقدرة على الحوار بمستوى عال. اسمع أنا ذلك فأنتشي، وتزداد ثقتي بك وبنفسي وبالأيام المقبلة. أيعقل أنك تغيرت بدون سبب مني وبتأثير الأخرى عليك ولا أدري كيف؟

كنت تحدثني عنها وعن تحاوركما. كنت تخبرني كل شيء عن حياتكما، حتى ماذا تأكلون وتتكلمون يوميا، ولكن بعد ان تغيّرت عليّ صرت لا تأتي على ذكرها وإن حاولتُ أن أسألك عنها، تتهرب، وتحاول الانتقال الى حديث آخر، أو تمتدحها، في حين كنت سابقا تقارن بين سلبياتها وإيجابياتي...

كاذب أنت، ومجنون قلبي الذي لا يرعوي عن حبك ..

و تقول لي بكل جرأة - حتى اليوم وبعد مرور سبعة أعوام على علاقتنا- بأن لا ثانية لك في هذا العالم، وحينما أسألك هل مرة من المرات خلال علاقتي بك لمست أنني كذبت عليك؟ تقول:

- أبداً . وأسألكَ:

- هل اكتشفت بي ما يعيب. فترد :

- أبداً، وتقسم قائلاً:

- لقد حاولت أن أبحث عن نقص بشخصك لأنساك وأبتعد، فلم أجد . أنت امرأة لا ثانية لها . وربما كان هذا سبب قلقي معك بالعلاقة وسبب ارتباكي، فأنا لم أر امرأة لم تمنحني فرصة أيجاد خطأ لها مثلك، ربما هو جبني وقوتك، أخطائي واستقامتك جعلتني لا أعرف التعاملَ معكِ، وتردف ضاحكاً:

ها لقد وجدت نقصاً بك، أنت نكدية.

نعم أنا نكدية لأنني أبكي رغبة مني بالسفر معك بعد أن افتقدت تلك المتعة، وها أنت منذ خمس سنين تأخذ معك كل عام زوجتك العلنية مرتين بالعام، تأخذها لعالم عربي دافئ أنا أحبه وأولى بأن أستمتع بشمسه، تتركني أتلوى من الحرمان، وحينما أحتج أكون نكدية. أنام وحيدة مع البرد والرغبة القارصة، وأنت تنام معها وتداريها كأثمن شيء عندك. كيف لا أكون نكدية وأنت تأتيني لتفرغ ما يضغط على أعصابك وتذهب إليها مبتسماً سعيداً وتقول لي إنك ضرورية لاستمرار حياتي الزوجية، وبكل قسوة ولا مبالاة. أوبعد ذلك تريدني أن أكون لك وأعيد لك ليالي ألف ليلة وليلة كما كنت تسميها؟

وترها المُغتَصب

أقف مرة أخرى أمام إشارة من إشارات المرور، الضوء الأحمر باق وأنا واقفة منذ عشر دقائق، غريبة محرجة حتى من تلقائية التصرف بالانتظار الذي طال، ولأنني غريبة لم أدع مجالاً للشك بصلاحية الإشارة..

سخرت من نفسي بعد أن مرت عليّ كل هذه الدقائق، حتماً تكون الإشارة معطلة وواقفة على الأحمر، لتحرج الغرباء أمثالي أو لتعطيهم الفرصة للاسترخاء والعودة إلى بلدانهم ولو للحظات.

وقفت أمامي في الجهة الأخرى بانتظار الإشارة الخضراء، امرأة تدفع أمامها عربة أطفال من النوع الكبير، تجلس بها طفلة ذات رأس صغير جداً، أصغر من الرؤوس الطبيعية للبشر، طفلة مرتبة ونظيفة، يضعون في عربتها العاباً بألوان جميلة، تنحني المرأة بين الفينة والأخرى لتقبل الطفلة مانحة إياها الشعور بالأمان ثم تدفع العربة عابرة الشارع.

ذكرتني هذه الطفلة بشبيهة لها في مدينتي القديمة، الشبه بينهما في العاهة فقط، اما الظروف فمختلفة تماما، فأين حياة هذه من تلك الصغيرة التي تجلس على عتبة منزل بائس مع أخيها الذي يشاطرها صغر الرأس، طفلان معاقان، رثّان، فقيران، لا يعرفان طقوس اللعب وألوان الأطفال، محرومان من كل شيء، وحينما تكون في يديهما قطعة خبز يبتهجان ويتحدثان مع المارة بفرح:

- لدينا الخبز، نأكل خبزاً.. وكأن هذا أعظم الأماني في بلاد النفط والنخيل والخير الوفير.

طفلان يلاطفهما الناس بتصغير أسمائهم كريّم ودويدة..

دويدة التي قتلوها غسلاً للعار، وأي عار أكبر من قتل بريئة ومتخلفة عقلياً؟

لقد قرأت خبر قتلها في مجلة تدافع عن حقوق المرأة، كان الخبر مدهشا ومبكيا في آن وها انا أقرأ في المجلة التي وصلتني قبل أيام وأعيد صياغة الخبر في ذهني أنا التي عرفت تلك المدينة:

"في شهر شباط 2001 وفي مدينة بجنوب العراق، تبعد بعض الكيلو مترات عن أور المدينة الأثرية الحضرية، والتي تعتبر من أقدم المدن في تأريخ البشرية وأولى الحضارات، هناك قُتلت شابة متخلفة عقلياً غسلاً للعار، إذ وجد جنين في بطنها".

منذ زمن بعيد، والنساء يقتلن غسلاً للعار، صغيرة كانت أم كبيرة، عاقلة أم معتوهة، مريضة أم سليمة، عمياء أم مبصرة، كلهن سواء أمام هذا الغسل للعار المفتعل.

أتذكر صور القتيلات وهن كثر، دائما اتخيلهن اثناء قتلهن، اتسائل مع نفسي : ماذا كانت اخر كلمة تلفظن بها؟ وهل حاولن الدفاع عن انفسهن؟ وكيف يقتل الانسان إنسانا آخر؟ خاصة أن القتلة كانوا من أهالي الضحايا. كانت هذه التساؤلات لا تفارقني، كيف يمكن أن يقتل الرجل ابنته او اخته، أو أمه؟ أرتعب، فتتوقف ذاكرتي عند الرعب الذي هزني وأنا في الثامنة من عمري. حين سكنت أمام منزلنا عائلة من أب وأم وطفلين يسكن معهم شاب يبلغ الخامسة والعشرين ربيعا، كان اسمه "يوسف" وهو الأخ الأصغر لصاحب البيت، لم يتزوج بعد، وسيماً، يعمل كموظف في إحدى الدوائر الحكومية. كان "يوسف" شاباً هادئاً ومؤدباً

كما سمعت عنه، ومن خلال أحاديث أهلي عرفت أن لهذه العائلة أصولاً معروفة ومن عائلة شريفة وكريمة، لذا توطدت العلاقة معهم بسرعة فسمح أبي لأمي ولنا بالذهاب لبيتهم. ابنتهم "إيمان" بعمري، في الثامنة، وأخوها "أشرف" كان يصغرها بعام، مما سهل وسرع العلاقة بيننا وبينهم. كنا نلعب معاً في بيتنا أو بيتهم كبقية الأطفال، صار أهل "إيمان" يدعون أهلي كثيراً للسهر عندهم ومشاهدة برامج التلفزيون معاً.

"إيمان"مهملة بدراستها، طلبت أمها من أمي أن أساعدها بالدراسة وكتابة الواجبات المدرسية، هي تتعلم ببطء وأتفوق أنا.

تكرر ذهابي اليومي لبيتهم. كل يوم أنهي الواجبات المدرسية مع "إيمان"، بعدها نجلس أمام التلفزيون. غالبا ما نتابع البرامج بمعية يوسف الذي يفضل إطفاء النور لتكون صورة التلفزيون أكثر وضوحاً، ولتصبح الغرفة مثل السينما كما يدعي.

ابتدأ فصل الرعب الذي تعرضت له منذ الطفولة، كان يحملني ككل الأطفال ويجلسني بحضنه، يقبلني كثيراً ويدس في فمي قطع البرتقال والتفاح الذي يقدمونه لنا باستمرار. حسبتها بداية الأمر مشاعر أبوية، كنت أحبه وأسرع للارتماء بين يديه حتى ذاك اليوم الذي أدخلني بدوامة أجهلها تماماً، يوم امتدت يده لعصفوري ووضع على قلبي رعباً آخر لا يحتمله طفل إلا إن كان أنثى في مجتمعنا، رعباً يزيد كلما يداعبني ويلهث. كان الظلام يغطي فعلته، والأطفال مشغولون ببرامج التلفزيون، وأنا لا أدري ماذا يريد مني وكيف سأتصرف مع هذا الوضع. لم تكن لي رغبة بفعله هذا، ولم أكن أعرف كيف أوقفه وهو كبير ومحترم بنظر أهلي الذين يحبون عائلته. كنت أحاول أن أنزل من على حضنه

وأنادي أخي للذهاب إلى منزلنا تارة، لكنه يتمسك بي بقوة، يغري أخوتي بالانتظار لمشاهدة تمثيلية جميلة ستعرض بعد قليل.

يمد يده تحت ثوبي ويدخل ملابسي الداخلية، يداعبني ويلهث ويقبلني حتى يخمد. لم يكن لدي أي تفسير بما يقوم به، اعتقدت أنه مريض لأنه كان يتنفس بشكل لم اعتده. كنت أخشى أن يعديني، أقطع أنفاسي رعباً وخوفاً من العدوى حينما يزداد لهاثه، أصابعه تمتد ما شاء، أشد حيلي لأتخلص دون جدوى. مرة أهرب من بين يديه بحجة الذهاب إلى التواليت ثم اخرج دونما عودة، ومرة أنادي بأعلى صوتي أن اشعلوا الضوء وقع مني مشبك الشعر وأريد البحث عنه.

صرت أتهرب من الذهاب لمنزلهم. تشكو"أم إيمان" من غيابي وعدم مساعدتي ابنتها، تضغط عليّ أمي للذهاب، أخاف أن أصارحها، ترغمني على مساعدة إيمان، أذهب الى بيتهم، يتكرر المشهد..

أتحجج بكسل "إيمان" وعدم جدوى مساعدتها، تلح أمي على الذهاب الى بيتهم، أحاول أن أتفوه بما يحصل، أتخيّل الشرر كيف سيتطاير من عيني أمي لو سمعت ذلك، أتذكر ضربها المبرح. أصمت وأذهب الى بيتهم.

يضيق الحصار علي، أحاول الجلوس بعيدة عنه كي لا يعاود لعبته معي، التصقُ بأخي لأبعده عني، لا أدري كيف يجد العذر ليحتضنني ويحملني.

صار يبتدع طريقة للوصول ألي وهي أن يلوّح جميع الأطفال بالهواء وهم يكركرون ضاحكين ليحملني أنا آخر طفلة ثم ليحتفظ بي بحضنه وتستمر لعبته بي.

كنت أتساءل عن فائدة ما يفعل؟ لم أجد الجواب.

أخيراً انتقلت العائلة هذه الى بيت آخر، بعيد عن بيتنا فانزاح الكابوس الثقيل عن كاهلي.

بعد وقت عرفت كل الأجوبة على تساؤلاتي بخصوص ماكان يفعله يوسف.

عرفت الحقيقة وعرفت تهالك الناس على ذلك العضو من الجسد حينما أدخلت شيئا من الملاءة في عصفوري وتمددت على بطني وتحركت بما يلذ لي جيئة وذهاباً.

صرتُ أتذكر أصابعه، قبلاته وعواطفه نحوي، أنفاسه الحارقة. بقي يوسف بطل أحلامي حينما كبرت لفترة طويلة، ومنذ ذاك الوقت عرفت أن الجزء المخفي تحت لباسي يستطيع أن يشعل حروباً، ومعارك، وثارات، وعرفت أن الناس يخفون عني شيئاً هاماً.

أين يذهبون، أنا لهم بالمرصاد. كل يوم أمارسها قبل النوم. كل يوم أستحضر ما يثيرني وأستمر حتى أخمد. كل يوم حفلة لي بسريري، مملكتي الحبيبة، وددت أن يطول الليل لأستمتع بعرسي مع ذاتي أكثر وأكثر. أدخلت أساليب أكثر لذة، وأنّى لهم أن يعرفوا سرّي.

كيف عادت لي ذكرياتي وأنا أقرأ خبر قتل الفتاة المسكينة، الفتاة المتخلفة عقلياً.

إذن لو كانوا علموا بما يفعله يوسف بي لقتلوني. ألم يقتلوا الكثيرات غيرها، عدالة ونورية، وكاظمية، وكريمة،ووو كثيرات؟

إلى متى يبقى مصير هؤلاء النساء غامضاً في الغالب يلفه السحر والمجهول؟

اليوم أسترجع هذا القهر الأبدي، علني أقوى على الدفاع عن نفسي أمام عدم اكتراثك بما يصيبني من عذاب يومي بحبك. أتذكر اليوم كل سؤال لم أجد عليه جوابا مقنعا من أحد.

أتذكر كل رعب بطفولتي. فأول فلم رعب شاهدته بحياتي، لم يكن فلما من إخراج مخرجين في هوليود. كان حقيقة في تلك المدينة الصغيرة التي تقهر النساء، وذلك عندما سمعت أن شحمة الخنزير تستطيع أن تفرق بين الرجل وزوجته، وشحمة الخنزير تستطيع أن تكون سحراً لنشر البغضاء بين البشر، فهي المسؤولة عن طلاق "ذكرى" معلمة اللغة الإنكليزية بمدرستنا، ابنة أغنى عائلة بالمدينة. حين تم زفاف ذكرى إلى ابن عمها الساكن في بيت قريب لبيت خالتي، حيث بقعة الأرض التي شكلت المسرح الأول للعب الطفولة والصبا، عادت إلى بيت أهلها طالبة الطلاق قبل انتهاء مراسم الزفاف مباشرة، وقبل ان يضمهما سقف ويغلق عليهما باب.

قال الناس إن هناك من وضع لهما شحمة الخنزير تحت السرير فلم يستطيعا البقاء مع بعض ليلة واحدة. شاع خبر طلاق ذكرى و"ذياب" بين الناس كالنار بالهشيم، كلٌ يتقول حسب توقعاته، وكل يطور الخبر حسب إمكانياته الأدبية وحدسه، أو حاسته المخابراتية.

قالوا:

- إنها معقدة ولن تسمح له أن يمارس معها الجنس.

- إنها باردة لا تستطيع الانسجام مع رجل فهربت منه. آخرون قالوا:

- إنها لم ترض بما قدمه لها من مال وربما لم يعجبها البيت الذي أنشأه لها وهي المدللة ابنة الأثرياء..

لم يقل أحد منهم شيئاً عنه مطلقاً. اللوم دائما يطال المرأة، وشحمة الخنزير كانت بطلة الفلم، إذ هي الجواب على كل حيرة حين يضيع الجواب المقنع والمنطقي.

كانت المدينة تتعرض حتى نهاية ستينات القرن العشرين- أحيانا- لغزوة عابرة من خنزير بري يدخل إلى المدينة المحاطة بالريف والقريبة من الصحراء، فتستنفر المدينة كلها، وتجد من يصرخ بالشوارع بصوت عال وينادي على الناس ليحذروا:

خنزيييييييييييييير..خنزيييييييييييييير

يتكرر النداء من أصوات عدة، تدخل النساء أطفالهن البيوت ثم تُغلق الأبواب، وبعد أن يطارد الحيوان من قبل شجعان المدينة، ويقتل برصاصهم، يأتون بالأطفال ليبولوا بأذن الخنزير كي يفشل سحره، وسحر شحمه المتوقع الحصول عليه من قبل العجائز الساحرات اللواتي يأتين ليلا بعد أن ينفضّ الجميع، يقتطعن شيئا من شحمه لاستعماله بعمل الشر والبغضاء بين الناس مقابل المال ممن يريد الإيقاع بمن يكره.

لم يجرؤ أحد من الناس على السؤال عن سبب الطلاق من أصحاب الشأن مباشرة. "ذكرى" لم تقل سوى أنها لا تريده، حتى لأهلها لم تقل شيئا. كان اشمئزازها منه يدعو الجميع للإستغراب والتعجب.

حاول " ذياب" كثيرا، بل فعلَ مايشبه المستحيل لاسترجاعها، لكنه لم يفلح، ولم يعرف أحد أي شيء عن سر الطلاق المفاجئ.

أتذكر معلمتي "ذكرى" التي أصبحت عصبية أكثر حينما تعطينا درساً باللغة الإنكليزية. كانت لا تصبر على أية طالبة تخطيء بالجواب، فكانت تضرب كعب حذائها بالأرض بعصبية حتى ينكسر، هذا بعد أن جاءها تنبيه وتحذير من مديرية التربية حين ضربت طالبة بشكل مبرح أفقدتها حاسة السمع تقريباً.

أتذكر اليوم كل شيء وأنا في مأزق الحب الممنوع، أرى الضحايا أمامي تبسم وتبوح بأسرارها بعد فراق، أراهن يتضامن معي بقضية حب سرية. أنت حبيبي وقاتلي في آن واحد. كل اللواتي دخلن عالمي منذ الطفولة كأحلام وكوابيس وأفلام رعب، كلهن كوّنّ شخصيتي. ربما كان بداخلي سؤال ظل يلح عليّ لأعيش أسرارهن وأعرف معاناتهن التي طالما أرقتني، ولربما أردت الإجابة على سؤال مازلت أكرره ولم أجد له جوابا حتى الآن، أو أنني أراه جواباً بليداً وغير عاقل.

كيف يتحول الحب الذي هو أرقى قيمة بالوجود إلى جريمة وكيف يتحول إلى عنف أو كره؟

العاشقات، هن ،أنا، نحن، مازال الرجال يقتلوننا يومياً، بشتى الأساليب، كما يقتلني الحب ببطء وبصمت.

أتذكر الآن الضحايا، العاشقات أمثالي، موتهن المفاجي، عفواً قتلهن المفاجيء.

كنت في الرابع الابتدائي بعمر تسعة أعوام حين كانت "نورية " طالبة في صفنا. كانت أكبر من جميع طالبات الصف وبعمر الرابعة عشر عاما. نورية جميلة جداً، بوجهها حمرة وضوء، ولسواد شعرها وحاجبيها وعينيها البراقتين تضاد ساحر مع لون بشرتها.

أتذكرها عندما كانت مراقبة للصف، واجبها تحضير الطباشير وتنظيف السبورة والمحافظة على هدوء الصف حين غياب المعلمة.

تأتي نورية يوميا من الريف إلى المدينة لتتعلم في المدرسة، ولأن معظم ريف الرافدين الغني لم تكن به مدارس، فقد تأخر أهلها في إرسالها إلى المدينة للالتحاق بالمدرسة.

كان هناك من رفض من أعمامها إرسالها كل يوم بطريق يبعد أكثر من نصف ساعة عن البيت، حتى امتلك عمها سيارة صار يعمل عليها سائقاً وتبرع بأخذها كل يوم معه إلى المدرسة وإرجاعها بعد انتهاء الدوام إلى المنزل.

بهذا أنهت نورية أعوامها الأولى بلا تعليم لتصبح بعدها أكبر تلميذة بصفها.

حينما تتغيب المعلمة عن صفنا، تتحمل نورية المحافظة على الهدوء، ولكن على طريقتها الخاصة، فتهددنا وتخيفنا وهي الكبيرة، أو تتلهى بنا نحن الصغار، تدغدغنا فنضحك، عندها تسجل قائمة بأسمائنا لتعطيها للمديرة قائلة:

إليك أسماء الطالبات المشاغبات بالصف حين غياب المعلمة. والرد يأتي من المديرة بضربات خيزران على أكفنا الصغيرة لتزرّق في برد الشتاء القارص.

كنت أدعو الله أن يعاقب نورية لأنها تكذب وتجلب لنا العقاب، وحسب ماتعلمناه ان من يكذب لابد وأن يعاقبه الله. نورية تأتي بمبالغ من المال أكثر مما تملكه كل طالبات الصف مجتمعات. كانت كل طالبة تحصل من أهلها على خمسة أو عشرة فلوس بأحسن الأحوال، لتشتري

سندويشة أو قطعة من الشوكولا، لكن نورية تخرج من جيبها الكثير من أنصاف وأرباع الدنانير، متباهية بها علينا، قائلة بتعالٍ وفخر:

أنظرن، هل لديكن ما عندي؟

تضحك ساخرة منا، نحن الأطفال، فنعتبرها طالبة "سوبر" وكأنها تخلق الفلوس لا ندري من أين. وأتساءل في فراشي ليلاً، لماذا لا يعاقب الله نورية على كذبها، بل يكافئها بالمال الذي تمتلئ به جيوبها؟ وكيف يكون ذلك؟

كنت أدعو الله ليلاً أن يعاقب نورية، لأن يدي تتورم بزرقة وتسبب لي الألم. نورية تكذب والمديرة تثق بها ثقة مطلقة لأنها الأكبر. نورية تغيب كثيراً لكنها تجد الحجج المقنعة لغيابها، وتعود أشد ثقة بنفسها وأكثر فرحاً باستعبادنا.

ضحكاتها تعلو بشكل لا يألفه الأطفال بعمرنا، لكن غيابها آخر مرة طال كثيراً، وبعد فترة طويلة من الغياب المتواصل لنورية، سمعنا سر الغياب.

لقد قُتلت نورية. ذُبحت، ماتت، غابت الى الابد، ولم تعد مرة أخرى للصف، لن نراها بعد الان. هل أن الله استجاب لدعائي فقتلها عقابا على الكذب؟

كان عقلي الصغير يتعذب، يشعر بالندم و تبكيت الضمير. أدخل فراشي، أرفع عيني إلى السماء معاتبة الله مخاطبة إياه :

– يا الله، أنا لم أقل لك أن تقتلها، كنت أود أن تنتقل من مدرستنا فقط.

كيف يكون الموت هكذا سريعاً ومريعاً وغيابا ابدياً لمن كنا نراه يوميا؟ كيف أخبئ عن الناس أنني السبب بموتها وأن دعواتي هي التي قتلتها؟. نعم هي دعواتي، الله يستجيب لي، ففي كل مرة حينما يكون أبى مريضاً أدعو الله أن يُشفى وفي الصباح أرى أن أبي قد تحسن وزال عنه المرض. لكنني هذه المرة كنت قاتلة بشكل غير مرئي. كيف أخبيء عن الناس ما فعلته بنورية؟

مقتل الشابة يؤرقني ويؤلمني. طفلة كنت وما كنت أعلم أنهم القتلة، وهم المعتدون.

بعد أيام من العذاب شاع الخبر بالمدينة وعرف الناس أن نورية قُتلت على يد عمّها حين اكتشف حقيقة حملها من رجل موظف، رجل رأيناه بعد أيام من مقتلها يسير بالشوارع بملامح قذرة وبأعين عارية باحثاً عن فريسة أخرى وكأن شيئاً لم يكن. فلم يكن هو القاتل، اما عمها فسيخرج من السجن بعد أشهر نافخاً ريشه مفتخراً بغسل عار العائلة، مستفيداً من تخفيف العقوبة دفاعاً عن الشرف.

وترها الغريق

أكثر من سبع سنين عجاف مرت على الإرتباط به، وكلما قلتُ إن الحب خبا ومات، أراه يعود ويتدفق من جديد، وكأن سفره وابتعاده عني يؤجج ناري، فأتنازل عن وعودي التي قطعتها على نفسي، أسير إليه كالعمياء لأرتمي بين يديه حباً وكأن عذاباتي كابوسٌ يزول أثره كل صباح.

كنت قد فقدت المطالبة بأي شيء ورضيت أن أبقى امرأة هامشية، سعيدة بلقاءاتي الأسبوعية معه، وسعيدة عندما أرى وأسمع مشاكل المتزوجين، فأشعر أنني معه بعرس دائم، حب متواصل يرتبك حين يذهب هو مرتين او اكثر كل عام في عطلة لبلده برفقة زوجته.

صار أحيانا يترك لي رسالة تلفونية إن لم يجدني، يذكرني بحبه ويطمئنني عليه، لكن هذه المرة فكرت أن أضعه بامتحان أحسم معه وضعي وأنهي الوهم الذي اعتقدته، وعلى كل حال أنا صاحبة القرار، يمكنني أن أنهي العلاقة أو أستمر بها.

بالرغم من انني أقسمت على نفسي أن أصمد، اتصلت به عدة مرات، وكانت زوجته ترد على هاتفه المحمول فأغلق الخط.

كثيرا ما سمعت أن الزوجة التي تشك بزوجها هي التي ترفع هاتفه الشخصي فهل هذه حقيقة؟

ترى هل هي ما زالت بمرحلة الشك به، أم أنهما في غاية الانسجام والتوحّد حتى أصبحا شخصاً واحدا، وتلفونا واحداً؟ ليتني أجد الإجابة وأرتاح..

غريب !، لو كانت زوجته عربية، وأخذت بدلاً عنه تلفونه المحمول، ألا يعتبرها متخلفة ويصمها بذلك ويتصادم معها؟

ألا يقول لها إن هذا تلفوني الشخصي وليس من الحضارة في شيء أن ترفعيه انت كلما رنّ؟ طوال الشهر لم يرفعه هو مرة واحدة، لا أدري ربما اكتشفت هي شيئاً؟ على كل حال لن أسامحه ولن أكلمه بعد ذلك أبداً.

أصبت بالأرق، بكيت على نفسي، وبكيت على ثقتي به وعلى الأيام والسنين التي منحتها له وأطلت مدة بقائه مع زوجته التي كان على وشك الطلاق منها لولا أنني صرت مثالية أكثر مما يجب ولم أطلب منه تطليقها ولم أحرمه مني رغم بقائه معها، ورغم أنه كان يقول إن الحياة الزوجية بلا امرأة حبيبة أخرى غير الزوجة جحيم لا يطاق. كنت أرضى بكل هذا الألم الذي لا يفقهه، فإن تكن المرأة وسيلة لإسعاد غريمتها، فهذا قمة الجنون والغباء والحزن اللامتناهي، بل والسذاجة التي رضيتها لنفسي وفسرتها على أنها طيبة وزهد وقناعة وتفان بالحب.

بعد عودته من السفر اتصل بي من العمل يسأل عني بعد أن عرف غيابي بسبب المرض، وكأننا كنا معاً منذ أن ودعته.قال:

- سلامات حبي ما بك؟ أنا مشتاق لك جداً.

لا أدري ما سأقول له؟ هل أقول له يكفي كذباً، هل أقول له كدت أن أموت بحادث وأنت بعيد ولا وسيلة لي بالاتصال بك سوى تلفون لا ترد عليه أنت بل زوجتك؟ قلت له:

- هل ما زلت تتذكرني؟

- طبعاً، ولم تغيبي عني لحظة واحدة فأنت زوجتي وحبيبتي.

- غريب، كيف تدعي ذلك وأنت لم تتصل بي ولا مرة واحدة طوال شهر وأكثر؟

- لا أريد أن أتصل لأنني أتألم حينما أسمع صوتك وأنت بعيدة عني.

- هل هذا مبرر مقنع، وأنت لا تعرف عني إن كنت حية أم ميتة؟ أبحث لك عن عذر آخر يكون أقرب للتصديق.

- كل مرة أذكرك بانك لا تعرفين من أنت بالنسبة لي، حتى بعد ان صار فيما بيننا طفلة.

- عرفت جيداً وهذا يكفي. سنين طويلة وأنا أتعلم منك مَن أنا، وعرفت من هذه الطفلة بالنسبة لك، ربما انك وبداخل نفسك لم تعترف إنها طفلتك، عجيب أنت كأب معها، فكيف أصدق بانك أب ناجح مع أولادك الاخرين كما تقول.

- المهم أريد أن أراك، أنا مشتاق جداً.

- لماذا تريد رؤيتي وأنت تعاملني كالغريبة، حتى قراراتك الإدارية التي تأخذها بخصوص رغبتك بالانتقال من عملك لم تخبرني بها، بل سمعتها من الزملاء الغرباء وكأنني أنا الوحيدة عدوة لك.

- من قال لك هذا؟ قد لا تقتنعين بمبرراتي لكنك عندما ترينني حتماً سيذوب الجليد.

- آسفة لا أريد أن أراك لأنني لا أحبك الآن.

أقول هذا وأنا أتمنى أن أطير له بذات اللحظة وأهجم على شفتيه لأنفث كل حرارة روحي وجسدي الذي طالت معاناته وشوقه.

لا أدري كيف يحاول أن يحقق كل ما يريد بدون أدنى خسارة أو إنحناءة من رأسه لي. يريد أن يملك كل شيء، البيت، والاستقرار، والهدوء، والمتعة، الزوجة الأولى، والزوجة العشيقة التي يسميها تجاوزا بزوجة ثانية، زوجة غير معلنة وغير معترف لها بأية حقوق.

يريد المال والروح والجسد. يريد كل شيء وأنا التي يجب أن أفقد وأعاني.

صار صوته اليوم أكثر حزناً ورغبة باللقاء. يتصل يومياً عدة مرات محاولاً إرضائي.

أخذت عطلة لمدة أسبوعين لأعتاد عدم رؤيته وكي لا أضعف، لابد لي من النجاح هذه المرة.

استطعت أن أملأ وقتي بكل ما هو مفيد، لبّيتُ دعوات من مؤسسات ثقافية، عزفت بها الحاناً جديدة. كان كل شيء يدعوني لعدم تصديقه وتركه، ثم أن ضعفه بالتلفون يوماً بعد آخر دعاني للمضي قدماً. هل كان يراهن نفسه على يوم اللقاء؟

ذهبت الى العمل بعد انتهاء إجازتي، رآني، أعجبته كثيراً، عانقني بلهفة ولم أتجاوب معه كما كنت، بل أعطيته خدي دون أن أضع شفتي على خده، حاول الاقتراب وأنا أبتعد. قال:

- أنت رائعة

قلت بجفاء:

- شكراً

- عطرك بديع ومثير.. أنا أريدكِ.. أرجوكِ كفى عن تعذيبي.. متى نلتقي؟

يقترب مني، تمتد يده إلى خصري. أسحب نفسي بلا مبالاة قائلة:

- لماذا لا تصدق أنني اتخذت قراراً نهائياً بخصوص العلاقة. قال:

- لا أصدق، أنت رقيقة ولا تقوين على تعذيبي أكثر. أرجوك سامحيني، قد أكون غبياً معك ومتجاوزاً لحساسيتك لكنني أعرف قلبك الكبير.

قلت:

- إنها المرة الأخيرة والامتحان الأخير وقد نفد صبري.

جلس وكأنه انهار ضعفاً، وضع يده على صدغيه كمن أصيب بمصيبة واحمر وجهه حزنا. ارتفع الدم إلى عينيه قائلا :

- أتريدين تعاستي؟ قلت له:

- أنت الذي اختار نوع الحياة، وللأسف كان يجب أن أتخذ موقفي هذا منذ زمن، يكفي هذا لقد تأخرت بقراري.

عندما رآني جدية جداً قال:

- حسناً كما تريدين، لن أطالبك بشيء. قلتُ :

- إذن يكفي، انتهى كل مابيننا ولنرتاح جميعا.

خرجت بسرعة حاسمة الموقف بعد أن أصبح متوتراً. إتصل بي مساءً ليقول لي:

- سومر، إفتحي التلفزيون. قلت:

- أنا أمام التلفزيون الآن. انني أنظر الى ماينتشل من جثث المقابر الجماعية وعظامها غير مصدقة مايجري، هل حقيقة ما أرى أم كوابيس؟ شيء مهول لايصدق. قال:

- هل رأيت ماذا حلّ بالعراقيين؟ إنني أعجب الآن وأنا أرى في التلفزيون آلاف الجثث من الرجال والنساء دفنوا بملابسهم وأحذيتهم، حتى الأطفال، هل رأيت جثث الأمهات اللواتي يحتضن أطفالهن؟ تلك الهياكل الصغيرة، كم هي مؤلمة، كم كان نظام صدام مرعباً. أظن أنه تجاوز كل طغاة التاريخ، حتى هتلر. قلت:

- نعم، إنني أعيش معها وأبكي الضحايا، ولكن أكثر ما أوجعني وأبكاني، تلك الأم الثكلى التي أخذت كيساً من العظام، وهي تصر أنها عظام ابنها، واضعة إياها على قلبها كمن يحتضن طفلاً، تقبله بين اللحظة والأخرى. تسيرُ خارجة به من الحفر والأتربة وعويل المنكوبين، سائرة به نحو منزلها، لتعيش مع تلك العظام وتردد:

- سأضعها على السرير وكأن ابني عاد لي. تغصّ بعبرتها وتنتحب وهي ذاهلة تكرر ذات القول كمن اصيب بمس:

- سأحسبهُ قد عاد طفلاً لا يتكلم ولا يفهم.

إنه أمر لا يصدق وحرقة أعظم من الاحتمال، ولو كنت مكانها لفعلت مافعلت حتماً، لم أكن لأترك ابني - وإن كان عظاماً - ينام في الحفر والصحارى البعيدة.

- هل رأيتَ أنت ذاك الرجل الذي كان يقبّل جمجمة ابنه ويقول انتظرت أكثر من عشرين عاماً على أمل أن أجد ابني وأراه، غيبوه منذ كان في الثامنة عشرة ومن المفترض أنه اقترب اليوم من سن الأربعين، هاهي عظامه، ثم انحنى على الجمجمة ليشمّها ويقبلها بحنو مرات وعيناه تدمعان.

رأيت بعيني الآف النساء الباكيات المتربات، المتشحات بالحزن وهن يبحثن في الحفر بحرقة وكأنهن سيجدن أبناءهن أحياءً. تحسد إحداهن

الأخرى لو وجدت عظماً من عظام ابنها أو حبيبها أو أحد أحبائها. رأيتُ رجالاً كبار السن ضعافا ينتحبون، فقدوا أحباءهم منذ سنوات كثيرة. إنه يوم قيامة ونشور آخر، قيامة في الحياة وليس بعد الممات كما في الكتب المقدسة.

قال محاولاً الإندماج مع حزني ودموعي لإ يجاد مشترك ومدخل للحديث معي:

- كيف يعرفون أن تلك العظام لأبنائهم؟

أجبته بأن الأمهات يعرفن أبناءهن من خلال بعض الأشياء المميزة في تلك الجثث المتفسخة، أو من أسنانهم وطول هياكلهم وربما من ملابسهم أو من خواتم أو كسور ما في عظامهم، لا ادري لكن الامهات يعرفن ابنائهن دائما، ربما هو شعور فطري، غريزي، فالابن قطعة من أمه لذا هي غالبا ماتعرفه وإن صار كومة عظام. فما اعظم الامومة. أشعر ان الدنيا لابد وان تقف عند حدود هذا الحدث الصاخب والمجنون، هل هناك شيء أكثر رعباً وحزناً من هذا؟ صرنا نتحدث حول مانرى ثم قال:

- لابد وأنك فكرت بقطعة موسيقية تناسب هذا الحدث الجلل؟ قلت:

- لا أدري، ربما مايحصل أكبر من عقلي وموهبتي الموسيقية، اني أسمعه يضغط بضجيج آلات غير متناغمة وعدوانية على روحي فأكاد أصمت، بل أنا الآن أحب أن لا أتحدث رجاءً فالحدث فوق احتمال البشر، حزن لا يوصف بنغمات والحان. إنه مهول وخارج عن إطار فكر الفنان والإنسان السوي. شيء مُخرس للعقل، يتوقف عنده الفن ويعجز.

كان يحاول دائما مصالحتي عن طريق اهتمامي، ولانه يعرفني عاطفية جدا، ولطالما بكيت امامه وانا أرى مشهدا مؤلما في التلفزيون حيث كان يضحك واصفا اياي بالحمامة المفرطة الرقة.

لم اسأل عنه بعد ذلك. في اليوم التالي اتصل بي طالبا مني الحضور الى مكتبه متعللا بشؤون العمل. دخلت مكتبه، استقبلني وكأننا البارحة ما تناقشنا وتوترنا، ثم قال بعد ان اكدت على رفضي للعودة اليه:

- أنني لم أطالبكِ بشيء. كررت عليه أننا سنبقى زملاء فقط وهذا يكفي وخرجت من مكتبه..

بعد ساعة ونصف كنت في الخارج لقضاء استراحتي بدونه، وحين عدت بعد ساعة وجدته يجلس مع شابة في مكتب زجاجي يراه كل من يمر بالممر المؤدي لمكتبي، وإذا به يناديني ليعرفّني بها:

هند، رسامة تشكيلية.

سلمت عليها وخرجت بلا اكتراث، بقي يتحدث أليها اكثر من ساعتين وأنا اعرف انه يحاول إثارة غيرتي كي أعود له كما المرات السابقة وبلا أي تنازل منه ولا اتخاذ موقف جديد يسعدني. أتصرف هذه المرة وأنا أدرك كل ألاعيبه.

سنينا طويلة وهو يتصرف مع الحب كمن يشتري بضاعة، يحاور كمن يساوم للحصول عليها بأقل الأثمان، فأين الحب من هذا؟

أنا من يقول له أفديك بروحي وأنا صادقة فيما أقول، كل هذا يجعلني اكثر إصرارا وقوة على الصمود.

حاول أن يتحدث معي عن الرسامة، لكنني غيّرت الموضوع كأمر لا يهمني ولم اقل له شيئا عنها كما كنت افعل عندما أغار عليه. لم

أتصرف اليوم كالسابق عندما أراه مع امرأة فاحترق متسائلة من تكون؟ أو لماذا تحدثت معها طويلا؟ وما ذا تريد؟

الان عرفت قصده وما عادت الغيرة تعيدني أليه بسرعة وتخيفني من فقدانه. ولكن هل أنا حقا قوية وسأمضي بما قررت؟

جاء وقت انتهاء الدوام أراد مني أن أقول له سنخرج معا كما كنا نفعل يوميا، لكنني بقيت بالمكتب حتى الخامسة والنصف مع إنني أغادر الخامسة، خرج وحيدا كئيبا.

قلت لأ دعه يتذوق طعم الحرمان والخذلان الذي شربته منه سنينا. كل هذا وأنا اعجب من قوتي وقدرتي على الصمود، بدأت عواطفي اتجاهه تخفت بالفعل شيئا فشيئا.

سأكتب النهاية التي طالت وطال انتظارها، ما كنت أتوقع أنني سأقوى على كتابتها بهذه السرعة، وبلا دموع. تمر الأيام وهو بين اليوم والآخر يعود ليتصل متذللا طالبا اللقاء بي، كأنه لم يسمع قراري، اليوم كان تلفونه مختلفاً جداً، يتذلل بالكلام اكثر، يستفسر عن الصغيرة كثيرا، اتصل بي قائلاً : هل أستطيع أن أراك اليوم؟

- آسفة.

- لماذا اصبحت قاسية معي جداً؟

- لم استطع أن أسامحك على شهر كامل وكأنني غير موجودة، فهل تستطيع تجاوز زوجتك الأولى او اطفالك كل هذا الوقت لو كنت مسافراً بدونها، وهل تستطع تركهم بلا تلفون كل هذه المدة؟

- معك حق لكنك لم تعرفي ظروفي، دعيني اشرح لك كل شيء، أرجوك اسمعيني، إن حياتي كئيبة ولا تساوي شيئاً بدونك، إنني أكاد أجن شوقاً لك ولا أدري ما أفعل وأنت ترفضينني. قلت:

- أعرف بأن لا صديق لك غيري.قال:

- نعم لا امرأة ولا رجل سواك لذا أرجوك أن تترفقي بي فأنا أتعذب من غيابك وغياب أيامنا الجميلة، ربما كنت بدويا متخلفا لا أستطيع أن أفهم امرأة متحضرة كفراشة رقيقة كانت تدور من حولي بكل ألحانها وموسيقاها الرائعة. صدقيني أفكر بك ليل نهار ولا أصدق أنني سأفقدك، كم غبي أنا وكم بائس لأنني أفرط بإنسانة رائعة مثلك. اعرف انك تستغربين من علاقتي بالصغيرة، لكنني واثق انك اقدر على تربيتها احسن تربية، كما انها في بلد يضمن لها كل شيء، وانت تعرفين انني لا أريد ان تُكتشف علاقتي بكما امام العائلة.

قلت: كل الاعذار ضعيفة امام علاقتك بابنتك، اما انا فلأذهب للجحيم، وبالنهاية فالحل بيدك. قال:

- أنت لا غبار عليك لكن الصعوبة في ظروفي وظروف من حولي، ليس هناك عيب واحد بك يدعوني لعدم إعلان ارتباطنا.

حتى الآن لم يفهم ما أريد، حتى الآن لم يعرف أن المرأة تجرح عندما تكون هامشية لا موقع لها بحياة الرجل، وكم هو مؤلم أن تكون امرأة سرية لا يستطيع أن يفتخر بها أمام الملأ.

بدأ ينهار ورغم ذلك يريد أن أعود له بلا أدنى عرض جديد، وبلا أدنى تغيير بحياته، وبلا أي إغراء. وبالمقابل كنت اقوي نفسي وأقسم بعدم العودة اليه ..

أقرأ أحياناً كيف يتحول العاشق إلى منتقم لنفسه. غريب كيف يحول العذاب كل ذاك الحب إلى شيء لا يفهمه المنطق والعقل سوى أن يدعوه رغبة بالانتقام أو الكره. أنا لا أكرهه ولا أريد الانتقام منه بقدر

الرغبة بأن يتعلم العدل والإحساس بالآخر، حتى وإن تركته سيكون أمراً ليس سهلاً أن أنساه، وأظن أنني أفقد بعده كل رغبة لي بأي رجل مهما كان.

وتغني سومر الحانها الحزينة :

ما عاد يجرحني كلامكَ أو يؤرقني سكونكَ، صار حبكَ عقد إذعانٍ وهل للمذعنِ المسكين حسّ ؟ جُرح الفؤاد بهجرك بعدما كان الأعزّ، وأنت تدري، إنَما للشاةِ بعد الذبحِ لا وجعٌ يجيء ولا أنين.

أيصدق بعد كل هذا سأعود له وأنسى كل ما أقسمت عليه وقلته وأقنعت نفسي به؟

مَن هذا الرجل؟ كيف أعود له بعد أسبوعين وكأنني لم اقسم بعدم العودة اليه؟ وكأن القوة تلاشت لتصبح شوقاً وجمراً في المنام.

عدت لأشتاقه، ولأعيش معه لياليا بأعمق مما كانت وبشموع أكثر حرقة واتقاداً ولهيباً .

الوتر القتيل

تعود سومر مرة أخرى تفكر بإنهاء العلاقة مؤكدة لي ولنفسها: في هذه المرة لن أرد على مكالماته. لابد وأن أنساه، ولن أفتح له باب منزلي حين يفاجئني بالمجيء. سيكون بابي مغلقاً، سيرى المنزل صامتاً لعدة أيام وسيظن أنني رحلت.

ذكرتها هذه العبارات بباب "عدالة العمياء"، المغلق، الذي ارتسم منذ الطفولة في مخيلتها مثل وشم باق لا يمّحي مهما طال الزمن. لقد تحول بوح سومر الى سرد قصة عدالة العمياء. صارت تتحدث عنها كمن ينعى موته:

عدالة المرأة الأربعينية، التي كنا نلعب أمام منزلها القريب من بيت خالتي، الباب المقابل لباب ابن عمها "ذياب" الذي يصغرها بأعوام. عدالة لم تخرج من منزلها بسبب العمى، وحينما نزعجها نحن الأطفال بأصوات لعبنا وضجيجنا، تخرج غاضبة صارخة بوجوهنا أن كفوا عن اللعب واللغو، أريد أن أرتاح، ألا يحق لي أن أرتاح بمنزلي قليلا؟

كنا نخاف عماها، فعيناها بلا سواد، بيضاء ناظرة إلى الأعلى بلا مُقل ومجرد فتحها الباب وصراخها بوجهنا يرعبنا فنهرب مرتجفين. أحياناً تكون عدالة لطيفة معنا، تدس قطع الحلوى في أيدينا مقابل ان نجلب لها ما تريد، كأن نرمي لها كيس الأزبال، أو نشتري لها شيئا من السوق، أو يكون لطفها هو أن تتركنا نلعب أمام منزلها حيث لا سيارات تسير في ذلك الزقاق الضيق.

كنا قد اعتدنا تلك البقعة التي أصبحت ملعبنا متى شئنا، بقعة بمواجهة بيت خالتي حيث يطمئن علينا الأهل، وحيث نتردد على المنزل أثناء اللعب إن شئنا.

أسبوع مر ولم يفتح باب"عدالة العمياء". أسبوع آخر. يعلو الغبار الباب، فيصلنا اللغط الذي شاع بين الناس، تسمعه بنت خالتي قبلي، فبيتهم الذي يضم عدداً كبيراً من العوائل القريبة والمتداخلة ببعضها يجعل نشر الخبر والتنصت سهلاً. تخبرني بنت خالتي وهي مرتعبة وغير مصدقة:

- لقد قتلوا عدالة.

- كيف؟

- بالسكين الحادة.

- لماذا؟

- لا أعرف، سمعت في بيتنا أن أخاها أخذها إلى البستان وذبحها.

كان عمري تسع سنوات. حين تناهى خبر مقتل عدالة الى سمع أمي قالت:

- يا لله حتى هذه العمياء تعمل كل هذه الفضائح، كيف تقوى على ذلك؟ مضيفة وهي توجه الكلام لي ولأخواتي البنات:

- ما كنا نظنها بهذه الوضاعة والخسة، ربما أراد لها الله أن تكون عبرة لمن اعتبر من البنات العاقّات واللواتي لا يعرفن الأدب والأخلاق.

تقاطعها عمتي باستنكار قائلة: إنها مسكينة بريئة، لا ذنب لها فهي عمياء لم تتحرك من بيتها انما المعتدي هو الذي ذهب ليعتدي عليها، ثم تقتل هي دون ما يعاقب هو أبداً. إن هذا ظلم.

تغضب أمي وتلوم عمتي محاولة اقناعها بأن من الخطأ التربوي ان تسمع البنت لوم الرجل، إنما البنات لابد وان يسمعن فقط لومهن ليتعظن ويترددن في الرغبة بعمل مخل بالأخلاق والشرف.

الباب الموصد يعلوه الغبار أكثر فأكثر، يحيطه الرعب يوما بعد آخر. صرنا نبتعد عن اللعب بجانبه. كنا نخشى أن يخرج لنا أخوها يوماً بسكينه الحادة ذاتها التي ذبح بها "عدالة" ويهددنا. نبقى نتحدث كثيرا في ما بيننا عن طريقة الذبح، وعن السكين الحادة، نصور لانفسنا مشاهد القتل، فنرتعب حينما نتذكر إننا سنكبر ونصبح نساءً.

كان أخو عدالة يسكن مع زوجته في بيت آخر. يمرّ عليها بين الفترة والأخرى، وبسبب عماها كانت تزورها ايضا امرأة من أقاربهم تساعدها بالطبخ والتنظيف ويُقال إنها هي التي نقلت لأخيها خبر حملها بالجنين إذ خشيت التستر وتحمّل المسؤولية، فهي لا تريد أن تكون شريكة لها بالجريمة. ولكن كيف حصل ذلك ومتى؟

حصل ذلك في مساءٍ صيفي حار، كانت عدالة العمياء بفراشها نصف عارية، تنام بفناء المنزل، بعد أن تركتها قريبتها وغادرت ناسية أن تغلق الباب جيداً. حركَ الهواء باب المنزل فانفتح قليلاً وكان الذي رأى"عدالة"هو"ذياب"ابن عمها. كان عائدا من البار الوحيد في المدينة. أفخاذها البضة أسالت ريقه، بلعهُ، أراد أن يغلق الباب على ابنة عمه ويذهب لبيته، لكن غريزته أعادته وصاح به جسده أن ادخل واغلق الباب وراءك..

ركض نحو العمياء وخياله يعده بليلة شهية، فهي وإن كانت عمياء، جسدها مغر ونظيف، جسد لم يذق رجلاً بحياته. أثارته عذريتها وهو الذي اعتاد أن يذهب لبنات الهوى من الغجريات القذرات، الغجريات

اللواتي ينمن مع الكلاب التي تحرس خيامهن، وبأجسامهن رائحة الحيوان رغم استعمالهن البخور والعطور. كان الأغنياء يغدقون عليهن بالمال، حتى أن أحد الشيوخ المعروفين بالثراء والذي يتردد عليهن كان يحرق الأوراق النقدية من فئة خمسة دنانير ورقة وراء اخرى ليضيء للغجرية حتى تنتهي من تبولها في جانب مظلم انتبذته لذلك الغرض.

- مَن أنتَ؟ قالت عدالة وهي خائفة ناهضة من فراشها .

أغلق"ذياب"فمها بيده مهدئاً :

- لا تخافي أنا بن عمك"ذياب"

- آه خشيت أن يكون حرامياً .

- ما الذي تفعله هنا بمنتصف الليل؟

- وجدت بابك مفتوحاً، خفت عليك فدخلت لنتحدث قليلاً .

كانت رائحة الخمرة تملأ أنفاسه، سألته وما هذه الرائحة في فمك كأنها يانسون؟

- نعم إنه اليانسون.

تحسس جسد العمياء الذي لا يعرف سوى الحرمان. امتدت يده إلى الفخذ، قرّب أنفاسه منها، تخيلته هي حلماً جميلاً، وحين صحت لتشعر بجسده ملتصقاً. كانت الرغبة التي ما تذوقتها أشعلت براكينها مرة واحدة.

- ذياب، ماذا تفعل؟

- أريك الحياة، أريك الجنة، أنا مشتاق لك منذ مدة لم أسمع صوتك.

أنفاسه تتوالى على عماها لتهده عتمة عتمة، حرارة الرغبة تضعفها لترتقي بها سلم الحب، تخرسها المتعة وتفاجئها بطعم الحياة الذي تكتشفه أول مرة:

- أرجوك ذياب ماذا تفعل، اتركني أرجوك.

تقول هذا وهي لا تقوى على دفعه بعيداً عنها. لا تقوى سوى على التهام ما تشعر به من لذة تحرقها وتنسيها كل ما تناهى إليها من كلام مجرد عن القيم والأخلاق والنساء والرجال والحواجز والأديان. الرغبة تصعد سلالم الحب لترتقي بها الى برج الحياة الفطري فتستنشق أنفاس الإنسان وتهجر مخدع الوحشية، ولتكن ضحية ما حرموها منه.

لذة واحدة ولتمت، فهل حياة الظلمة الدائمة تهمني إن فقدتها؟ هي جنة أو نار فلأدخل الجنة أولاً وليكن ما يكون.

الجسد الصاخب بالصحارى والبساتين يلتهم المفاجأة. فلسفتها تدخل برازخ الخروج إلى النور. يسقط الجسد اللاهث بعرق الحب وتتسارع النبضات، تعرف السر الجميل وتلتذ به، ما ألذ حياة هؤلاء الذين يرون ! أنا محرومة من كل ما عندهم، أفي الظلمة أعاقب؟ سيكون الله حتماً أكثر عدلاً منهم، الجنة تقترب، إنهم يدخلونها كل يوم. الماء ينضح بداخلها ليتدفق، تمتص ما أعطاها بكل مساماتها العطشى، أعطش هذا الذي كان أم احتراق؟

مياه تتدفق عليها، والجسد يمتص، ويمتص ويكنز الحب طعماً ورائحة وماء حياة.

الماء هو الحياة، هذه هي الآن، أراها أول مرة، آه كنت ميتة قبل الآن، فلأرتوِ، وليقتلني الناس بعد ذاك لا يهم.

ثورة الروح لن تتراجع. لقد خَرجت عدالة من كهف الغفلة ولن تعود اليه أبداً، وهل يعود من هجر الكهوف؟ تذوقت عدالة الحياة بعد الجفاف الطويل.

كم من الأعوام منذ أن نضجت حتى الآن وهي تحلم.

كم من الأعوام منذ أن أحست بقطرات الدم تنزل من بين فخذيها؟ وعندما سألت قيل لها إنها هي المسؤولة عن الفضائح والمصائب، وعن إنجاب الأطفال، ولم يقولوا لها ان مابين فخذيها كل هذه الجنة، كل هذه الحياة، كل هذه المتعة والحميمية. صارت تنتظر"ذياب" كل ليلة حين يهجع الناس ويخلدون. العمياء عرفت الأرق، وتنصتت من وراء الأبواب. صار لها خبرة بمعرفة الأصوات أكثر من قبل. تمر عليها أيام عسل. طلبت شراء العطر واغتسلت كثيراً، أيام من السعادة، هي كل العمر، وهي التي أنهت حياتها دفعة واحدة. لقد حققت فلسفتها بدخول الجنة من باب منزلها حتى انها نسيت الدم الذي كان ينزل شهريا . حلاوة الحب أنستها كل شيء. كانت سعيدة حد توزيع الحلوى علينا وتركنا بالنهار نلعب ما شاءت لنا طاقات الطفولة. هي بفكرها وانتظارها، المساء لها والنهار لنا، فلماذا تزعج نفسها بالأطفال؟ تركض أيامها، تحفر قبرها يوما بعد آخر حتى تتحسس حركة الجنين ببطنها . لذة لا تدري أتسعدها أم تحرقها وتقودها إلى الموت سريعاً . انها فرحة كل أنثى، وهي لذة لا تعادلها سواها، لكن عالمهم المبصر لايشعر بها، لا يتركها تعيش لذتها كما شاءت.

ذات يوم جاء ليلاً ليمارس الحب كالعادة استقبلته بفرح قائلة:

- سأخبرك شيئاً لا أدري هل سيسعدك أم يتعسك.

- ماذا؟

- إنني حامل.

- ماذا قلت؟ لا، غير معقول، أنت تكذبين، إنك كبيرة، و...فبادرته هي بوضوح وتحدٍ قائلة: - وعمياء أليس ذلك، وهل أن العمياء بلا أنوثة؟

- ما اعتقدت يوما أنك ستحملين.

- لكنني فعلاً حامل، فهل ستتزوجني؟

تكرر عليه عدالة السؤال باكية:

هل ستتزوجني؟

يقع عليه السؤال كالصاعقة، يغضب كالمجنون صارخاً بوجه عماها المخيف:

- ماذا تقولين؟ هل تريدين الفضيحة لي؟ أنت عمياء ومجنونة، أنا لا شأن لي بما فعلت بنفسك.

يخرج غاضباً ناسياً الباب مفتوحاً وراءه كما دخله أول مرة، لكنه اليوم يخرج روحها معه إلى عالم المبصرين، تاركاً جسدها يعمه الى الأبد.

تبوح لي سومر بماكان، وكأنها كاهنة حكيمة يضطهدها جهل العامة، تقصّ علي متنهدة، متأملة بما استعادته من ذكريات تراها أمام عينيها المفتوحتين، وتضيف:

نحن الصغار نستمر في لعبنا أمام منزلها. عدالة تبقى مرابطة وراء الباب تتنصت لأصوات المارة، علّ صوته يقترب منها، تتساءل بقهر وبلوعة، هل سيعود يا ترى؟

تسألنا :

هل رأيتم ابن عمي ذياب؟ نجيبها بالنفي غير آبهين ولاعارفين مابداخلها من غمّ.

الأيام تمضي وبطنها تكبر، سرها يكاد أن يفتضح. تلوم نفسها ساعة وتشفق عليها ساعة اخرى..

- لِمَ قلتُ له أنني حامل؟ لِمَ أغضبته؟ كان علي أن أتشبث به، أبقيه عندي. كان علي أن اغلق عليه الأبواب وأربط رجليه. آه، وهل أمتلك كل هذه القوة لأفعل به ما أشاء؟

تطلب "عدالة " من قريبتها التي تشرب معها القهوة ان تقرأ لها فنجانها، فيرعبها ما قاله الفنجان حين تخبرها برحيل طويل وسعادة كبيرة، تمنحها قراءة الفنجان بعض أمل للحظات لتفكر بايجابية محدثة نفسها :

ربما سيتعذب من أجلها ويندم على تركها ويتزوجها، فهو على كل حال ابن عمها والدم لا يصير ماءً.

لم تتوقع أبدا أنهم سيقتلونها وهي العمياء التي لا تتساوى مع غيرها من النساء، فهل تتساوى معهن بالقتل فقط؟. لقد اعتقدتْ أن عماها سيقف حامياً لها ويسقط السكين من أيديهم فلا يغدرون بها .

أين هو الآن؟ لِمَ غاب كل هذا الوقت؟ أين ذهب، ولِمَ اختفى؟ أكثر من شهر وهي تتوسل الله أن يعيده أو أن يسقط حملها، دون جدوى. اليوم أصوات الزغاريد تعلو بالشارع، تسألنا :

- ما هذا الضجيج؟

– ذياب سيتزوج من ابنة عمه ذكرى وستكون العروس بعد ساعة بمنزل زوجها.

الحلكة تصبح أكثر. دنياها يغيب عنها العقل، الظلم يتوحش والشعور به يزيد النار حطباً. تشهق بلوعة ولا من مجيب. تفكر، تتخبط، تصل لقرارها الأخير تقول في نفسها:

سأقول لها، نعم إن العروس ابنة عمي، سأقول لها إن ذياب لي، وهذا طفله في بطني، هو سري الذي خبأته بعماي ووحدتي. سأعلن الموت على نفسي وأرتاح، فالموت هو أن أسمع بزواجه من أخرى. الموت أن يتركني للعار والقتل. الموت أن أبقى في بيتي الذي دفنت به منذ الولادة.

أيها الصغار قودوني لمنزل ذياب كي أذهب للعرس وأباركه.

نمسك بيد العمياء، نقودها الى حيث الزغاريد التي تضغط على عقلها فتجعل الخيار وحيداً. الزغاريد تزيدها إصراراً على تخريب حياته كما قادها يوماً بليلة ظلماء إلى الموت ورحل دون أن يسال عنها وهي على بعد ثلاثة أمتار من داره. سبعون يوماً وهي ترقب عودته، دون جدوى، لن تهدأ، يكفيها انها عاشت ثمانية وسبعين يوماً من الموت البطيء والسر الذي لا يُحكى.

أي دافع يا ترى دفع "عدالة" للذهاب إلى العروس ذكرى، ابنة عمها؟

الغيرة أم الرغبة بالانتقام، أم الانتحار حين أدركت أن يومها قريب جداً وسرها يكاد أن يفتضح؟

زغاريد وموسيقى العرس تحطم كل شعور جميل ذاقته عدالة بحياتها. لم يبق في حوزتها سوى أن تبوح. الألم يعصرها ويذيب ما تبقى

من أحشائها الرافضة للطعام منذ أن حملت ودخلت في إرباكات الوحم، هرمونات الأنثى الحامل تقرّب من اتخاذها قرار البوح، اليأس يدفعها نحو الهاوية دفعاً كريح عاتية، تقترب من غرفة نوم العروس التي تجلس بها كما تفعل العرائس يوم الزفاف. الضجيج يضيّق فسحة أنفاسها فتشعر بالإختناق. تقترب من العروس بعد أن تطلب الجلوس بجانبها. تهمس بأذنها طالبة منها أن يكونا وحدهما.

- لدي أمر هام يتعلق بالعريس وهو قصة حياة أو موت.

العروس تتفاجأ، لكنها تستجيب لعدالة. تطلب من الضيوف مغادرة الغرفة مؤقتا بحجة تغيير ملابسها، متعللة بالخجل، وتسمح ببقاء "عدالة" فقط لأنها عمياء. تغلق عليهما الباب، تطلب عدالة من ذكرى الاقتراب منها أكثر، مؤكدة على سريّة الحديث بينهما، تعدها العروس بذلك.

تفجر عدالة قنبلة بوحها الممنوع .

قبل أن يزف الرجال "ذياب" لعروسه، كانت العروس ذكرى قد عادت الى بيت أبيها.

الذهول أصاب الجميع. العريس لم يلتق عروسه بعد ولم يغلق عليهما باب واحد.

"عدالة العمياء "ضربت ضربتها بتخريب ما أراده ذياب، وهذا أكبر ما فعلته مقابل حياتها التي ستفقدها بصحبة اللعنة والعار اللذين سيلاحقان ذكراها إلى الأبد، ستدفن في مكان مجهول، ناءٍ. ستكون بلا قبر، ولا زيارة أو آس في الأعياد. سترحل كشيطان ظل طريقه إلى عالم البشر.

شحمة الخنزير إذن براء مما يدعون.

تغير سومر جلستها لتقول:

عندما تجاهلتُ مرة سماع نداء أمي، غضبت مني وقالت إياك أن تكوني وقحة العين مثل عين عدالة؟

ابتسمت عمتي هازئة قائلة:

عجباً، لقد أصبحت عدالة مثالاً على الوقاحة وقلة الحياء وهي المسكينة العمياء المُغتصَبة؟

حتى آخر العمر، حافظت"ذكرى"على عذريتها برفضها كل من يتقدم لخطبتها . قيل إنها تعقدت وصُدمت من جنس الرجال، فبمن بعد الآن تثق إن كان ابن عمها القريب منها جداً، والذي صارت لها معه علاقة حب ملتهبة كادت أن تكتمل بالزواج، يغدر بها ويسيل لعابه على بنت عمه العمياء.

استمرت عصبية المعلمة" ذكرى"واستمر ضربها لكعب الحذاء بالأرض حتى ينكسر حينما تغضب على إحدى الطالبات. كانت مثالاً للشرف في المدينة، وهي لم تصبح كذلك إلا بعد أن تحملت البقاء وحيدة دونما يلمسها رجل، عانساً، مقهورة، مصدومة طوال عمرها .

لم تكن لتحصل على هكذا سمعة ممتازة لو أنها فكرت بالارتباط برجل آخر حتماً .

هكذا هم يريدوننا مظلومات ليحترمونا .

وترها المتمرد

إنـي لا أعجـز عـن وجـعِ الحـبِ إذا مـا حـامَ كملائكة حـولي، إنـي لا أعجـز عـن وضـع الـدفء بـبردكَ حـين أرى النايـات تصـيح، لكنـي حـين الحب يناديني أعجز عن دفع الشوق المضني.

إنّـى أحببتك وألسنة النيران تثور. أحببتكَ وصعقات جليد الدنيا يهجمُ. فما بالك لو أنّا نحترق أمام الملأ بلا فسحات فراغ أبله؟

حين يضعك جسدك أمام خيارٍ واحد لا ثان له، هـو الحـرب بينـك وبينه، تقتحم مساماتك وكل ذرة من دمك وخزات غريبة عذبـة، قاسـية، طفوليـة، عابثـة، لذيـذة، لا تـدري كيـف تكـون. أحيانـاً تراهـا كالسـيل الجـارف لا يوقفـه أي سـد مهمـا حاولـت. الحـرب مـن أجـل اللـذه هـذه أعذب مما يتصور المحروم حين انتصاره على الجسد بعقدة النقص أو الموت البطيء، الكريه، والذي تشيع منه رائحة العفن والهرم.

حينمـا يثـور الجسـد معلنـاً رغبتـه الجـادة بـالارتواء، تنـادي كـل وجهات أفكارك أن ساعديني، لكنك تبقى وحدك. لا الفضيلة تسكته ولا الإهمـال أو الانـزواء وراء كلمـات الإحسـاس بـالعلو عليـه أو المسـؤولية، أو رقي مكانتك بالمجتمع، أو الفوارق الثقافية والطبقية وما إلي ذلك من كل ما كبل الإنسان بها جسده.

ثـورة الجسـد طاغيـة تتكدس عليـك مـرة واحدة لتتمـزق بـين خلـع ملابسـك الداخليـة والسـير بـالمنزل عارياً، وكـم تتمنـى أن يـراك الجميـع فتبتـهج حواسـك الداخليـة ويزغـرد العصـفور الصـامت ليـدخل الهـواء

بأعماق الرغبة الجامحة، تتكسر كل حواجزك وسدودك فتتصارع مع العقل للخروج إلى الشرفة بملابس خليعة ليرى الناس جسدك الثائر فيغيثوك وينصفوك منه، حتى ولو مجرد النظر والاستمتاع بالعري أمامهم متحدياً حبهم للحشمة خارقاً حدود أفكارهم، لتوقعهم بشر أعمالهم بالثرثرة والحديث عنك واستغابتك، فتكون بموقع الضحية والاستمتاع بالإحساس بصدق المشاعر والأفضلية عليهم.

ثورة الجسد كثورة الطبيعة، لا تنطلق من فراغ، لها أسبابها ولها منطقها، وكما ثورة الشعوب تنطلق مكسرة المباني قاطعة الأشجار ومهدمة كل الحواجز، وحينما تنطلق فلابد من دمار هائل مخلفة وراءها إحساساً شاملاً بالزلازل والعواصف والكوارث المريعة.

حينما لا أجدك أحياناً، تبقى هذه الثورة تلح علي وحين إلهائها بشيء كاذب تتراجع وتقتل لكنها تقتل معها أشياء منك علقت بجسدي منذ آخر لقاء.

الحرمان كالقسوة إخلال بتوازن الطبيعة.

فحين الغريزة تُقهر لابد أنها تثور وتدمر شيئا ما بطريقها. الغريزة لها رد فعلها. فكم وضعتُ المصائد والمكائد لرغباتي من أجل أن أبقى لك وحدك حتى في غيابك و جفائك، لكنها تنتقم مني لتقوم بثوراتها المفاجئة. كل شيء في هذا الكون متوازن مع سواه وإحداث خلل لابد من أن يولد كوارث، أؤمن بهذا ولن أحيد، ربما لهذا نجد أن للشعوب التي قدست الحرمان واعتبرته أكبر الفضائل، حظاً كبيراً من الكوارث الطبيعية، أو على الأقل لها حظ من الفقر والتعاسة. فالانسان جزء من الطبيعة وأي افتئات على حقوقه وحرمانه منها يولد انفجار هذه الطبيعة انتقاما لبعضها، وغريزة الانسان بعض من الطبيعة، أما

الشعوب التي اعتبرت الغريزة الجنسية كغريزة حب البقاء وكغريزة الجوع، وسمحت لها بأخذ ما يسكتها دون تعقيدات وقيود وكوابح ومقدسات، نراها طفرت إلى مستوى الحضارة والسعادة وتنظيم المجتمع أكثر.

لا أدري كيف اجتاحتني هذه الأفكار النارية وأنا في ذروة الشوق إليك، عارية بقيت اقترب من الشباك، أرى جسدي كأجمل جسد بالكون، وأريد له حقه. اتصلت بك قائلة:

- أريدك.

- لا أستطيع لدي ما أقوم به.

- إن جسدي ثائر وكما تعرفني صريحة معك، إنه لا يثور هكذا كل يوم، لكنه اليوم يتّحد مع حواسي ضدي ويؤلمني من الرغبة. أتعلم أن الرغبة تؤلم حينما تجمح ولا شيء يسكتها فتترك أثراً من الكآبة والانهيار وربما الموت؟

- حبيبتي سومر إنك تخيفينني.

- اليوم فتحت عيني صباحاً ورأيت أن الشمس مشرقة والجو دافئ بشكل استثنائي بهذا الوقت، دافئ بشكل اخترق كل مساماتي ودغدغ كل أماكن الإثارة فوددت ان تضغط يدك على صدري وان تتحسس أصابعك نعومتي، أريد أنفاسك لأتنشقها، ولسانك لأمتصه فأغيب وأدوخ بلذة شابة ممتعة. إنك مجنون تضيع هذه اللحظات وأنا خائبة أحبك وأنت لست لي.

- إنك تثيرينني، أتعلمين أنني الآن بقمة الإثارة.

- تعال أريدك الآن، أرجوك لا يمكن أن تتكرر هذه الحالة التي تجتاحني، قد لا تصدق إن قلت لك إنني لم أرها منذ سنوات، شيء ما له علاقة بالطبيعة ودوران الأرض والقمر والنجوم والشمس.

الغريب أنني عندما فتحت التلفزيون شاهدت وقوع أكبر كارثة زلزال منذ أكثر من أربعين عاماً، وجدت تسونامي اندونيسيا المرعب الذي فاجأ الدنيا. غريب أن يثور جسدي مع ثورة الأرض والبحر، ها أنا أجن شوقاً لجسدك رغم رؤيتي الجثث تتكدس أمامي والموت ينتشر بشكل مرعب، لم يسكت جسدي رؤية كل هذا الدمار. عجيب هل أنني أصبحت قاسية إلى هذا الحد؟

تذكرت حينما قلت لي إنك تثار جنسياً من رؤية القتل والدماء ورؤية الحروب، اعتبرتك لست طبيعيا حين تجن إثارتك برؤية تلك المناظر، ظننت ان عندك شيئاً من السادية، وها أنا لم يطفيء ثورة جسدي كل ما رأيته من مناظر الخراب، هل هو الدفاع من أجل البقاء؟

هل هو ردة فعل لا إرادية لجسد الإنسان بمواجهة الموت والفناء؟ أم هي شعور الحيوان القابع بداخل كل بشر منا، هذا الحيوان الذي لا نعرف متى وفي أي حال من أحوالنا يقتنص الوقت فيثور؟

ولماذا تزامنت ثورة جسدي الهائلة هذه مع ثورة الطبيعة بذات اليوم؟ إنني لم أرها منذ سنين حتى اتهمت نفسي با لبرود الجنسي..

تواجهنا أشياء كثيرة دون أن نعرفها فلأتابع ثورة جسدي مع حركة الطبيعة منذ اليوم، علني أخرج باكتشاف أعرف من خلاله نفسي وجسدي.

وترها المحبط

هاهي الأعوام تمر على علاقتي بك، أعوام عاصفة، جننت بها معك. أعلم أنني أهدرت معك عقلي ووقتي، فأنا منذ سنوات أعرف أنني بالنسبة لك شيٌ للمتعة فقط لا مستقبل له. أعرف أنني أنا التي كنت أحافظ على إبقاء جنون الجسد جذوة لا تنطفئ بقدر الحب الذي أحتاجه، وأعرف أنني أحاول إسقاط رغبتي بعلاقة حب مميزة، أنفخ بك الحب لساعات كمن ينفخ الروح بجماد ثم يخمد ما أن ينتهي من حركته الميكانيكية وفعله الانعكاسي، لكنني ما كنت أعلم أني سأتغير بعد كل هذا الجنون وسأشفى منك بعد الإدمان الكبير الذي أصابني.

كان حبي لك يدعوني لأن أحب كل شيء فيك، حتى ما يتركه رأسك من شعيرات تعلق بالمخدة، بل سأصرح لك بشيء خاص، هو أنني كنت أحتفظ بكل أوراق ما نمسحه بعد ممارسة الحب، كان سائلك مقدساً عندي، شيء منك، به رائحتك، تابعك، لو أتيح له أن يكون أطفالك لكان. كنت أحتفظ بالأوراق التي تحوي أطفالك المفترضين، أشمها بين الفينة والأخرى، أضعها في أكياس نايلون، لا ادري لم كنت أشعر أنني من خلالها سأحتفظ بك على بعد وسيبقى هناك خيط مشدود بيني وبينك. وطالما انقطع الحبل الروحي مابيننا وما عادت الأحلام بيننا نذيراً، واتصالاً، وإخباراً كما كانت من قبل، ولطالما لم تعد الاحلام تخبرني تحركاتك قبل وقوعها، فلعل هذا السائل يُبقي لي شيئاً منك، وقد يناديك فتشعر بي على بعد. كنت أظن أن شعوري صادق بأن هذه الأوراق التي تحوي حيامنك الميتة لها روح وتناديك، ليتك تصدقني لتقول لي الحقيقة:

هل نادتك تلك الأوراق، الوهم الذي أخبئه عنك؟ هل سمعت صرخات انطلقت ساعة حب ولهفة نحوي حين اعتصرها جسدي منك حباً لتمنحني اللذة فتسعدني لأيام؟

هكذا أنا لي تقاليد حسية في الحب، في مرة كنت أنتظر الغد وكان يوم لقائنا الأسبوعي المقدس، حلمت تلك الليلة أنك تجلس مع زوجتك وأجلس أنا معكم، كنت أراكما في الحلم تتناقشان بعملٍ ما ينتظركما في اليوم التالي غير آبهين لوجودي، ثم تلتفت وتعتذر لي من عدم قدرتك المجيء.

في الصباح حين اتصلت بي كعادتك في الثلاث سنوات الأولى عندما كنت تتصل بي كل صباح وقبل القهوة أحياناً لتقول لي صباح الخير، سألتك بخوف:

- هل تأتيني اليوم؟

صعقت حين قلت لي: آسف حبيبتي، اليوم لن أستطيع، دعيه للغد، عندي ما أعمله مع العائلة.

ماذا تفعل الآن؟ تهيئ الطعام لزوجتك السعيدة، التي لا تعرف ما فعلته معي كل هذه السنوات؟ أم تجلس معها أمام جهاز التلفزيون تستمتع بوقتك بعد الطعام؟

على الأرجح انك تكون في مثل هذا الوقت قد أنهيت طعامك وتمددت على الأريكة ورفعت قدميك على وسادة. حينما تكون عندي تفعل الشيء نفسه، تقول إنها عادتك دائماً، تفعلها كل يوم في بيتك. أعرف عاداتك، ولا تعرف أي جروح خلفت لي، ولا تعرف مدى قسوتك معي. أعرف كل حبك للحياة والمال وحبك لذاتك، وأعرف كم تخشى

فقدان ما عندك، لكنك فقدتني بمجرد توقعك أنني أريد منك شيئاً. كم أنت مسكين بخطأ تصوراتك. كنت أظن أنك أحرص من أن تفقدني، فأنا بالنسبة لك فرصة لا تتكرر. كنت تقول: ماذا يريد رجل عنده امرأة مثلك؟ إنه يملك كل شيء. وكنت تقول لن أتخلى عنك أبداً، وتخليت.

وتقول سوف أقترن بك علنا لو كان آخر يوم بحياتي. أسرعت لتكتب عقداً إسلاميا دونما أطلب منك ذلك .

وحينما أعاتبك اليوم وأذكرك بما كان، تنكر أو تقول إنك لم تقل ذلك، أو تدعي أنك نسيت، ثم تتساءل مع نفسك هل قلت أنا ذلك حقاً؟.

الغريب أنك كنت تعاملني على أنني امرأة لا طريق أمامها سواك، ولا أدري هل هي الثقة الكبيرة بالنفس، أم هي ثقتك بحبي ووفائي وجنوني الذي لن أخبئه عنك أبداً.

قلت لي حينما أعود منك أكون لطيفاً جداً مع زوجتي وأعوض تعذيب الضمير لأنني أعرف أنني أخدعها وأنا واثق من أنها لا تخدعني.

وأنا؟

من سيرضيني ويعوضني عن الخداع الذي أعلم به علم اليقين وليس مجرد شك كما هو عندها؟ ومن هو الأسعد يا ترى؟ أنا أم هي؟

أعرف أنك مرتاح الآن كثيراً، لأنك تشعر أن الخطأ هو الذي أوقعك بالعلاقة بي وهاهو قد زال الان، أحقا كان خطأ وزال؟. كنت تقول إن انتهت علاقتنا لن أقيم علاقة بامرأة أخرى، لأنني لا أستطيع أن أوفق بين أثنتين. الحقيقة ليست كذلك، فاسمع الحقيقة:

إنك مسحوق من قبل زوجتك، ومستلب حتى بإمكانية تصرفك بما في جيبك ومحاسب من قبلها. لا أدري ما الذي فعلته معها حتى صار راتبك ينزل لحسابها. لم أسمع أن رجلاً يعمل وزوجته تعمل أيضاً، وينزل راتبه لحسابها وتحاسبه على كل ما يدخل بحسابه وكأنه محجور عليه. علك فعلت شيئاً قاصراً في ما مضى، فاشتكتك وطلبت الحجر على راتبك، أو هددتك فانصعت لها، وأنت الشرقي الآتي من العالم الثالث، يتحتم عليك أن تخضع لمن آواك ببلده واعتبرك إنساناً كاملاً. كنت تقول: إنها ساعدتني بتعلم اللغة وكنت أتعلم مع كل حرف أسلوب الخضوع لها، أعترف أنها دجنتني، وكحيوان شرس نزعت أنيابي وأظفاري كما أعترف بأنني أجبن إنسان على هذه الأرض أمامها.

أنت جبان أمامها، فهي نزعت أنيابك كشرقي، ولم تنس أن لك أنياباً وأظفاراً أخرى غير مرئية لها، تظهرها أمامي لتمثل علي دور الرجل الشرقي المسيطر على المرأة، والذي يطالبها بالخضوع له. ازدواجية لا يملكها غير المصابين بالشزوفرينيا، وأعرف أنك مصاب بها. كثيراً مارأيتك تسير وتحدث نفسك، وحين تنام طالما تصك أسنانك بالليل لتخرج صريراً مرعباً خاصة عندما تعود من سفرك معها وبعد شهر من حرمانك مني. أول يوم يكون الصرير قوياً ثم يخف بعد لقاءاتنا. كنت تأتي من الإجازة مريضاً، أقول لك لا تخف فأنت لست مريضاً إنما بحاجة لي. جلسة واثنتين وتعود لطبيعتك. تأتى من السفر ضعيفاً، ساهماً طرفك بالأفق، تقول لي :أشعر أن روحي غادرتني. حينها صرت أشكُ في أن زوجتك ربما تسقيكَ شيئاً مؤذياً قد يكون منوماً او مخدرا، خاصة بعد أن كشفتكَ وعرفت خيانتك لها فأرادت الانتقام بصمت.

ما كنت أعلم أنك قادر على تمثيل العاشق أمامها بما لا يترك لها مجالاً للشك بصدقك وحبك ووفائك.

اليوم اتصلت بمنزلكم تلفونيا، كان تلفونكم صامتا. أين ذهبتما؟ ربما ذهبتما كزوجين سعيدين إلى المسرح. حتما هي أعدت لك برنامجاً حينما تترك عملك بنفس المؤسسة التي نعمل بها معاً، ولتشغلك عن الإحساس بفقداني، كما تريد أنت إرضاء ضميرك، فتهيئ الطعام، وتعمل يومياً بحديقة الدار.

أعرف أنك تحب العمل بالأرض، وأعرف أنك تحب الحركة لأنك تعتبرها رياضة، تخاف الشيخوخة فتتصرف مع جسدك وأنت بالخمسين كما لو كنت ابن العشرين، جسدك توافق مع الفكرة مثلي حين أردت تجاوز زمن الحرمان وكنت أريد أن أوقف الزمن، لكن حبك دفعني إلى التعب. أراني كبرت الان عشرين عاماً منذ أن عرفتك.

كم شعرت بثقل الزمن عليّ وثقل حركة الأرض حينما الحق بك إلى محطة القطار وأنت عائد الى منزلك. تخرج أحيانا من العمل دون أن تخبرني، تتسلل وكأنك تتقصد قهري، وتعرف كم يزعجني هذا. أنهي عملي وأعد اللحظات. كان الوقت يمر بطيئاً، يقصّر عمري ويضغط على روحي، وحينما لا أجدك أحاول اللحاق بك قبل أن تستقل القطار.

كان الطريق بين مبنى المؤسسة والمحطة ربع ساعة سيراً على الأقدام، أحاول أن أختصره بخمس دقائق لاهثة، مجروحة. أشعر حينما أمشي أنني أدفع بالكرة الأرضية الكبيرة دفعاً بقدمي، على حجمها وثقلها، أدفعها بحرقة وكأنني أقف على قمتها، أحاول أن أحركها لتسير صوبك. ما كنت أسير بقدمين، بل بشيء كالعجلة حباً للوصول إليك.

أراك بعيداً، تقف على النقطة الأخرى وحين أصلها بعد جهد ينهد حيلي، تكون أنت قد غفوت بالقطار كعادتك.

كنت غالبا أعود وحيدة متعبة، لم استطع اللحاق بك ورغم هذا لم أتعب ولم أكلّ. مرة بقيت أنتظر القطارات، ورغم ان لوحة حركة القطارات تخبرني بأن ثلاث قطارات ذهبت لمدينتك لكنني أوهم نفسي أنك لم تغادر المحطة. دخنت ثلاث سيكارات، بحثت عنك في جوانب المحطة، بكيت بصمت حتى عجزت عن اللقاء فهممت بالعودة، خائبة منك كعادتي، استدرت بظهري متوجهة لباب الخروج، وإذا بك خلفي تنقر كتفي. استغربت وفرحت، عرفت أن إحساسي كان صادقاً وانك لم تغادر المحطة حقا وليس وهماً، مع أنني لا أملك أي دليل.

سألتك:

- أين كنت وكيف رأيتني؟

- القطار لم ينطلق بعد، تأخر بسبب عطل، رأيتك من النافذة.

لقد كنتَ متأكدا من رغبتي برؤيتك، بل أيقنتَ جنوني فقلت لي:

- أعرف أنني إن لم أنزل لتريني فستبقين فترة طويلة.

أنت تعرف كم أنا أحبك، وتعرف أنني أتعذب، وتقف سلبياً أمام موت إنسان موتاً بطيئا. كنت تعتقد أنني مريضة وأن ما بي ليس بسبب تصرفاتك وخياناتك لعهودك معي، بل أخذت تسرد لي عن مريضة كانت تقف يومياً أمام باب عشيقها، فملّ منها وضجر، حتى أخبر الشرطة، لأنها أزعجته بملاحقتها. ترى، هل كان هذا تهديداً مبطناً لي لأتوقف عن حبك، وأنا البريئة ماكنت لأفهم؟ أم لتقول لي إنك فنانة حالمة، مشدودة الأوتار، عازفة بعصبية مريضة، أي ان مشاعري خرجت

وشذت عن إطار الحب الطبيعي؟ وهل هناك مقياس للحب؟ وماهو الحب الطبيعي وماهو عداه؟.

غريب أمرك، بعد كل حبك لي واقترانك بي تنكر عليّ الحب وتقرنه بالمرض. فليكن يا صديقي مرضاً، فكثير من العلماء سمّى الحب مرضاً، ونقصاً في العقل، وقال أحدهم إنه حركة الروح الفارغة، وكثيراً من الأوصاف، فهل توقف العشاق عنه، وهل شفي جميع الناس من هذا المرض بالعالم؟ ابداً، وصدق من قال إنه الداء الوحيد الذي يركض الإنسان إليه ويتمناه رغم علمه أن لا شفاء منه. آه، كيف تستطيع فهم قصة محمود ذلك الرجل الذي كان يعمل حارسا لمشفى السل الرئوي في مدينة التويثة العراقية، كان يعمل معلما حينما أحب فتاة ورفض اهلها تزويجها له، اصيبت هي بداء السل وادخلت ذاك المشفى، فما كان منه إلا ان ترك عمله كمعلم وعمل حارسا للمشفى ليكون قريبا من حبيبته وبقي حتى ذبلت هي بالسل وماتت، وبقي هو يعمل حارسا تعبيرا عن الوفاء لها وللمكان الذي ضم أحاديثهما ولقاءاتهما البريئة لما قبل رحيلها عن العالم، كان ذلك الرجل يحفظ قصص المرضى وأغلبها قصص عشق خائبة اوصلتهم الى أن يكونوا سكان ذلك المكان المنعزل ..

قد تكون مللت بكائي بحبك، ولم يملّ قلبي سعيه الدائب نحو الحب وإن كان عبر جبال البكاء المر. قد تكون مللت الشرح لي بإيماءات وبأساليب واضحة، لكن قلبي يغلق الباب أمام رسائلك الصريحة كي لا يفتح قبري. قد تكون مللتَ تهالكي عليك، حين جعلتُ جسدي شيئا لراحتك المؤقتة، وقد تكون برأتَ من عشقك المحموم لي حين اغتسلتَ ببرد الشتاء سكوناً قارصاً، وأنا التي أشعلُ كوانيني لذة ساخنة للحياة، لم أتبرأ من ذرة واحدة من عشقي لك وليكن ما يكون.

هل تغيرت النظرة للحب كأعظم قيمة عرفتها البشرية؟

لك فلسفتك ولي فلسفتي، فأنا مؤمنة أن الأخ والصديق والحبيب لابد وأن يبقى مع أخيه أو صديقه أو حبيبه حتى في حالة المرض، فهل نرمي مرضانا بالشارع ونتخلى عنهم؟

أم ننقذهم ونرسل بهم إلى المشفى ليتعالجوا؟

لم تكن أنت مرضي فقط، بل كنت صدمتي التي بدأ تأثيرها يدب الى قلبي فيرهقه.

هذا العام اعتقدت أنني سأنساك وأرتاح من عذاباتي، قاطعتك، لم أرد على هواتفك وكنت مشغولة بألحاني ومشاريعي الفنية، حاولت أن أقنع نفسي، ألومها على حبي لإنسان أعرف تماماً أنه يخدعني بأشكال عديدة وباسم الحب، يقتلني ..

وتستمر سومر في بوحها قائلة:

اليوم سخرت من نفسي، لأنني أعي كل ما يدور، ورغم ذلك لن اضع حدا لهذه العلاقة، وصفت نفسي بالغرائزية والأنانية، لأنني لا أحبه هو لذاته إنما أحب ذاتي، ولكي أسعدها أراني متحملة هذا الضيم ومستمرة بالعلاقة طمعاً بسويعات اللذة والسعادة.

ألعن ابن حزم الذي يقنعني دائما بأن أبقى على هذا الحب رغم عذاباتي، ابن حزم الذي برر لي هذا الجنون في كتاباته، فالحب عنده أنه اختيار شخصي. إنني اخترت هذا الحبيب لأن روحي أرادته وهي ترتاح وتنشرح لرؤياه، ليس مهما من يكون هو طيباً أم خبيثاً، المهم أن أمتع روحي منه وهذا غاية الحب، فالحب عنده ليس بالضرورة متبادلاً. أحبني أم لم يحبني، روحي تعشقه وتريده هو دون سواه، وأنا وروحي شيء واحد.

صرت أركز على تذكر جروحي وكلماتك، ألمي وقسوتك ساعة انهياري أمامك متذللة طالبة المزيد من الوقت.

أعتقد هذه المرة أنني تجاوزت بكائي عليك وها أنا ذي أعيش بدونك بشكل طبيعي.

مر أسبوع وأنا كذلك، تتصل بي وأتملص منك. كنت أحاول أن أريك حياتك بدوني، وكيف ستكون؟ وهل بها شيء من حلاوة وسعادة؟ عشرات المرات تعترف لي بأن حياتك بدوني ليست جميلة، وتكرر دائماً:

– إن الحياة معك أنت فقط وبدونك فهي لا تساوي شيئا أيتها الجنية البارعة، ما أسعدني بك، ومن أين طلعت؟ أنت حورية طالعة لا من البحر بل من أعماق التاريخ لتمنحني السعادة، فأنت سعادتي.

أسبوعان كاملان أنت تتصل يومياً ولا أجيب، يرتعش قلبي لك حباً وأحاربه. أحاول معالجة روحي من هذا الحب الذي يتركني وحيدة بلا رفيق، وغريبة بلا أهل، ولكن حتى تلفوناتك التي لا أجيب عليها صار لها انتظار، وحينما تتأخر أخشى عليك أو أخشى أنك نسيتني إلى الأبد . أكاد أن أرفع السماعة أحيانا لأتصل وأتراجع مقنعة نفسي إنني قطعت شوطاً بالتحمل، لأتحمل أكثر وحتماً ستكون النتيجة أفضل وسأنهي هذا العذاب، فكما علمونا، أن الصبر مفتاح الفرج، فأين هذا الفرج؟

كنت أقوّي نفسي بكل فلاسفة الأرض لأبتعد عن الحب. أبحث عن فكرة تثير فيّ حب ذاتي وتثوّرني عليك. أكتب في مفكرتي كلمات أحاول بها نسيانك:

مزقتُ ثوب الجواري، وطلّقتُ ظلال النوافذ . أيها المستريح بنومك، اليوم لا كالأمس، يا من ارتضيت بَردَ الأعراف وثلوج التقاليد، اليوم،أعلن صرخاتي، كنت أحبك، إذ كنت تشبهني، وكنت تشبهني، حينما كنت عادلاً، وكنت عادلاً، حين قدرتَ عطشي للحياة.

كنت تشبهني حينما كنت متمرداً، تعشق الثورة وتهفو للحب. طريقك الآن موت، وطريقي حياة. طريقك معروف، إيقاع ممل يتكرر كل يوم، وطريقي ورد لا يُعرف لونه حتى يتفتح، سأرتشف منه عبقاً متجدد الربيع. دعني منك ودعك مني، سيؤلمني جرحك حتماً وسيترك في القلب ندوباً، لكنها أهون من إطفاء شموعي. تركتَ لي الرسائل الصوتية ولم أجبك، طرقت بابي عدة مرات ولم أفتح.

اليوم تحرك الشوق بالمارد قلبي، صممت على تقبل اتصالاتك، إذ انهارت كل محاولاتي للصمود . خفت عليك وعلى الحب أن ينتهي من كثرة اتصالك ورسائلك الصوتية دونما نتيجة. خفت عليك من اليأس مني والإبتعاد، وخفت عليك من أن تغير حياتك حسب ما هو متوفر لك، وأنا أعلم أنك دائماً تكيف نفسك بما يتاح لك، حتى أشعر أحياناً أنك توهم نفسك بالسعادة لتقنعها بأنك سعيد وتعتبرها حقيقة. أذكي أنت أم حجري، أم صبور، أم قانع غير طموح؟

لا أدري، لكنني لا أشبهك بهذا وحينما أريد هدفاً مؤمنة به أركض وراءه ولو على جثتي كي أصل، وأنت الآن كما قبل سنين، هدفي.

بعد شهر اتصلت بك لأقول لك إنني كنت مريضة وقد نسيت التلفون المحمول في مكان آخر وقد كنت في بيت صديقتي لتعتني بي، وأنا متعبة حتى الآن، قلت لي: - أريد اللقاء بك، أنا مشتاق جداً وكم خشيت عليك من هذا الغياب وكم قلقت كثيراً عليك وعلى الطفلة، هل أنتما بعافية ؟

قلت: نعم. قلت لي :

- مصّرٌ أنا على رؤيتكما

قلت لك: لا زلت متعبة لا أستطيع اللقاء. اتصلت بي بعد أيام قليلة وكررت طلبك رؤيتي معبرا عن شوقك وحاجتك لي وللصغيرة، لكنني رفضت أيضا . فانقطعت عني.

يمر بعد ذلك أسبوع وعشرة أيام دون اتصال. أتصل فأجد هاتفك مغلقاً فأجن وأندم على ما فعلت. أعود كما كنت مجنونة بك ومريضة، أبكيك وأريدك، ومن أين لي بك.

اتصلت في مساء يوم والحب بلغ بي حداً لا يطاق، فإذا بصوتك يأتيني حزيناً، مجروحاً، قلت لي إنني في بلد آخر، أنت رفضتني ولم تعودي كما أنت فسافرت. أنا الآن مع بعض الأصدقاء.

قلت لك وبلا تفكير: أريدك

قلت: أنا بعيد الآن وغير ممكن.

أغلقتَ هاتفك قبل أن أكمل حديثي، بل أغلقت هاتفك لأسبوع كامل. أعرف أن ليس لديك أصدقاء، فهل كنت مع امرأة سواي؟. كنت أريدك أن تعود كما كنت، حبيباً متلهفاً، عاشقاً، رومانسياً، محباً للألحان كما كنت حين عرفتك وقبل سنوات، محباً للحب ومتفانياً من أجله.

كنت تحيرني بتغيرك معي دون سبب، حتى وقعت على كتاب في علم النفس والاجتماع يؤكد أن أطول مدة يستمر بها العشق هي ثلاث سنوات، بعدها يتحول إلى مسؤوليات وأمور حياتية مشتركة بين العاشقين، فلا يمكن أن ننتظر من الرجل عشقاً وغزلاً بعد ثلاث سنوات مثل أول عام ..

ترى هل الكتاب محق بهذا؟ أم أن هذا ينطبق على من يعتقد أنه عاشق؟ اما العاشق الحقيقي فلا يتغير حتى الموت. هل هذا سبب عذاب كثير من النساء، فهن غالباً ما يشكين من صمت الرجال بعد الزواج وغياب الرومانسية. أهذا البحث والرأي جاء مطابقاً حقاً للواقع؟ هل نحن لا نعلم أي شيء عن ذواتنا حينما نعشق فنتيه في عالم مجهول لا ندري ما هي زواياه ومخابئه، وحينما يتغير كل شيء تتفتح النوافذ لنرى ما وراء العتمة التي غطتنا؟ ولِمَ لا أصحو أنا بعد سبع سنوات؟ ولِمَ هو

لا يجزع من كثرة انفصالي عنه وعودتي إليه؟ هل أنه الحب أم الحاجة الجسدية يا ترى؟ كنت عندما أساله:

- هل تحبني؟ يجيب مستغرباً

- أمعقول بعد كل هذه السنوات تسألين هكذا سؤال؟ ما الذي يجعلني أستمر معك طوال السنين لولا الحب.

أقول له متلهفة غير مصدقة، لكنك لم تقلها لي منذ زمن، عليّ دائماً أن أسألك وحتى في أجابتك لي لا تقل إنني أحبك، بل تبين دائماً دهشتك من سؤالي. أين الحقيقة وهل أنت صادق، ليتني أعلم.

مرت علي أكثر من عشرة أيام، رأيته في الحلم وكأنه يحمل حقيبة منتقلا الى بيت جديد، حيطان البيت مزخرفة بالبياض بشكل لا يوجد سوى في الاحلام. أفزعني الحلم هذا، وفسرته على ان لديه امرأة جديدة غيري. عاد بكائي وجزعي من كونه بعيداً وناسياً، وكالعادة حينما تكون العلاقة ليست على مايرام، يكون كل شيء غير مقنع لي فكل الناس يصبحون مملين، وكل الأماكن موحشة، حتى يغدو الموت أول الكلمات فى قاموسي ..

عندما تكون علاقتي به مهددة بالانفصال، أراه أعظم رجل بالعالم، بل أراه آخر الرجال، حتى ظننت حقاً أنه لا يوجد رجل يشبهه. كنت حينما أسير بالشوارع وأجد نساء جميلات يسرن مع رفاقهن غير المقنعين بنظري، أقول في سري لو أن هذه الشابة الجميلة تعرفت عليه، ألا تجن به مثلي؟ كنت أفعل المستحيل لأبقى معه، وكي أقنع نفسي أنه ليس ككل الرجال، اتذكر أحاديث النساء اللواتي يشكين قلة الرجولة في العالم وعدم وجود من يقنعهن بالحب، بعد أن عجزت عن إقناع نفسي بجنوني به وتعلقي غير المنطقي بحبه.

وترها الباكي

مرة دعيت لحفلة موسيقية في بلد أوروبي. اقتربت مني إحدى النساء العربيات أثناء وجودي في التواليت وأنا أعدل مكياجي أمام المرآة بجانبها، اخبرتني انها رأت عيون الرجال وإعجابهم بي ومحاولاتهم التقرب مني. عرفتني بنفسها:

اسمي سهير، سعيدة بالتعرف إلى نجمة حاملة لواء الفن والحرية للمرأة بألحانها وأوتارها.

وبدون اية مقدمات صارت تحدثني عن الرجال، حذرتني بأن لا أرتبط برجل سريعاً. عجبت من جرأتها معي وأنا لم أرها سوى تلك الأمسية. كانت كمن يحمل رسالة يريد إيصالها بسرعة وبإحساس بالمسؤولية قبل فوات الأوان. أخبرتني أنها طلقت زوجها المصاب بالعنّة، وبحثت عن رجل آخر تحبه وتخلص له، لكنها آلت على نفسها أن تتعرف على الرجل وتجربه قبل أن تتورط كما حصل معها. الغريب أنها تتحدث عن المسألة بلا إحراج قائلة:

وقد جربت ما يقارب خمسين رجلاً من العرب، كلهم غير مقنعين، وكلهم يتحدثون عن الجنس على أنهم في القمة منه لكنهم عند الحقيقة لا يملكون شيئاً، إحذريهم. ربما مجتمعاتنا المحرومة والخوف من الحكومات قد أمات أعضاءهم، تضحك وتردف قائلة:

كنت عندما التصق بأحدهم وأريد أن أستمتع معه وأثيره، لا أجد عنده ما يمتع، أغلبهم أموات صدقيني. الجأ إلى خيالي فأتخيل نفسي

معلمة للجنس في معبد بابلي، يأتون لي برجال صغار لا يعرفون الجنس ومن واجبي تعليمهم قبل زواجهم. كنت أغمض عيني وأتخيل، كي أصل إلى الذروة، وليثيرهم انهماكي وإصراري على الإثارة. كم حاولت، دون جدوى. والمضحك في الأمر تقول:

إنني كنت أعتقد أن الغربيين ليسوا أقوياء كالشرقيين في الممارسة الجنسية، ثم اكتشفت أخيراً أنني على خطأ، وها أنا اليوم متزوجة من رجل غربي يمارس معي كل نهاية أسبوع أكثر من سبع مرات، يحبني وأنا أحبه كثيرا وأخلص له ثم تهمس لي ضاحكة:

لاتنسي ان الزواج عندنا عقد نكاح قبل كل شيء. وتستمر في التأكيد على أن الرجال الشرقيين هم الذين يملأون رؤوسنا بقصة ضعف الغربيين لأنهم لا يريدوننا أن نرتبط بمن هو أفضل منهم. ربما يعرفون بأن الغربيين أرقى منهم ويعاملون المرأة أفضل.

ترى لماذا حدثتني سهير عن كل هذا؟ وهل كان حديثها منطقياً؟ هل تجرأت على إخباري بكل هذا من أول لقاء معي لأن لديها فكرة شرقية مفادها أن الفنانات يمارسن الإباحة والتنوع الجنسي؟

كانت هي تتحدث معي عن ضعف الشرقيين، وأتذكر قوتك الخارقة في الجنس، أتذكر كلامك عن مجنون في قريتكم، قلت لي كان يحمل سطل الماء بعضوه في الشارع مقابل درهم من أي شخص كان. أضحكتني الفكرة وأذهلتني. راهنتك بأنك تشبهه و سيبقى عضوك واقفاً حتى لو حملته سطلاً مليئا بالماء. وحقا فعلت انت ذلك، وأنا أضحك غير مصدقة ما أرى، حيث وقفت تحمل سطل الماء بعضوك لمدة ربع ساعة وأنا مندهشة ثم قلت لك يكفي. هل آمنت ذلك اليوم أنك

خارق بالجنس؟. هل أن حظ سهير لم يجعلها تلتق بخارق مثلك، وهل الخوارق قليلون، أم أن المرأة هي التي تجعل الرجل خارقاً؟

كنت تقول لي إنني لست كذلك مع زوجتي الأولى. فأين هي الحقيقة يا ترى، وهل عليّ أن أصدقك؟

كان حبي لك يجعلني أخاف عليك من كل النساء. وكان كلامك مع امرأة هو بالنسبة لي مشروعاً لخطفك بأية لحظة، فأنت الخارق الذي لو علقت به امرأة لما تركته، ترسخت هذه الفكرة بعقلي وربما هكذا أقنعت نفسي لأستمر معك رغم كل العذابات.

قد أكون امرأة لا تشبع من الحنان لكثرة الفقدان بحياتها . وقد أكون قد ظلمتك لأنني من بلد يُغتصب يومياً وينهار حتى غدا سماعي لكلمة وطن تبكيني على وطن كان، وليس هناك مؤشرٌ واحدٌ على أنه سيعود كما كان.

أبكي بمرارة من يبكي على مقتول، نعم وطني المقتول، يتدخل حتى بعشقي ويخرب عليّ الاقتناع بهذا القدر القليل من الاهتمام الذي تستطيعه أنت، المسلوب الحرية لصالح زوجتك.

بعد غيابك آخر مرة وعودتك من السفر، صرت أحصى التغيرات فيك، وبأخلاقك. هل يمكن أن يتحول الكريم بخيلاً؟ وهل يمكن أن يتحول الطيب أنانياً؟ وهل يمكن أن يتحول الرقيق فظاً؟

أسئلة كثيرة جعلتني أعيد تكرار عدم رفع التلفون واحتقار عواطف كاذبة، فبعد سفر وغياب دام أربعة أشهر، لم تكلف نفسك يوماً لتدعوني للعشاء خارجاً، وأنت تعلم كم أحب هذا .

منذ أكثر من سنة لم نجلس معاً في مكان عام، تأتى للبيت، نتعشى، قد أعزف على العود وأرقص، وقد أريك عرضاً للأزياء لملابس

مغرية جديدة أتقن خياطتها بنفسي من أقمشة رخيصة، أو من ملابسي القديمة التي لا أرغب بها فأغيّر تفصيلاتها، أو أقطع الأكمام وأقص الطويل وأضيّق الخصر فأصبح فراشة كما كنت تحب أن تدعوني أحياناً، فراشة ملونة وراقصة. كنا نعيش هذا بقمة الإحساس بالسعادة وتردد انت:

- إن الحياة عندك أنت وحدك يا سومر، أنت الجنة أيتها الجنية الأسطورية.

وعندما أشتكي من أزمات الحياة علي، أو عندما أشرح لك مأزقاً ما أمر به وأنا الوحيدة الغريبة مع طفلتي، تباعد تلفوناتك وتتجاهل أن تسألني حتى هل استطعت أن أخرج من الأزمة المالية التي تمر بي مثلا أم لا؟ أي حب هذا؟ أسألك مرات عديدة:

- لماذا أحبك؟ فتجيبني بكل ثقة بالنفس:

- لأنني رجل طيب..

فأين طيبتك حين تتركني بحيرتي، دونما تسألني ولو من باب المجاملة ما حلّ بي بعد أن رأيت رسالة البنك التي تقول لي أن حسابي منذ مدة طويلة بالناقص وإن لم يصبح الحساب إيجابيا خلال شهر سنلغيه. قرأت الرسالة ورميتها جانباً وأتيت بموضوع آخر ليس له علاقة بي. تجاهلت هذا في عنفوان الحب والشوق إليك.

الغريب بالأمر أنني حينما أقاطعك ترسل لي بأحلامك. أحلامك التي تأتيني تترى يومياً لتقلب كياني وتخرب كل قراراتي. من أنت لتتدخل بكل حياتي وتقلبها ثم تأتيني لتقلب حتى أحلامي وهدوء رأسي؟ هل أصدق أنك ذهبت لعراف في بلدك ليعمل لك سحراً، يدفنه

مع عظم ميت في مكان بعيد وعميق لايعرفه احد سواكما، وتخبرني انه سحر يجعلني - كما تقول - منقادة لك طوال عمري؟ هل أصدق السحر أم أصدق كلام زوجتك الذي نقلته لي أنت قائلا:

إنها قالت لك مارس الجنس مع سومر ولكن لا تحبها.

وبأنها أفهمتك أن الحب حرمان من أنثى بعينها، وهو وهمٌ، فأي امرأة مهما كان جمالها أو حبك لها ستصبح مثل سواها ما أن تمارس معها الجنس عدة مرات..

أهي أكاذيبك التي صففتها جيداً لأصدقها؟ أم ان زوجتك عارفةً بالرجال وأنا الساذجة في هذا الأمر؟ زوجتك التي تزوجتها حينما كانت بعمر 32 عاماً، وهي الأوروبية، ومن مجتمع منفتح لديها تجارب كثيرة مع الرجال حتماً. قلت لي أنها طبيبة تقوم بخياطة بكارة البنات العربيات والشرقيات في بلدها الأوروبي قبل أن يتزوجن وبعد أن يمارسن الجنس مع رجال أخرين. ثم تخبرني بأنك الرجل الأول في حياتها وليس لديها أية تجربة جنسية وهي عذراء لم يمسسها مخلوق قبلك.

هل أصدق أنك سحرتني وأنا التي لا أؤمن بكل السحرة والمشعوذين؟

حينما عجزت عن دفع ما بي من اضطراب بحبك ويأس من الإجابة على أسئلة حيرتني.. بحثت عن عنوان مشعوذ في ذات مدينتي الأوروبية، قلت لأرى ولو لمرة واحدة هل هناك شيء من هذا الذي تدعيه بأنك ربطتني به إلى الأبد.

طرقت باب الساحر بعد أن أخذت موعداً بالتلفون، فتح لي الباب رجل أسود، أدخلني منزله البسيط في ركن غير مريح من المدينة. بيت

أثث على الطريقة الشرقية، تفوح في البيت رائحة البخور وتفوح من جسد الرجل رائحة العرق والوسخ، قال:

- أتشربين شيئاً؟

- قلت: لا.

كنت خائفة أن يسقيني شيئا كمخدر مثلاً. قررت أن لا أشرب عنده أو آكل شيئاً. سألني من أي بلد وما هو اسمي وما الداعي لمجيئي. قلت له إنها قصة حب.

قادني إلى غرفة صغيرة جداً، طولها مترين ونصف وبعرض إقل من مترين، كانت فارغة إلا من سجادة، ويلتصق على الحائط ورق مكتوب عليه من الأعلى إلى الأسفل آيات من القرآن مكتوبة بعربية رديئة، كلها أخطاء نحوية وإملائية مضحكة.

أخرجَ ورقة من رزمة أوراق موجودة في الغرفة، ووضعها جانباً وقال لي: أكتبي اسمه واسم أمه وأكتبي اسمك هنا فوق. كتبت الأسماء، فرسم صورة إنسان وصار يشير إلى جهة القلب. كنت يائسة وكل ما رأيته لم يقنعني، إنما كان شيئاً أشبه بملء فراغ روحي أتعلق به ليمنحني ولو وهماً. كنت أعي أنني أغالط نفسي وأن هذا الرجل كاذب ولا يستطيع أن يفعل شيئاً وقد رأى حزني ودموعي التي تنزل غصباً عني، ورأى آهاتي التي كادت أن تشق صدري. قال:

إن هذه المهمة شاقة لأنه متزوج وزوجته تطبخ له يومياً وهو يأكل من طبخها ويتأثر بها ويسمع كلامها.

كان هذا مستوى فهمه للحب، أي أن المرأة تدخل قلب الرجل من خلال معدته، وهو لا يدري أنك تحب طبخي ولا تحب طبخ زوجتك،

وبأنك أنت الذي تطبخ في بيتكم وأن طعام زوجتك لا يؤكل كما تدعي، وبان ابنك كثيرا ما يتبادل النظرات معك والنكات حينما تطبخ زوجتك أكلة ما لا طعم لها ولا نكهة..

كان الرجل المشعوذ يتحدث ببعض كلمات عربية مع إنكليزية، فهو مسلم من شعوب أمريكا الجنوبية كما بدى لي. قلت له تحدث الإنكليزية إن كانت العربية صعبة عليك. صرنا نتحدث بعض الكلمات بالعربية وبعضها بالإنكليزية. كان لديه شيء من الخوف مني، عجباً وأنا التي أخاف منه !.

حاول أن يكون ملتزماً معي، خاصة بعد أن عرف أنني أعمل بمؤسسة تابعة للدولة، وهو يعرف حتماً أن كل عمله غير قانوني، فإن بلّغت عنه الحكومة ستترتب عليه أشياء لا تحمد عقباها، وربما كان وجوده في البلد كله غير قانوني. لكنه لمس حرقة قلبي عليك فأراد استغلال هذا. قال:

قد أستعين بشخص أرفع مني مستوى في السحر، ليعمل لك سحرا يجعله يتزوجك بغضون خمسة عشر يوماً، لكن عليك أن تدفعي مبلغاً كبيراً والنتيجة مضمونة مائة بالمائة، خمسة عشر يوماً وتحل كل مشاكلك..

إذن هو اطمأن من ناحيتي وذهب قلقه، لهذا أراد الإمعان في استغلالي بقدر أكبر. تركني للحظات، أدار بها الهاتف ليقول بالإنكليزية مخاطبا الطرف الآخر على الهاتف:

أرجو أن تعمل لها حلاً لأنها طيبة وعاشقة حقيقية وأريد مساعدتها، ثم ساوم الطرف الآخر- المفترض- على الهاتف ليحذف من المبلغ مائة دولار فيصبح المبلغ 750 دولارا.....

ضحكت على غباء بعض النسوة اللواتي يدفعن لهؤلاء، قلت له:

- لا أريد.

سخرت مما قال، فكيف سيتزوجني خلال خمسة عشر يوماً وهو متزوج مني سراً

ومتزوج قانونا من غيري، وهذا البلد لا يجوز فيه تعدد الزوجات علنا ولا بد من تطليق زوجته أولاً، وهذا يستغرق غالباً سنة ونصفاً ليستطيع أن يرتبط بسواها. أحقاً هناك أناس أغبياء لهذا الحد، كيف يؤمنون بالسحر؟ سألته عن سعر ما قام به حتى تلك اللحظة، قال لا شيء. عرفت أن لديه أملاً أن أعود مرة أخرى لأدفع له المبلغ الكبير لهذا يتنازل عن أي مبلغ الآن، لكنني شعرت بالشفقة عليه، ثم أنني أعطيته اسمي الحقيقي واسمك وخفت من أن يتداول الأسماء أمام الغير. فتحت حقيبتي لأدفع له مبلغ خمسين دولاراً وطلبت منه أن يكون كل شيء سرياً للغاية. أعطيته المبلغ بصوت قوي وثقة أشعرته بخطورة تداول أسمائنا ومضيت أمثل دور القوية التي لا تحتاج مساعدته. ودعته دون عودة للخزعبلات الى الأبد.

كيف يصدق الناس هؤلاء؟ وهل أن هناك من السحر مايستطيع حقاً أن يكرّه شخصاً بآخر ويحبّبه بسواه؟ وما هذا الذي ربطني بك هكذا مع وعيي التام بأنك غير صادق كما كنت، وبأنك تغيرت 180 درجة عن الأعوام الأولى؟ ورغم تخليك عني بكل المقاييس التي عرفها البشر.

تنتبه سومر الى وجودي وتؤكد عليه بالتفاتة سريعة منها لي قائلة:

قد تأتي بعض الأشياء على غير توقع منا، فنكتشف أموراً ما كنا نتوقعها حتى تلعب الصدفة دورا بالمفاجئة التي تصعقنا. ترى هل استطاعت صدفة اكتشافي أنه سارق كلمات وجمل من آخرين أن تغير شيئا من حبي؟.

عدت إلى المنزل بعد أن عثرت على الكتاب الذي قرأت مقالاته صدفة وأنا أقلب الكتب في إحدى المكتبات، وفجأة رأيت كلماتك التي سطرتها في مقالة يتيمة باسمك منشورة فيه، لقد سرقت بعض الجمل والفقرات نصاً، كيف اعتقدت أن الناس لا يقرأون وأنهم عميان عما تسرق؟ كيف سمحت لنفسك بارتكاب كل هذا؟ أين الضمير وأين النزاهة التي تدعيها أمامي؟ أين زهدك؟

حدثتني يوماً في بداية علاقتنا عن فلسفتك بالحياة ورددت كثيراً أمامي:

أنني لا أمتلك الأنا المتضخمة كما هي عند كثير من الرجال العرب. أشعر أحياناً وكأنني بحجم ورقة يابسة تسقط من شجرة في الخريف، تقول هذا وتنظر للطبيعة نظرة الحالم بعالم أجمل وإنسان أكثر سعادة.

كان هذا يسحرني ويجذبني إليك مثل اله اكتشفهُ وأحبهُ في وقت ما عادت الآلهة القديمة والأديان تسحرنا. كنتَ ديني وناموسي، وكنتُ نشوى بك حد الذوبان.

أتذكر يوم رأيتك في ساعة استراحة، حينما كنت الحق بك لاهثة أبحث عنك. كنت لا تحب الانتظار طويلاً عندما أتأخر لدقائق، فتذهب وحيداً متعللاً بتأخري. رأيتك جالساً على مصطبة بالشمس تأكل قطعة

خبز أسمر ممسوحة بزيت الزيتون، وعلى وجهك مسحة الزهاد وتاركي متع الحياة. كم أحببتك يومها حتى نزلت دموعي وأنا أراك من بعيد تنظر للشجر نظرة المشفق. حينها كنت مستعدة لأن أفديك بعمري وأواجه كل مصائب الدنيا من أجلك وكنت أغني لك:

لهفي علينا، أنا وأنت، حتى لا تتكسر بقايا الأشياء نهرب. حين لفح حرائقي يهجم
أتعجّل كؤوس النبيذ، لأعيش مع افتراض وجودك. تكسر أنت شبابك العامر، إلى حيث الخبز والزيت، تبعد الشهوات لتنجو من عذابات اللذة. مقدس أنت في زمن الدماء

نبيّ أنت في زمن الأهواء. تحارب رغباتك، فهلا أتحت لي منها القليل؟

كسرة خبز أنا فاغرقني بزيتك النبيل. ورقة خضراء أنا أمضغني بين ثناياك وانساني

يا رجلاً يشطب سواه، من أين أتيت بكل هذه القوة على قهري؟

اليوم أجلس وحيدة، بعيدة عنك، تركتني ورحلت إلى بلدك. تركت كل شيء سوى حبك للمزرعة والاسترخاء ومتعة الكبار.

هل أرثيك أم اغني لك قصيدة مثل قصيدة الأطلال، إذ أصبحت كبيراً تعشق ما يعشقه العجائز؟ وهل حقاً أنك أصبحت كالعجائز؟ كيف وأنت تواظب على الرياضة اليومية والعاب القوى والتنس والسباحة وأرى جسدك باقياً كتمثال روماني صقيل، لاخطأ به، ولو اشتهى أي رجل بالعالم ان يختار شكل جسده لكنت أنت النموذج بلا منازع.

ماذا أفعل؟ وكيف أرتب نفسي على أنني فشلت بحبك وعجزت عن شدك لطريقي؟

تقول لي كم أتمنى أن تقيمي علاقة برجل سواي ليهتم بك، إنك تستحقين أحسن رجل بالدنيا، وأنا لست أنانياً، بل أتمنى لك السعادة حتى وإن كانت مع غيري.

تقول هذا وحينما تعود من السفر كعادتك تنكره وتدعي حرصك على البقاء معي، فكيف أتصرف مع قلبي وجسدي الرافض لسواك؟

وتري الحائر

كان الوقت قد اقترب من الثامنة حين سمعت أصوات صفوان وأخيه سعداء بذهابهم الى المدرسة، يتردد صوت أكبرهم قائلاً لأمه:

ماما أتمنى أن تبقى موناليزا معنا. أتمنى أن أراها حينما أعود. هل هي نائمة الآن؟

تخفض أمه صوتها قائلة:

لا ترفع صوتك ستوقظها إنها متعبة البارحة من السفر.

عندها خرجت من الغرفة لأقبل الأولاد مرددة معهم أغنية الطفولة التي حفظوها مني البارحة.

ذهب الأطفال وأنا مازلت بانتظار سيارة عائدة إلى بغداد. بقيت مع روعة، حدثتها بأشياء كثيرة عدا السياسة والثقافة، كل شيء حول البيت والملابس والزينة التي أعرفها، حتى أنني قصصت عليها قصصاً لترويها لأطفالها بعد أن طلبت مني ذلك لأنها لا تحفظ منها الكثير. استمتعت باسترجاع قصص الطفولة التي امتلأتُ بها من أهلي. كنت أقص لها بحب شد إعجابها وثقتها بي، فكتبت لي رسالة لأهلها في بغداد طالبة مني إيصالها لهم. أتذكر أنهم كانوا يسكنون مدينة الحرية ببغداد، لا أدري ما في الرسالة لأنني أعطيتها بعد ذلك لرفاقي ليلقوها بالبريد. ترى هل وصلت تلك الرسالة أم أن خوف رفاقي دعاهم لاهمالها بكل فيض مشاعرها التي لا نعرفها ..

قلقة بقيت من تعاطف"أبو صفوان"معي وخشيت أن يوصله تعاطفه هذا للبحث عن سبب منعي ومعرفة اتجاهي السياسي.

انتهى الصباح وبين ساعة وأخرى أطلب من "روعة" الاتصال بزوجها علّ سيارة قادمة تعيدني الى بغداد، لكن السماء ذاك اليوم كما البارحة، ألقت كل ما بها من ثلج، وأطلقت كل رياحها لتسد الطريق بين الحدود الجبلية وبغداد وتطيل ساعات رعبي.

كان البرغل المطبوخ مع اللحم والخضر الذي أعدته"روعة"والذي جاء "خليل" ليأخذ منه غداء سيده، ألذّ ما أكلته من طعام، وبرغم القلق والهلع الذي أخفيه شعرت بشهيتي للطعام قد عادت لي بعد مدة يومين حينما انطلقت من بغداد باتجاه الحدود البعيدة، ربما هو جنيني الذي طالب بحقه في البقاء وهو الذي لا يفهم ما يحل بي وبه بعد.

لا أدري كيف انقضى الوقت مع "روعة" التي اختصرت عليّ زمن القلق الى أقل منه، وإذا بخليل يطرق الباب طالباً مني أن أتهيأ للعودة الى بغداد، فالسيارة بعد دقائق قادمة ولابد من انتهاز الفرصة.

بسرعة خاطفة وجدت أن "روعة" قد هيأت لي متاعاً مما انتقته من فاكهة المنزل وطعامه.

ودعتها متأملة نهاية هذا الظرف الاستثنائي، لأعود وأكون صديقتها المقربة حقاً، وأقسمت على نفسي أن أسأل عنها وأكون قريبة لها في قادم أيام أترقبها بالتفاؤل. نزلت دمعة من عيني، قابلتها هي بالمثل.

ودعني "ابو صفوان" بعد أن أوصى سائق الحافلة التركي بي، وأكّد عليه أن يوصلني الى باب منزلي. وأعرف ماذا يعني للسائق أن يوصيه ضابط أمن الحدود.

في السيارة أفرد لي مقعدين، وبين ساعة وأخرى يترك السائق قيادة الحافلة لرفيق له ويأتي ليجلس معي حاملاً كيس الفستق تارة، أو

قناني العصير تارة اخرى، محاولاً فتح حديث معي بعربية مشوبة بلكنة تركية. بدأ حديثه يصبح مزعجاً، يسألني عن أمور خاصة، يقترب مني محاولاً الاحتكاك بجسدي وأنا أبتعد صوب الشباك، والانزعاج يبلغ بي حداً أرغب معه الصراخ في وجهه. لكنني بموقف لا يسمح لي خلق أية مشكلة، فالهدف الوحيد هو الوصول الى الأمان، وهل هناك أمانٌ لي في بلد يطاردني ويحاصرني ويحاول قتلي دون ذنب؟..

كان الهدف وصولي الى البيت، وهل البيت الذي اسكنه بيتي؟ هل هو كبيوت الناس الذين يغلقون أبوابهم ويحلمون بغد آخر؟

كانت السيارة العائدة بي الى بغداد تُكرر عليّ كل مشهد بكيت عليه في طريق المغادرة، كل شجرة أو ذكرى رأيتها معتقدة وداعها، حيث حسبت أنني راحلة حقاً. وكمن يولد من جديد ليموت مرة أخرى، كان شعوري مزيجاً بين الخوف والحزن والإرتباك.

مرتعبة، قلقة، حائرة، حزينة، كلها صفات لا توصل سوى الى الشلل وعدم القدرة على الإتيان بماهو مفيد. غابت عني كل المعاني سوى معنى الموت المحدق بي من كل الجهات.

هل البيت الذي أختفي به مع رفاقي لازال آمنا؟ وهل لديّ خيار آخر أذهب له غير هذا البيت؟ لم يكن في بيتنا السرّي هاتف، ولم أستطع أن أعرف، هل انكشف المنزل أو المخبأ أم لا؟ طوال الطريق وأنا افكر بهذا، لكن ابتسامةٍ عارية من السائق تعيدني الى واقع الحافلة التي تضج بشباب عراقي عائد من رحلة ممتعة خارج البلد. أحاديثهم عن النساء وعن البلدان التي ذهبوا لها تصك مسامعي حد الفزع. أحدهم يقول مفتخراً بفحولته متحدثا عن بلد كان مستجما فيه:

هناك، تستطيع أن تضاجع أجملهن بقطعة علكة. ما أرخص هذا البلد وما أرخص المتعة فيه !.

هكذا ينظر هؤلاء للمرأة وحاجتها الجسدية. وهكذا يُستغل البلد المنفتح على السياحة أمام أبناء الشرق المحجب. وهكذا تُجرد المرأة من إنسانيتها حينما تكون بحاجة مادية أو حينما يُغلق اقتصاد البلد لتكون العلكة الأجنبية التي تباع بأبخس الأثمان معادلاً لجسدها.

كنت صغيرة على كل ما أسمع، ومنشغلة بقراءة كتب السياسة والثورات ولم أعرف عن قصص المومسات في الواقع سوى القصة التي ذكرها لينين عن إحداهن حينما سألها ما الذي دفعها لهذا العمل؟ قادته لمضجع أطفالها الصغار مشيرة لهم..

كان ذلك حينما كنت أظن أن الاتجار بالجسد سببه واحد وهو الحاجة المادية، ولم أعرف ماعرفت بعد، بل لم أر عوالم أخرى او بلدان يصبح بها عرض الجسد العاري فناً ومتعة فيشكلن به عارضات الجنس مَعلماً سياحياً..

في الموصل توقفت الحافلة وإذا بالسائق يقودني الى مطعم فخم، يطلب أنواع المأكولات على طاولة كبيرة، مردداً قول:

- لقد أوصاني بك أبو صفوان وهو عزيز جداً.

لم أستطع أن آكل من الطعام شيئاً، شربت العصير فقط. لقد بلغ بي القرف من ابتسامات الرجل ونظراته العاهرة حداً كبيراً، لكنني أتماسك ولا أستطيع أن أثير أية ضجة.

بأي موقف أنا كي أدافع عن نفسي أمام محاولاته؟

ثم هي مجرد نظرات وابتسامات وستمر، لأ تحملها ولأفكر بماهو أهم، وبما هو اكثر خطرا على حياتي.

بلغت الحافلة بغداد، نزل الركاب جميعاً أمام مكتب السفريات وأنا معهم. اتجهت الى الشارع لأطلب سيارة أجرة تقلني الى المنزل، فإذا بالسائق يقف، مؤشراً لسيارة أجرة بجانبي.

يفتح لي الباب فأتردد قائلة له سأذهب وحدي شكراً لك. يصر على الذهاب معي قائلاً:

إنه الليل وأبو صفوان أوصاني أن أوصلك الى باب المنزل.

رجوته أن يتركني، فلم أفلح. ماذا أفعل وهو سيعرف منزلنا السري، بعد أن عرفوا إسمي الممنوع والمطلوب. حاولت أن أوقف السيارة بعيداً قليلاً عن المنزل. لافائدة، يسألني:

– أين باب بيتكم، فأنا لابد من أن أسلمك لأهلك كما أوصاني أبو صفوان.

لم يدعني الخوف وإلحاح السائق بمرافقتي أن أفكر باختيار منطقة أخرى أدّعي السكن بها والنزول هناك، ولم يكن عندي معارف يعرفون قصتي لأسميهم أهلي، خاصة وأنا مختفية عن الأنظار منذ عام والناس يخشون من المعارضين على أنفسهم.

لم يكن في المنطقة حيث نسكن بناية كي أزعم أن منزلنا بها لأودعه وأغيب بدخول بابها ثم اخرج بعد ذهابه. كانت المنطقة تلك جديدة، كلها بيوت من طابق واحد على شكل فيللات، بحدائق وأسيجة واطئة. أوقفت السيارة مقابل المنزل. نزلت وإذا بالسائق ينزل معي ويمسك بيدي ضاغطاً عليها بطريقة مشبوهة، قائلاً:

أراك غدا في مكتب السفريات. قلت بغضب ساحبة يدي:

آسفة لا أستطيع.

ما الذي دعاه للتفكير بأنني يمكن ان التقيه؟ عجبا، كل لامبالاتي به، وكل القرف الذي أبديته منه وهو يصرّ على اللقاء بي معتقدا امكانية ذلك. لماذا، ومن اين جاءهُ الأمل ليلحّ على اللقاء بي؟ لا أدري، ربما هم يحاولون دائما، ولايتراجعون بسرعة، معتقدين ان جميع النساء متشابهات، او انه طمع بي اذ رآني اسافر وحدي دون رجل فظن بأنني سهلة المنال. لا أدري.

ظل السائق واقفاً أمام المنزل وأنا أقول له بانفعال لأتخلص منه:

شكراً، مع السلامة، والرجل يقف مصراً على البقاء معي وأنا أضغط الجرس.

كان وقت وقوفي أمام الباب وبرفقة السائق التركي هو من أكره الأوقات التي مررت بها في حياتي. امرٌ مخيف لرفاقي أن أدل أحداً على المنزل. حتما هم الآن اعتقدوا- واهمين - عبوري الى الجانب الآمن، وهم يحترقون يومياً بقلق الموت الذي يطاردهم أينما حلوا. والان سيعتقدون أنني أرافق مخبراً ضغط عليّ وهددني لأدله عليهم.

لا أدري كيف مضت اللحظات التي تمنيت بها أن لا أكون، لأرى هذا الرجل الثقيل الدم واقفاً معي مصراً على رؤية من سيفتح الباب.

وإذا بأعز الرفاق خارجاً من داخل المنزل ليفتح لي باب الحديقة، متسمراً للحظات، مندهشاً لرؤيتي بصحبة رجل، ظاناً أنه من المخابرات، ينظر لي بعتب ممزوج باستغراب وتعجب وخيبة أمل. كانت

على وجه "ابو كريم" جميع حيرة الدنيا، رغم محاولتي الإبتسام لأطمئنه أن ليس من خطر عليهم. فتح الباب وبعينيه الف سؤال، قلت له:

- مرحباً، ثم عرّفته بالسائق كما عرّفت السائق برفيقي على أنه أخي.

شكرت السائق وودعته. حاول أن يقول لي كلمة لكنني لم أعطه المجال. دخلت المنزل وأغلقت الباب ورائي بسرعة كمن يتخلص من سموم او جراثيم قاتلة.

الوقت يقترب من منتصف الليل وكل من في المنزل نائم، لا زال "ابو كريم" مبهوراً ومستفهماً عمن كان معي، ولماذا رافقني، وهل السائقون يرافقون الناس لبيوتهم؟ .. سألني بجزع غير مصدق أنه يراني أمامه وهو يراكم الاسئلة علي:

- من هذا؟ أين كنت ليلة البارحة؟ كيف عدت؟ ماذا حصل لزوجك؟ ولماذا رافقك الرجل واستدل على المنزل؟ سؤال وراء الآخر، وبلهجة من يريد معرفة مكمن الخطر.

كان القلق قد أخذ منه مأخذا، والخوف لم يدعه يفكر سوى بوقوعي بالفخ. أيقظ صوت حديثه معي النيام، فانتبه الجميع وأفاق كل من في الدار. تحلقوا حولي وأنا لم أجد كلمة أختصر بها مامر بي سوى أنني انطلقت بالغناء بلحن باكي ودموعي تحرقني.

جلسنا جميعا نتحاور حتى الصباح. هل سيعرفون طريقنا؟ هل نحن في خطر وعلينا تغيير المنزل؟ هل وهل، وربما. كان كل شيء جائزاً، وكان الموت بطل التوقعات في الغالب.

البعض كان قاسياً معي في أسئلته، لكن أبو كريم الذي أناديه بابا، كان أكثرهم تفهماً لي وحناناً وخوفاً عليّ، بل وثقة بي. كان بين الفينة والأخرى ينظر لي بحنو قائلا:

- لا أريدك أن تموتي حتى لو كلفني ذلك حياتي. لابد وأن تصلي مع طفلك الذي تحملين ولابد أن أنجح في هذه المهمة.

ثم يضمني لأطمئن قائلاً لا تخشي يا ابنتي، ثقي بأنني سوف أدبّر لك السفر وبأسرع مما تتوقعين. يبتسم مردفاً:

- ها أنت عدتِ وكأنك لا تريدين فراقنا. ثم يهمس لي:

- البيت بدونك مزعجٌ ولاحياة فيه، لقد عرفت أنك روح هذا المنزل، وبانَ عليه غيابك منذ أول ساعة غادرت بها. لابد وأن تعيشي مع طفلك وزوجك، فلقد وعدته بإيصال الأمانة ولا بد لي من تبليغها قبل أن يحصل لي أي مكروه.

كنا ننتظر الموت في أية لحظة، وطرقة واحدة على باب الحديقة كانت كفيلة بإدخال الرعب الينا، كانت فرائصنا ترتعد بخوف الذاهب لغرفة التعذيب. كنا نسلّي أنفسنا بالنكات والغناء والأشعار، وكم بكينا على من يقتلون يوميا في ظلمة السجون.

كان لتفسير أحلامنا وقت يومي، نتندر على الحالم بها بكلمات فكاهية تبعدنا عن واقعنا لنضحك.

أول مطبخ تعلمت به الطبخ، كان في ذلك المنزل. أحرقتُ الطعام عدة مرات، وكم اخطأت بمقدار الملح ليصبح الأكل مالحاً مرة وقليل الملح مرة أخرى، و هذا أمر اعتيادي لمن لا يعرف الطبخ، لكن أن يكون

الطعام مرّاً، فهذا مالم يتوقعوه، كان ذلك حينما وضعت كمية عجيبة متنافرة من خليط التوابل جعل الطعام مرّاً لا يطاق..

كنا نشعر بصدق وضرورة أفكارنا وأهدافنا التي تزين لنا الرفقة والعيش المشترك في ظروف الهرب تلك، كما هو إيماننا بعدم قدرتنا على دفع مانواجه، فالأعداء المطالبون بدمنا عصابة أوغاد تعلموا الجريمة منذ الصغر، ماتت قلوبهم، وأمامنا أسماء وتواريخ مافعلوه بمعارضيهم في المعتقلات والسجون.

كان أبو كريم يحدثنا عن التعذيب الذي لابد لنا من احتماله حينما نقع في أيدي جلاوزة السلطة. أتذكر أن اكثر ما أرعبني من صور التعذيب هو تقطيع أوصال السياسيين وذر الملح على جروحهم ليتعذبوا أكثر. كانت الصور التي أسمعها وأراها بعقلي تفوق الخيال، وأعود لأتلمس جسدي النحيل وجنيني الذي لا أدري هل سيولد أم يموت، هل سأراه وأعيش معه مثل كل الأمهات السعيدات اللاتي يحصلن على حقهن بالحياة. يوصينا أبو كريم كل ليلة:

إن وقعتم بأيد السلطة، لا تدعوهم يعرفون أنكم تعانون من مرض ما، لأنهم يركزون على مرضكم ويجدونه نقطة ضعف لإسقاطكم بشرك الإعتراف.

عجبا، كأنه كان يحاول أن يقنع نفسه بأنهم لن يعرفوا عن مرض كليتيه حتى لا يركزوا لاحقاً بذاك الوجع ضرباً مبرحاً، وبوحشية على منطقة الوجع ليستشهد تحت التعذيب ويترك ستة أطفال في عراق الحروب والفقر والقهر..

هل كان يحدس بما سيحل به؟.

أوصانا ابو كريم، في حالة اختطافنا ان نحاول الصراخ بأعلى صوت ناطقين باسمائنا ليسمعها من يمكن ان يسمعها وليعرف مصيرنا ربما من خلال ذلك الشخص. أوصانا ان نقف في احدى زوايا الزنزانة ان افلتوا علينا كلبا مسعورا او قطة متوحشة ليسهل علينا الدفاع عن انفسنا في الزاوية اكثر مما لو كان ظهرنا لحائط مستقيم. حدثنا عن ضرورة الصمت وعدم الاعتراف على أحد لأننا سنتعرض للتعذيب ان اعترفنا أو لم نعترف. أوصاني كثيرا أن لا أفشي خبر حملي ان أمسكوا بي.

حين آوي الى الفراش أتخيل ماسوف يحل بي لو اعتقلت. أغيب للحظات عن عالم الضوء لعتمة السجون، لكن حركة الجنين في بطني تعيدني الى ذاك المنزل السري والى رفاق الموت والحياة.

أغلقت السلطة علينا أي طريق للعودة، فمن يتهم بالمعارضة تلتصق به التهمة أبدا، كالوشم الذي لا يفارقه حتى القبر. كان هذا يسهّل علينا كل شيء بعد أن آمنا بفكرٍ اعتقدنا أنه قادر على بناء الجنة على الأرض، ويدعونا لأحتمال كل قسوة مهما استشرست وواجهتنا بلا ملامح. تضحكنا أشياء لا تضحك سوانا، مع إدراكنا أن الهلاك يحيطنا وقد يفتك بنا في أية لحظة..

ما الذي نستطيع فعله سوى أن نعيش أيامنا متخفين نتابع أخبار العالم وأخبار من مات تحت التعذيب، ومن أغتيل في سيارة على الطريق، مثل خالي الذي قتلوه أثناء عودته مساءً الى بيته، وأُعتبر قتله حادث سير. ازدادت حوادث السير في العراق بشكل مرعب، ومن سيشك بهذه الحوادث؟ بل من يحق له الحديث عن هؤلاء الموتى على الطرقات؟

هل يستطيع الأهالي رفع دعوى على أحد بسبب هذا الموت المتكرر يوميا؟ من يجرؤ على قول كيف، ولماذا..

كنا نتابع ذلك من خلال رقم تلفون غير معروف لدينا لسرية العمل. يحفظ هذا الرقم في ذاكرة شخص من غير الساكنين معنا ويوصل الأخبار لأبي كريم في إحدى جولاته خارجاً في أوقات معلومة وقليلة متفق عليها مسبقا ..

لا نعرف ماذا ننتظر سوى تدبير طريق للهروب من الوطن. إقتنعنا بأننا نواجه عدوا خطرا، والبقاء في الوطن صار مجازفة. علينا اذن المحافظة على أرواحنا في أي بلد كان حيث يستحيل علينا البقاء أحياء بوطن انجبنا واحببناه، ثم بعد ذلك نبقى نتحين العودة في أوقات انفتاح ننتظرها أو أي ظرف آخر يبعد عنا الموت الجماعي.

هل سيدبر أبو كريم طريقاً لي بعد أن عُمم اسمي كممنوعة من السفر على كل الحدود؟.

وترها الضائع

تنـهار سـومر باكيـة، تشـرب وتـدخن وتسـتنجد بـي أن أرافقهـا وأستمع لها، تقول لي انني أصبحت طبيبها، اذ لا أحد يستطيع فهمها سواي. كنت أخشى عليها من الانتحار، بعد أن حاولت ذلك بتجرعها الكثير من حبوب منومة، نقلتها على اثرها الى المستشفى. فتحدثني من على سريرها في المستشفى قائلة:

البارحة اتصل بي طالبا مني ان اسمع قصة حب يؤكد أنها من نسج خياله وليست حقيقة، قرأ لي مقطعاً من كاتب عاشق مغرم بامرأة تصغره كثيراً. رجل غرق لهامته بعيون وابتسامات وعطور وجسد امرأة لا تقاوم، ألهبته رغم الفوارق وهزت كيانه حداً جعله يسأل ذاته هل عشقَ قبل الآن ياترى؟

ولأنني اكتشفت سرقاته من قبل، حفظت بعجلة جملة مما قال وبحثت عنها في النت فوجدت اسم الرواية وكاتبها وصرت أكمل له الجمل قبل أن يقرأها، وهو مسترسل بالقراءة وبصوت المتاثر والكاتب الحقيقي، مستبدلاً اسم المرأة المذكورة بالرواية باسم شائع من اسماء النساء في بلده. لا أنكر أنني ارتبكت وفارت الدماء في عروقي غيرة، لكنني حينما رأيت الرواية في النت واجهته قائلة:

- لماذا تفعل هذا وماهو الدافع؟ فأجابني: أريد أن أراك تغارين عليّ . قلت له:

- ألا تتذكر أنها ذات المقاطع والرواية التي قرأتها لي قبل أعوام وأنت تقول لي يومها :

- أنظري ياحبيبتي كيف أن الكاتب هذا يكتب روايتنا ويترجمنا وكأنه فتح قلبي وعرف مابي، كأنه رآكِ ليصفك، كيف جاء هذا التشابه بالمشاعر والعواطف؟

ألا تتذكر في أول سنة لحبنا؟ في بدء اعوام الخوف والقلق والدموع والسهر والانتظار، اتصلت بي في الساعة الثانية عشرة ليلا لتقرأ لي من الرواية عبر الهاتف حتى الثانية صباحاً. كنت مأخوذة بصوتك حينما تقرأ، تستطيع بأدائك أن تقنع الاخر أن هذا من إبداعك أنت دون سواك.

أغلقت الهاتف، فكرت وأنا أتمنى أن يجيب عقلي على سؤالي، لماذا يفعل ذلك؟

عدت لما قبل الأعوام لأتذكر سرقتك لمقاطع ورسائل عشق نقلتها وأضفت لها اسمي لتكتبها على أوراقك وبخطك مدعياً أنها معاناتك بحبي..

هل الفراغ التهمك هناك في بلدك حيث لاعمل لديك سوى ما يربك أحاسيسك؟ وهل صحيح ما قاله أحد علماء الإجتماع من أن الحب هو حركة القلب الفارغ، وكيف فرغ قلبك مني؟ نعم لقد فرغ، لا تحاول أن تخدعني بحجتك أنك تريد استفزاز غيرتي، غيرتي ممن؟

هل انني أقوى على شيء غير حبك ؟ فماذا تريد أكثر؟

منذ عام وانت تسافر كثيراً كمن يهرب. هل لا بد لي أن أغيّب العقل لأصدق أن إنساناً يختار السفر والإبتعاد عمن يحب ويطيل السفر وينساه دونما سبب، ودون ذكرى تهزه بشوق أو رغبة؟ وتريدني أن أصدق أن الحب لا زال في قلبك..

قلت يوما، إنك صحوت من سطوة حبي فوجدت أن عشك الذي بنيته لسنوات قد هُدد، وإنك صرت تبني جداراً سميكا بين حبك لي من جانب وحياتك العائلية من الجانب الآخر . قلت لك كيف تستطيع ذلك، ولماذا تقتلني بداخلك؟

أجبت: إنك كلما تحاولين بطيبتك وجمالك وحبك وعذوبتك وعطائك أن تهدّي شيئاً من هذا السور، أرممه مرة أخرى. وكلما هدمتِ أنتِ جزءاً منه، أبنيه ليبقى بينك وبين حياتي العائلية ..

أي سور عجيب ذاك الذي تبنيه، انه يذكرني بسد يأجوج ومأجوج؟ وأية صراحة جارحة تقولها لي دون علمك ماتفعل بي صراحتك تلك؟. أنك تبني سوراً من اللامبالاة والإقصاء لي، وأنا أجمع أكوام الوهم حول قلبي ليقترب منك أكثر وليقصي سواك. كلما تبعدني أقرّبك، وكلما رفعت جدارك الفاصل فيما بيننا، ملأت أنا قلبي بضباب الاحلام لأبني من حب وخيال جداراً يتحول حجراً أمام الآخرين، أصدهم به لأبقى أحبك انت دون سواك.

تريدني أن أصدق أن رجلاً قوياً ووسيماً مثلك، يسافر شهوراً وحده في بلده الأم وببيته الأول، يعيش فيه وحيداً وبلا عمل ليستمتع فقط برؤية الطبيعة والأشجار بعيداً عن حبيبته وزوجه وأولاده؟ ويكون بلا عشيقة !

لا أدري لماذا أصدقك أحياناً حينما أتصل بك وأتابع تفاصيل حياتك على بعد فأطمئن لها؟

هل كنت أخدع نفسي لأبقي على تلك العلاقة؟ هل أنا امرأة أشكك بالرجال حداً جعلني لا أثق بك رغم حبك لي اكثر من سبع سنين

لم أرَ خلالها خيانتك لي مطلقاً؟ هل منحت الطبيعة المرأة الحاسة السادسة لتشعرها بتغير الرجل، حينما لا يخونها أمام مرآها ومسمعها؟

وهل الطبيعة تعرف أن لا وفاء عند الرجل، وعلى المرأة إما أن تكون غبية وموهومة لتسعد بحبها، أو شقية حينما تحرك رأسها باتجاه الشكوك والوصول الى الحقائق عن طريق الإحساس المعذب الذي لا نهاية له؟.

آخر مرة سافرت بها وحيداً اتصلت بي لتخبرني بسفرك بسبب وفاة حارس مزرعتك، مما يضطرك السفر سريعا لايجاد بديل والقيام بجملة امور ضرورية هناك، قلت لك يومها:

إنك كاذب ولديك امرأة تريد الذهاب لها، آشتاقت لك فطلبتك بعد فراقك عنها بشهر. غضبت وأغلقت الهاتف. وحينما قتلني البكاء والحرقة لساعات، اتصلت بك مرات و لكنك كنت قد أغلقت هاتفك، ثم اتصلت لتقول لي لابد لك أن تطمئني، فأنا لست كغيري من الرجال وصرت تشرح لي تفاصيل حياتك اليومية في بلدك منذ الصباح حتى النوم المبكر قبل التاسعة ليكون منزلك هناك مثل منتجع تجدد به شبابك وصحتك وروحك..

هل صحيح هذا الذي يحصل؟ لماذا كنت تعود سابقاً من الرحلة متعباً ساهماً لا حياة بك، بل تعود وقد ازدادت الشعيرات البيضاء في رأسك، أما الآن تعود من السفر وكأنك عدت عشر سنوات الى الوراء، بل انك تعود أكثر رشاقة وشباباً وحيوية وقوة؟. هل لأنك كنت تسافر مع زوجتك، والآن تسافر وحدك وترتاح أكثر دون منغصات؟ أم أن هناك عشيقة شابة تعيد اليك الحيوية والشباب؟

ليتني أعرف ذلك وليتني أرى حياتك هناك. لا أدري لماذا تحجب عني الذهاب لبيتكم الكبير الذي صار لك بعد موت والدتك. ولا أدري لماذا لا تقنعني أعذارك، فانت تدعي رغبتك باصطحابي الى هناك لكنك تعتذر بحجة مرافقة زوجتك لك في سفراتك الأخيرة.

والآن، ها أنت منذ عامين تسافر وحيداً بعد ان تركت عملك هنا، لتبقى هناك شهوراً حيث زوجتك مرتبطة بعملها هنا، فما الذي جرى؟ وما الذي يمنعك من اصطحابي لتعود لي بصورة المنزل وحديقته ومابه من مسبح ونافورة وأزهار جميلة ومتنوعة، قائلا ليتك ترينها.

ما الذي يمنعك ويقف بوجهك عن اصطحابي، سوى أن يكون لديك هناك حياة لا تريد أن أعرفها؟.

ها هو الطقس الصيفي الجميل، وأنا وحيدة أخرج لأتمشى قليلاً في المنطقة المحيطة بمنزلي، أتنفس الهواء الممزوج برائحة العشب الأخضر بعد أمطار خفيفة. الحزن يرافقني كظلي، أحسه ملتصقاً بي كشخصٍ أخر. ترى هل يشعر المارة بمرافقة الحزن لي؟ هل يرونه؟.

أرفع رأسي ناظرة لأعلى شجرة في الشارع، لابد من تحريك نظري نحو الأماكن البعيدة، لقد ضعف بصري من الجلوس في شقتي الصغيرة، حيث لا مدى ولا أفق بعيد يتعوّد عليه نظري فيقوى. لا أرى عبر النافذة أو الشرفة الصغيرة سوى المنازل المقابلة لي. بدأ بصري يضعف لقرب المسافات.

النجوم هنا ليست كما هي في بلادي، من أين لي النظر للسُهى لأفحص بها عيني كما في الطفولة، النجوم نراها قليلا، والغيم سيّد السماء غالباً في أوروبا.

العجيب هنا في بلد الورود هذه، أن القنوات والأنهار لا تعد ولا تحصى، أستغرب أنني اكتشف في كل مرة أخرج للتمشي قناة جديدة محاطة بالأشجار والورود. أقاموا عليها القناطر والطرقات المرتبة والمصطبات من حولها، لكنها فارغة إلا من الماشين مع كلابهم كواجب حياتي تراعيه قوانين البلد ورحمة الناس وحركات الرفق بالحيوان. أسير وحيدة، أقارن حياة الشرق بالغرب، والحيوان بالإنسان وفي كل مرة تكون كفة حقوق الحيوان في الغرب راجحة على حقوق الإنسان بالمشرق العربي.

أسير بين الأشجار والقنوات، عيناي حزينتان، جزعة، أتساءل:

ألا يكون واحد من هؤلاء المارة طبيباً نفسياً لينتبه لما أنا به، أو كاتباً يسألني عن سبب حزني لأشرح له كل مابي من ضياع وملل من الحياة؟. أين من يكتبني ويكتب حيرتي بك؟.

منذ أعوام وأنا هنا وحيدة، لا أحد يقول لي لماذا أنت حزينة؟ هذه حقوقي التي أفتقدها، عدا ذلك فالجنة لا تصل لهذا البلد الجميل بشيء. هنا أنهار العسل بأنواعه، عسل ورد الزعتر والياسمين وعسل ورود المزارع وغيرها من عشرات الأنواع.

الملل لا يغادرني رغم الجنة التي أراها وأعيش بها. الحزن لايتركني، انه يقبض أوعية قلبي ويشعرني بين الفينة والأخرى بالرغبة بالصراخ. اتمشى بين الحدائق والقناطر الزاهية بألوان الورود، واتذكر أن الجنة التي تصفها الأديان، فيها أنهار من العسل واللبن والخمر دون ذكر وردة واحدة، الجنة بدون حب وورد لا تساوي شيئاً..

أسير وحيدة متوقعة أنك تجلس الآن على الأرجح مع زوجتك. تشرب الشاي بالنعناع، أو تشرب كأساً مثلجة من نوع البيرة التي تحب

في حديقة بيتك الرحب، التي تجهد من أجل أن تكون أحلى حديقة بالحي..

هكذا أنت تحب أن يكون بيتك الأجمل، وحديقتك الأجمل. لكنك تخشى ان ترتبط بامرأة اجمل، وكنت تقول لي ان زوجتي ليست جميلة. ربما ان عقليتك الشرقية تخشى الارتباط بآمراة جميلة تأكلها العيون كما تردد دائماً، خاصة وأنا رأيت غيرتك المجنونة عبر سنوات ارتباطي بك حينما كنت تحبني حقا، فحينما تطفح تلك الغيرة الغضبى، تخرب كل شيء وتعيدك وحشاً من وحوش القرون الأولى، الى ماقبل الحضارة، عندها تكون مستعداً أن تحطم كل شيء أمامك، وتصير شخصاً آخراً، مرعباً، يرعد ويزبد ويقرر الإبتعاد حتى لو رأى أمامه امرأة تبكي وتتوسل حباً واعتذاراً. هل بسبب غيرة رجال الشرق الحادّة، يصبح الجمال في الشرق محاصرا ومحاربا، فنرى اكثر الجميلات فيه معذبات، فتشيع مقولة" الجمال نقمة على صاحبته"؟ ولماذا يعتقد رجال الشرق ان المرأة الجميلة غبية؟ ولماذا لايؤمنون بان الجميلة يمكن ان تكون لديها اهتمامات سياسية وثقافية كما الرجال؟

من خلال علاقتي بك رأيت أن غيرتك كرجل شرقي تحيلك الى جبار مخيف فتتجنب المرأة معك كل مايثير هذه الغيرة. ومنذ تلك اللحظة تبدأ تنازلات الأنثى، فتكبر عبوديتها لك بعد أن استعبدتَ جسدها بقوتك الخارقة، لتمنحك برحابة كل مساماتها كمارد ديكتاتور لا يقبل إلا بملكية كل قصور وزوايا روحها، وكل مكنونات ومجوهرات وثمار جسدها بكل هضباته وسهوله..

الغيرة تقتلني احياناً رغم أنني اقتنعت أنك لا تحبني، إنما أنا شيء لمتعتك ولرغباتك، تسعد حياتك بي كجارية وهبت نفسها لك بدون

مقابل. تنهشني الغيرة من زوجتك احيانا، فاضحك في سري واقول، كيف سيكون الوضع لو دخلنا الجنة أنا وأنت؟ انه لأمر مضحك جدا. ستُحشر زوجتك معك، ولك معها سبعون أو ثمانون حورية، تتجدد بكاراتهن كما تتجدد قدراتك الجنسية، فأية حياة لزوجتك أو لي حينما يكون الوضع هكذا؟ وأية لذة في حياة ملؤها الجنس بلا حب، وماهو نصيب نساء الأرض؟

يقولون إن الغيرة تنزع من قلوب الناس في الجنة، لكن أين الحب؟ وهل يوجد مع كل هذا العدد من الحوريات وقتاً للحب أم أن هناك شكلاً غامضاً للحب قد غيّب عنا يتلون مع وجوه حوريات الجنة؟ وأين الوفاء؟..

لو قالوا إن الإنسان يختار في الجنة من يُحب كشريكٍ له في الحياة الاخرى، وسوف يتم استنساخ أي إنسان يتم اختياره من اكثرٍ من شخص، وإن الوفاء يتجدد بقلوب الناس ويبقى، وإن الحب بين المرأة والرجل يتجدد باستمرار ويكبر، وإن الجمال والشباب يزداد ويخلد، ألا تكون أجمل؟ الا تكون الجنة مغرية للإنسان وبالتالي يستطيع الإيمان بها؟

لو قيل ان في الجنة يستطيع الانسان العودة لأي زمن شاء من الازمان ولأي مرحلة من مراحل حياته التي يختارها، ويستطيع ان يسافر بين الطفولة والشباب، ألا تكن الجنة مغرية لنا أكثر؟ أما أن تكون جنة مملة وغير عادلة، بل مضحكة وكاريكاتيرية، فهي تبسيط وسخرية من عقل الأنسان وعواطفه، وانعكاس لفكر رجال حرموا من المتع الجنسية، أو اصيبوا بهوس وأمراض النفس لتكون الجنة بهذا الشكل اللا إنساني والذي ليس به مايغري الإنسان العصري بشيء ابداً، خاصة النساء.

ها أنا أسير وحيدة، الدمعة تأتي وتذهب، أتساءل كيف انتهى الحب عندك؟ ولماذا تحافظ على بقائك معي؟ ترى هل أنا من قتل

الحب بإلحاحي عليك وتكراري كلمة أحبك؟ أم أنت الذي جعلت لقاءاتنا لا ترى النور؟ فمنذ عامين ونحن نلتقي بالمنزل فقط لا مقهى ولا مطعم ولا سفر، ليلة واحدة بالاسبوع، لا بشر بيننا لتراني من خلال عيونهم وأراك أيضا، ولا شيء يحرك الغيرة فيك ويشعرك بأهمية وجدودي معك، احترق كل يوم واغار من زوجتك. لقد قتلت أنت الحب، فالحب كائن حي يحتاج للغذاء والنور، قلتها لك مراراً وتكراراً، ولكن هل أنا محقة بذلك؟

هل أن الحب قتل هكذا لوحده أم أن طمعك بامتلاك كل مايستحوذ على اعجاب الناس هو الذي قتل الحب؟

لم أشعر مرة بالأسى لنفسي كما أشعر الآن، ولم أشعر بالتغيّر الذي حصل لك كما شعرت. لقد أخذتك مني امرأة أخرى ونسيتني. لقد كنت بالأشهر ماقبل سفرتك الأخيرة، تتصل بي كل يوم، وأحياناً أكثر من مرة. أما الآن وبعد سفرتك الاخيرة هذه بات تلفونك علي مستحيلاً، أما أن أتصل أنا وإلا فهاتفي لا ينطق. اتصل احيانا بنفسي، من تلفوني المحمول، لأستأنس وأتسلى بصوت رنين هاتفي المنزلي.

أتصلت بك قبل يوم اللقاء الاسبوعي، قلت لي الى اللقاء غدا، هل هو اخر لقاء لنا وستغيب لمدة شهرين، هل سيكون هذا العشاء الأخير الذي لن أراك بعده ابدا؟

هل سينتهي كل شيء وأقف الآن أمام باب جهنم الذي اكتويت به عشرة اعوام..

لقد اكتملت الان عشرة أعوام من القلق والغيرة والإهمال والإحساس بالهجران، سنوات من الإحباط والألم والإنكسار والهزيمة والجروح. سنوات

عجاف هزت كياني وقلبتني ونقلتني من الشباب الى الكبر. سنوات جعلتني أكره الرجال، وأفقدتني الثقة بأي رجل في هذا العالم ..

ورغم كل ذلك لم أستطع معرفة حقيقتك، كل هذه الأعوام ومازالت حياتك لغزاً مبهماً عندي، ولا زلت بعيدة وغريبة عنك، بل أراك مستعداً للتخلي عني بأي وقت ..

أسير وحيدة وألعن الحياة والظروف التي أتت بي، ليتني مت ولم أر أن الحياة مقسمة في كل شيء، قوي وضعيف. والضعيف دائماً كائن لخدمة القوي وراحته. القوي بالمال والسلاح كالقوي بقلبه، والقوة قسوة ووحشية. هل يستحق العالم أن يسمى متحضراً يا ترى وهو يُقسّم على هذه الشاكلة؟.

غدا هو يومنا الأسبوعي المقرر للقائنا، وهو آخر لقاء لتسافر لبلدك مع زوجتك لمدة شهرين. لم تتصل بي صباحاً كعادتك، وقبل يوم رأيت اسمك على النت وعندما دخلت لاتحدث اليك، كتبت لي على أنك "ماريا"، كتبتها بلغتها، وعرفت من بطء الكتابة أنك أنت الذي كتبت وليست هي. صعدت النار إلى وجهي وأحرقت عينيّ. حرارة تخرج من جوفي تلهبني فلا أرى سوى الحريق.

اتصلت بك لأقول لك لماذا لا تتحدث معي. كررت الرقم مرات عدة، وحين فتحت الخط قلت لي إن زوجتك هي التي كانت على النت حينما كنت انت مشغولاً مع صديق..

شعرتُ أنك كنت تكذب، وأعرف أنها لا تدخل على عنوانك الخاص، وكنت عندما أسالك، دائماً تقول: اطمئني هي لا تدخل عليه فهي لا تعرف كلمة المرور، فما الذي جرى وأنت كل الأسبوع لم تتصل بي؟ قلت لك سأسافر لبلدك، قلت:

- هل وجهت لك دعوة لتعزفي الألحان هناك؟ أجبتك:

- لا سأسافر لأرى بلدك الذي أحببت، سأسكن في فندق وسأدفع البطاقة وأجرة الفندق بنفسي واعتبرها عطلتي. اريد ان أراك هناك، ستأتيني للفندق، أليس كذلك؟ فأنا لم أسافر معك ولم أخرج معك منذ زمن طويل. ما أن سمعت مني هذا الكلام حتى تغيرت لهجتك وانتفضت قائلا:

- لابد لنا من الحديث عن أمور تخص العلاقة غداً. قلت لك:

- غداً أريد أن أرتاح واستمتع معك، فأنا مرهقة من إهمالك لي وعدم اتصالك واهتمامك بي في الاسبوع الأخير. أجبت مصراً على أن نتحدث عن أمور ضرورية. قلت لك:

- حسناً، غداً، لكن أرجوك لا تقل لي دعك مني وانظري لحياتك، فأنا لا أحتمل هذا القرار ولا أقوى على فراقك فهو قاتلي..

اليوم صباحاً هيأت نفسي للقاء كالعادة، قلت لابد من الإهتمام به أكثر وأن أنسى الإلحاح على حقي بالخروج معه. كنت كعروس حزينة خائفة من قراراتك الفجائية. رأيتك على النت لم أحدثك وبقيت أنت فترة طويلة دون أن تسلّم عليّ حتى خرجت منه. انتظرت اتصالك كالعادة لتخبرني عن قدومك في الساعة المحددة ولم تتصل..

الساعات الثقيلة تضغط على روحي والتلفون لا يرن. تعدت الساعة الثانية عشرة وأنت لم تتصل. لقد اعتدت أن تكون عندي أحياناً قبل ذلك الوقت، وأن تتصل بي قبل ذاك بساعة لتقول لي: هل تحتاجين شيئاً أجلبه معي، وماذا سنأكل؟ دون جدوى حملت الهاتف لأسألك أين أنت الآن، وبأي ساعة تأتي؟ رددت ببرود وبلا شوق:

- هل مهم أن آتي إليك؟

قتلتني دون علمك. تحملت رصاصاتك البطيئة لأقول لك أموت إن لم تأت، خاصة أنك مسافر بعد أيام. قلت: حسناً، بعد ساعتين، قلتها كمن يريد أن ينهي شيئاً عالقاً منذ سنين. هل أنا الشيء الذي علق بك منذ سنين وتريد الإفلات منه؟ أنا صرت شيئاً ثقيلاً، كيف؟

قبل أسبوع، وفي موعدنا الماضي، خرجنا للسوق لنشتري السمك. قلت لي: إنك جميلة والناس ينظرون لك ويحسدونني، لا أحد عنده امرأة فنانة وجميلة ورائعة ومخلصة، تحافظ على حياته العائلية وتحبه وتحفظ وده مثلي، أين أجد مثلك في هذا العالم؟

إذن، كيف تغيرت خلال الأسبوع الأخير الذي رأيتك تدخل به كثيراً على "النت"؟

هل عندك امرأة احببتها بعدي؟ ماذا كنت تتحدث معها؟ وماذا طلبت منك فقررت النهاية لي؟

بعد اكثر من عشر سنوات تتوقف اليوم كل التواريخ أمامي، لم تكتمل صورتك في ذهني بعد، ولم أستطع تحديدها.

من أنت؟ وكيف أحببتك كل هذا الحب وهمت بك حداً أنزلني من علياء كرامتي ليمسح بي الأرض وحيدة، لا وقت لدي لأي شيء سوى البكاء. هل انتهيت ياترى؟

عندما فتحت لك الباب، حاولت أن أكون كما أنا، وكأي لقاء سابق، استقبلك راقصة وأقبلك بحرارة فرحتي بدخولك علي. كنت دائماً حين أفتح الباب لك كأن الدنيا فتحت لي كل أبوابها. إنه وقت عرسي الاسبوعي. قلت لك أتمنى أن لا أحرم من دخولك هذا عليّ،

لكنـك كنـت لا كبقيـة الأيـام، كأنـك رجـل آخـر لم أره بحيـاتي، واجمـاً، حزيناً، بعيداً مشغولاً، ولست لي.

حاولـت أن أبـدو بـلا جـروح، وكـأنني مثـل كـل لقـاء، لم أتنـازل عـن رغـبتي بارتـداء ثـوب جديـد واشـعال شمـوع جديـدة فواحـة العطـر. استقبلتك كعادتي بملابس مغربة وعطر تحبه كثيراً وزينـة ببريق جذاب. ولكنك لست لي.

كنت اعتقدت أنني كشفت زيفك منذ سنوات، وعرفت أنني أدعوك للحياة وتدعوني للموت. كان اعتقادي بحدود أخلاقـي وقيمـي في الحـب والوفاء والصدق. كنت أخشى على حياتك العائلية من حبي، وبكل مثالية كنت أرضى بالقليل الذي لا يجرح زوجتك ولا يجعلها تشعر بالأسى على نفسها . وكم كنت أقول لـك إن تعاملها بحضـارة وكـأنني مسـؤولة عـن أي تصرف أحمق يصدر منك بحقها ..

كنت أشعر بيني وبين نفسي أنني اعتديت عليها وهي غافلة، وكان هذا يؤلمني حد القبول بوقت قليل منك معتقدة أنك تمنحها ماتبقى من وقتك ورجولتك الخارقة. وحين سـألتني يوما حينما كنـت مجنونا بـي بداية علاقتنا :

اذا عرفت زوجتي بعلاقتي بك فهي حتما ستخيرني اما تركك أو تركها فماذا أفعل؟

قلـت لـك يومهـا لا تتركهـا وسـتبقى علاقـتي بـك سـرية كـي لا تجرحها ..

صدقتك حين أخبرتني بأنك لم تخنها إلا معي، وها أنا اكتشف مالم يكن بالحسبان.

كنت تفند شكوكي كلما شككت بك، وأعود لألوم نفسي، وأحسب أن غيرتي فوق المعقول. أما اليوم، فهل سيكون اللقاء الأخير بعد كل الجروح التي رأيتها منك؟

كنت أعزي كل الجروح الماضية لشكوكي بك وغيرتي عليك أو إهمالك لي، أتحمّلها حباً، لكن، أن تعترف لي بعشقك لآمراة أخرى وتذكر لي متعتك معها، وصفاتها التي ولهتك، طالباً مني أن أختار رجلاً سواك وأشق طريقي في الحياة، فهذا مالم أتوقعه.

أي طريق بقي لي بعد كل سنوات الحب المجنون التي هدّتني وقتلت في الرغبة للحياة مع سواك؟ حبٌ مواعيده معدودة في العام. أليس هذا هو القتل بعينه؟.انك تقتلني ببرود المعتاد على القتل..

كل الذي مر بي كان هيناً، وكل المعاناة كانت لعبة أمام ما أعانيه الآن. لم يكن معاناة بل هو اغتيال مخطط له، وجريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد، عمداً وبوعي نفذتها بحقي، وبلا مبالاة كما قال الشاعر ..

وقاتل الجسم مقتول بفعلته وقاتل الروح لا تدري به البشرُ..

ماذا عليّ أن أفعل لأغتصب الزمن كما اغتصبني بشخصك، وبعثرَ سنوات عمري بين الوحدة، والانتظار، والعذاب؟.

همجياً كنت بحبك، وحشياً بلذاتك. كنت تقول لي وأنت تغسل دماغي كما غسلت دماغ زوجتك:

- أنا رجل طيب، حتى دجاج المزرعة الذي يهرب من الناس يقترب مني ويأمنني، دليلاً على طيبتي. وصدقتك أنا . صدقتك وآمنت بك، وعلى هذا اطمأن قلبي.

غالطت المبدأ القائل بأن الإنسان وحدة واحدة لايتجزأ، والأخلاق حينما تتردى من جهة ما، ستكون جاهزة لشق نسيج القيم القويمة في جهات اخرى. كنت أكذب على نفسي حينما أشك أنك تختلس وتزوّر، وأبرر لك اذ لا دليل كاف عندي. لم أواجهك بشكوكي خوفاً من فقدانك في عالمي البارد الذي كنت أنت متنفسه وجنته الوحيدة. هل أن حبي لك يسري على ما أقول وبانني انتهكت حق زوجتك؟.

لم أترصد لحبك يوما، ولا كنت أريد تلك العلاقة التي كنت تلح عليها وتخطط لها حتى وقعت ضحيتها. كنت أنت المعتدي، وكنتُ أنا المجني عليها، لا العكس..

كان عليّ أن أعرف أن من يسرق الأفكار ويدعيها لنفسه، أو يختلس المال ويرواغ ويعمل كل شيء من أجل الحصول عليه، سيخون حتماً. كانت تضللني رؤية بعض حركاتك مدعياً إنسانيتك أمامي، وماكنت قد خبرت حياة الراكضين وراء المال من خلال تمثيل أدوار ينجحون بها بالحياة لا ينجح بها أكبر الممثلين..

كنت قبل سنوات وحين قرأت ماكتبته لي من رسائل سرقتها من بطون الكتب، أوهمتني أنك تحمل إمكانية المبدع، فصرت أدفعك نحو الإبداع دفعاً. أعرف أنه لا يمكن خلق مبدع، إنما كنت أريد اثبات إمكانيتي على الوقوف بجانبك بكل استطاعتي..

حاولت أن أقول لك إنك ستكون أحسن حالاً معي، وكم كانت توقعاتي خاطئة، إذ أن ثلاثين عاماً من وجودك في مجتمع أوروبي متحضر مع امرأة أوروبية من طبقة راقية، لم تعلمك الحضارة، ولا هي خلصتك مما علق بك من عقد شرقية، حتى قتلتني حين بحت لي أخيرا بأن لديك في بلدك الأم إمرأة عرفتها وأحببتها وأنت مشغول بها.

وتخبرني ببرود أنك التقطتها من الطريق، حينما كانت تريد استغلالك وتفتعل القصص الكاذبة من أجل ذلك.

تركتك تحكي بعد أن جرجرتك للبوح، وادعيت أمامك بأن أي شيء سوف لا يؤثر على علاقتنا. سمعتك وأنا مقتولة ومندهشة لتقول لي:

هكذا نحن الرجال، نشعر بالمتعة حينما تستغلنا امرأة.

إلى هذا الحد تستغفلني وتعتقد أنني سأصدقك. وبعد سنوات طويلة من معرفتي بك، تريدني أن أصدق كل ماتدعي ! عجباً ! وكنت تقول لي إن مجرد صوتك على الهاتف يثيرني.

هل عندما تصبح المرأة معطاءة تذكركم بالأم التي لا تثير فيكم الجنس؟ هل أرتبط الجنس والإثارة عند رجال الشرق المحرومين بالنساء الساقطات اللواتي مارسوا معهن أول مرة غالباً؟

كيف وأنت لا تحب المبتذلات كما عرفتك ولمست ذلك بنفسي، أين أجد الحقيقة من كل هذه الأمور، وكيف أعرفكم وأتعلم؟. يقول توماس مور:

"الداء الأعظم في القرن العشرين هو خسارة الروح، فعندما تهمل الروح، فإنها لا تغادر الجسم بل تظهر على شكل استحواذات وسواسية وإدمانات وعنف، وفقدان للمعنى، أما إذا لم تكرم قدرة الروح على الإبداع فسوف تسبب فوضى".

وها أنت أهملت روحك لتقع بفخ الفراغ والمال والتردي الى مستوى التقاط نساء الشوارع..

..ها هي شرفات روحي تطلّ على اللاشيء، بعضها تالف وبعضها قد يتلف من جروحك.

مَن كنت أنا إذن خلال تلك السنوات؟ هل كنت امرأة مخدرة بسحرك؟ أم موهومة ومغرر بها؟ أم اعتقدت أن الزمن سيتوقف بي وسوف أبقى ذات الشابة الجميلة التي تلاحقها عيون الرجال وتتمناها وتتذلل لها؟

اليوم أرى وجهي وجسدي بالمرآة. لأول مرة ألاحظ بعض التغيرات وأرى سباقي الآتي مع الزمن الفاتح فمه لالتهامي..

لقد ابتدأ سباقي مع الزمن منذ اليوم، ندمت لأنني ركنت اليك وسكنت حيث تقول لي دائماً:

حبي أنا لك للأبد ولن أتركك مابقيت في الحياة، وأسألك ببراءة المؤمن بك:

- حتى لو بعمر الثمانين عاماً؟ تقول:

- نعم، حتى بعمر الثمانين عاماً سألتقيك. وتضرب لي مثلاً بأم زوجتك التي ترتب لها انت وزوجتك بعض اللقاءات مع صديقها وهي في دار العجزة بعمر 85 عاماً. وتقول هل هم أحسن منا؟

آمنت بك وشعرت بالأمان. لكنك حينما أحسست أنني باقية لك بلا تمرد، أطلقت نارك عليّ وقتلتني. اليوم، حينما أعد السنوات بحبي لك وعذابي فيك، أجدها وكأنها مئات من السنين بكل متغيراتها وأوجاعها.

أموت لو يغتصبني الزمن كما اغتصبتني، وأموت لو نجحت ألاعيبه عليّ كما نجحت أنت.

آه مما بي...

تجلس سومر على الأرض وتبكي، هكذا هي غالبا حينما يزداد حزنها، لا تستطيع الا أن تنهار على الأرض شاعرة بالضعف والحزن الذي يفتت العظام والروح. وتكمل بوحها لي وكأنها تخاطبه:

لقد حدثتني عنها ذلك اليوم، وعن استمتاعك بها، وكأنما تستمتع لأول مرة في حياتك مع امرأة. أقول لك بقهر وحرقة:

- ألم تقل لي ذات الكلام؟ فترد:

- نعم، ولكن هاهي عشر سنين تمر على علاقتنا، لم تعد الأشياء كما كانت. أقول لك

- لكنك كبير السن، ولا تصدق أن شابة تحبك إلا على أساس استغلالك. تقول:

- أعلم لكنني أستمتع معها ..

تضرب سومر على فخذها وتندب:

إشربي ياروحي، فقد خذلك الحب وخذلتك مشاعرك، وخذلتك الأيام التي عشتها معه، هو لم يفقد شيئا وزوجته لم تفقد شيئا، فهو لا زال يخشاها ويريد إرضاءها. أنا فقط ضحيتهما، ضحية غبائها وعدم معرفتها بما يفعله زوجها، وضحية كذبهُ وخداعه.

ستفرح زوجته الآن بابتعاده عن البلد حيث نعيش بعد أن ترك العمل بنفس المؤسسة التي أعمل بها، ستفرح ظناً منها أنه يبتعد عن الخطر الذي أشكله أنا. وهاهو وجد له حياة أخرى آمنة وممتعة دون إثارة أية مشاكل. لم تكن وحدها التي لا تعرفك، كنت أنا مثلها لأنني تغابيت عن طبيعتك الهمجية التي لا تستطيع ترويضها سوى مومس. وقد وقعت عليها الآن، لأنك أنت أيضاً مومس على طريقتك بكل ما تفعل.

حدثتني كثيراً عن ممارساتك مع أقرانك الأطفال في الجامع، كنت تضاجع ولداً يصغرك بقليل يومياً، وبقيت تمارس معه هذا حتى إختط شاربك. قلت لي ضاحكا إنك كنت تمارس أيضا مع الحيوانات كالخراف والأرانب. كنت أبرر لك ذلك بجنون سن المراهقة وردود الافعال في حالة الكبت الجنسي عند الشرقيين. سألتك مرة:

- هل أخبرت زوجتك بكل فعالك هذه؟ تجيب بالنفي مضيفا.

- كيف أخبرها بذلك وأنا أمثل عليها دور الرجل الحضاري، أحمل شهادة عليا، وأعاملها برقي، ألبسها المعطف حينما نكون في مطعم أو أي مكان عام، كما أفتح لها باب السيارة، تماما مثل الرجال الأوربيين.

نعم. كيف تخبرها بماضيك وأنت تزعم أمامها أنك رجل كفء لإمرأة أوروبية متعلمة، وتوهمها بأن الحب مابينكما كبير إلى حد بقائه حتى الموت.

كنت تقول لي إن علاقتي بك مستقرة وثابتة، وتكررها دائماً، فمثلما كنت توهم زوجتك بالوفاء، كنت تخدرني وتغسل دماغي لأبقى معك كل تلك السنوات. كلنا ضحاياك، وكلنا ألعاب تلعب بها وتضحك. والظاهر أن عندك من الحقد الدفين والسادية مايكفي لأن تسخر بعذاباتنا وتستمتع. تقول إن زوجتك لا تصدق أي انسان يتهمك بعلاقة مع سواها، حيث استطعت أن تقنعها بإخلاصك لها حتى صدقت، كما أنها تخبرك كل ما يدور من حولها، لهذا أنت مطمئن ولن تستطع امرأة اختراق علاقتك بزوجتك.

ربما كنت تخبرني هذا كي لا أرتكب حماقة في يوم من الأيام وأخبرها بعلاقتك معي.

ترى هل أخبرت عشيقتك الجديدة بكل هذا؟ أخبرتني مرة أن ثقة زوجتك بك أتت من أحداث مرت بحياتكما معاً، وتسرد لي وأنت مضطجع بقربي قائلاً:

إنها عرفت أنني لن أخونها وبأن النساء يرغبن بي كثيراً ويحاولن أخذي منها. وقصصت لي عن كثير من المعجبات اللواتي حاولن الحصول عليك، ورفضت كما تدعي.

في إحداها حدثتني عن صديقة لزوجتك، أبدت اعجابها بك كثيرا وتجاهلتها أنت، فاحتالت عليك واتصلت بك طالبة تلبية دعوتها لبيتها دون اصطحاب زوجتك إذ لديها مشكلة خاصة تريد طرحها عليك. أخبرتَ زوجتك عن طلب صديقتها مستغرباً، فأجابتك زوجتك عن ضرورة تلبية دعوتها فلربما لديها مشكلة لا تريد أن تكشفها لها، كما نصحتك بأن من الأصول أن تحمل معك باقة ورد وأنت ذاهب لبيتها. ذهبت أنت مع باقة الورد، وما أن دخلت البيت وجدت تلك الصديقة ترتدي ملابس مثيرة وشبه عارية، والعطور تملأ البيت، وحينما قدمت لها باقة الورد هَجَمت عليك لتقبلك ولتحتضنك بطريقة من تريد ممارسة الجنس. رميت أنت بباقة الورد وهربت عائداً للمنزل. ما أن رأتك زوجتك عائداً بسرعة حتى حدست ماحصل. بعد يوم جاءت الصديقة لزوجتك مدعية علاقتك السرية بها. فوجئت انت باتهامها. رمقتك زوجتك بنظرة المتسائل والمنتظر رداً، فما كان منك الا ان أنكرت ما ادعتهُ عليك المرأة، ولمعت في عقلك فكرة تفضح كذب هذه الصديقة فطلبت منها دليلا يدعم مزاعمها وهو أن تصف أعضاءك التناسلية. فوجئت المرأة وأبدت عجزها عن وصف ماطلبت، اضطربتْ، ثم بكت منهارة واعترفت بكذبها، معتذرة لكما عن كل ماقالته من زور. طردتها زوجتك وقطعت العلاقة بها نهائيا. فهل كانت زوجتك تريد سماع وصف عضوك؟.

هل هذا ما كنت تعتبره إثباتاً يدل على صدقك إن لم تشرحه المرأة؟ فكيف بي وأنا أملك صورك عارياً بكل تفاصيل جسدك، وكيف ولي طفلة منك؟، ولن أفكر مرة واحدة أن اذهب بكل هذه الاثباتات لزوجتك، لأنني لا أحب أن أوجع امرأة أخرى وأفجعها . ولأن القانون هنا يسمح لانتساب الابن لامه، نسبت ابنتي لاسمي ولم اذكر اسمك، كي لا أكلفك الاحراج مع عائلتك. وها أنت تفجعني بنفسك.

ليت صديقتك الجديدة اتصلت بي لتقول ذلك. كان أهون عليّ من أن تبوح أنت بعشقك وإعجابك بها أمامي.. ولشعرت- على الأقل- بأنك لا تريد أن تؤذيني وتجرحني مثلما تخاف على زوجتك المعلنة من الجرح العميق والفجيعة بك، وأنه لازال في قلبك شئ من رحمة. ولكنك أطلقت الرصاص عليّ بكل برود، وبدون أي تفكير بنتائج مايحصل لي.

كيف لم تفكر بمقتل إنسان لا ذنب له سوى أنه أحبك ومنحك سنوات طويلة من عمره بكل تضحياتها وكتماناتها وسهد لياليها وحرماناتها؟

كل اللغات الأوروبية التي تتقنها لم تشذب همجيتك، وكل الكتب التي قرأتها من أدب أوروبي وسواه لم تحضّرك، وكل سنوات عيشك واستقرارك في أوروبا لم يمح شيئاً من بربريتك..

ترى هل ستكون هذه العشيقة الجديدة ضحيتك؟ أم ستكون أنت ضحيتها؟ أتمنى أن تعلمك درسا لم أستطع أن أعلمه أنا لك لترتدع عن إيذاء الآخرين بحبك، إذ لا أمل لي بزوجتك الأوروبية البريئة التي تنطلق من مجتمع علمها الثقة بالنفس وبالآخرين، فتعاملت معك على أساس هذه الثقة وأسبغت عليك صفة الإنسان الطيب والنبيل. إنها، مع الأسف، ليست قادرة على إيقاف نزواتك وشرورك..

تقول لي ضاحكاً: إن زوجتك درست في كتب الطب بأن الرجل في عمر الستين ليس لديه قدرات جنسية كبيرة، لأنك لا تمارس معها الجنس إذ هي أصبحت كبيرة بالسن ولا تثيرك، لكنها اعتقدت أن قدراتك الجنسية قد ضعفت فصارت واثقة منك أكثر، مما دعاها لتركك تسافر لأشهر وحدك دون خوف. تكرر عليّ دائماً إن زوجتك تصدق كل ماتقوله لها . وتتحدث ساخرا:

أقول لها إنني حين أسافر وحدي، انام مبكراً - مثلما أقول لك- وأغلق هاتفي منذ المغرب حين تكون صديقتي تنام معي حتى الصباح .. فأي خائن أنت؟

تبكي سومر ويصفر وجهها وتكمل بوحها:

في اليوم الثاني، وبعد كل ما أخبرني به، اتصل بي ولم أرفع السماعة فترك رسالة يقول لي بها:

حبيبتي، لاتصدقي كل ماقلته لك البارحة، انها مجرد قصة اختلقتها لانني أريد السفر وعدم العودة مرة أخرى الى هنا، ولا أريدك ان تتعذبي بحبي، أردت بكل ماقلت أن أجعلك تكرهينني، ولتختاري حياة أفضل مع سواي..

أين هي الحقيقة؟ وكيف أعرفها؟

الان أعترف أمام الكون، وأمام الزمن، وأمام عمري الضائع وخساراتي، وسأعترف لطفلتي لاحقا: انني لم أفهمك حتى لو بقيت معك مائة عام أخرى. فأي بشر أنت؟.

الوتر الشهيد

بعد عذابات سومر ومحاولتها الإنتحار التي لم تنجح، وبعد أن رفضت الكثير من الرجال الذين تقربوا لها ومنهم فنانون معروفون ورجال سياسة، غادرت الى بلد أوربي آخر للعمل في إحدى الفرق الفنية. بقيت هناك مدة عام تهتم بفنها وإنجازاتها الموسيقية. حصلت على جوائز. سافرت لبلدان لم ترها . كانت قوية، جذابة، محترمة وبارعة في الموسيقى. ولكن هل برأت من مرضها به، اهتمت بطفلتها كثيراً، وأصبحت كثيرة التساؤل معي ومع نفسها في آن واحد :

كيف كنت أرضى معه بالتعاسة وغبن الحقوق؟

هل ترى كنت أشعر بضعف اللاجئين فأرضخ لكل الظروف التي عشتها؟ أم لأنني استكثر على نفسي الحرية حينما أقارن حرية نساء الغرب بقهر النساء في الشرق وبكل مامسلط عليهن من إذلال وحرمانات يعشنها برعب مستور في مجتمع ذكوري لا يمنحهن أية ضمانات للأمان بين أناس لا يؤمنون بحقهن بالحياة كبشر.

أخبرتني في بعض اتصالاتها بي، بانها تريد أن تعوض طفلتها عن كل لحظة انشغلت بها عنها، وتقول بألم:

لقد أخذني الحب منها . أشعر بعذاب الضمير إزاءها . كيف غيبني جنون العشق كل هذه السنين. صحيح أنني لم أفارقها، لكن فكري وعقلي كان معه. كنت معها دون الاهتمام بكركراتها، دونما أقص عليها قصصاً مثل بقية الأمهات. كنت أتعجل مجيئه وأسرع بها الى الفراش

يوم اللقاء. كنت أفضله عليها وعلى نفسي، فأي غباء كان ليفقدني الاعتناء بها وأية أمّ أنا؟

آه لو تعلمين ياعزيزتي كم أتعذب بسبب ذلك وكم أود تعويضها عن كل مافات. وتؤكد سومر لي بفرح وحسرة:

– أتعلمين أنها الآن متفوقة في المدرسة ومبهرة لمعلميها؟ تقول لي مديرة المدرسة بأن"لقاء"ستكون مميزةً بالمستقبل، قد تكون عالمة أو فيلسوفة، أو نبية، وتضحك سومر قائلة:

– تصوري ياعزيزتي، أن المعلمة تقول قد تكون نبية، مع العلم أن لا نبية في تاريخ البشرية، إما لأن الله لا يثق بالمرأة رغم أنه هو الذي خلقها، أو أن الرجال أكثر قدرة على الكذب وإقناع الناس باكاذيبهم. لا أدري أعذريني من اللغو فأنا صريحة جداً ومتمردة الآن على كل شيء. المهم أن جميع المعلمين قد لمسوا في ابنتي المقدرة السريعة على التعلم أكثر من أقرانها بنسبة كبيرة. أخبروني إن ذكاءها فوق العادي، حتى أنهم يفكرون لها ببرامج خاصة للمتفوقين فقط والذين يعول عليهم في الابتكار والإبداع، وبقدر سعادتي بما أسمعه عنها في المدرسة أتألم لأنني انشغلت عنها يوماً بسواها.

لو أن باستطاعتي إعادة السنين إلى الوراء لأغدقت عليها وحدها كل عواطفي، لمنحتها حتى أحلامي الشاردة إليه طوال سنين.

سألتها:

سومر، هل لا زلت تبحثين عن الحب الان، وبعد ان انتهت علاقتكما؟ تجيب:

بصراحة، السعادة هي الحب، وأصحاب القلوب الطيبة لا ينتقمون من الغادرين. أرواحهم تتجدد ولا تموت بالهجران، بل هم لا يكلّون في

البحث عن العشق الحقيقي الدائم وصولاً للسعادة، تدعمهم الطبيعة بكل قواها الخضراء. وتكمل سومر كمن يرفع شعارا يهتف به:

السعادة هي الحب.

السعادة هي الحب بالاطلاق، والسعادة هي الحب حتى تنتهي الحياة على الأرض.

أسألها :

هل لازلت تحبينه؟ فتضيف بحسرة : وأتمنى ان أعرف خبرا واحدا عنه. اتمنى لو نسمة تقود لي عطره، اتمنى لو يأتيني بحلم، ولو لرمشة عين وأصحو. آه ياصديقتي، لقد نسيت كل مايجعلني أنساه. انني أحبه وسأحبه حتى الموت.

أسمع من شهقة صوت سومر عبر الاثير انها تمسح دموعها وهي تحدثني عن حبها له. فأية عاشقة هي !

تحمل سومر أحلامها معها أينما تذهب. تشعر بالغبن فغالبية العرب لا يقدرون الفن الحقيقي، بل يقدرون اللهو الذي يزداد على الشاشات العربية باستمرار، و كيف سيقدرون امرأة فنانة، جميلة دون رجل يحرس حدود طموحاتها؟

تسير على نغمات موسيقاها التي يرددها خيالها الحالم، تحلم أن تتعلم لغات أجنبية بوسع الموسيقى تستطيع من خلالها نشر رسالتها الإنسانية.

الإبداع بحث عن الجمال، والبحث لابد وأن يتجاوز حدود البلدان والشعوب. تؤمن سومر أن الإبداع يتشرب بالجمال بقدر مايبحث عنه،

وهذا الجمال لابد وأن يشع على العالم فيضيء كل عتمة، ينشر المحبة والنور والسلام بين الناس ..

تقول بأن الفنان الحقيقي نبي في زمن يحتاج إلى أنبياء جدد. أنبياء يتفهمون الإنسان الحديث وعلله واحتياجاته وتطور عقله. تؤكد على ان الفن قضية، ومبادىء، وتضحيات، وبراءة، وقيمة لا تعلوها قيمة. وبأن العالم العربي قد غادره الفن الحقيقي منذ زمن وعلى أهل الإبداع الصادقين إعادته إلى مكانته السامية، وهذا يتطلب النضال والتعب الشخصي..

يوم 9-11- 2005 كانت سومر مع طفلتها" لقاء" في الأردن، أرادت بعد غياب ربع قرن أن تزور أهلها عبر ذاك البلد المجاور. أرادت أن يرى من بقي من أهلها ابنتها الجميلة. أرادت أن تقول إنني لم أفشل في الحب، إنما عندي ثمرة رائعة تحتاج حبكم لتمتليء به وتنمو معه فتستطيع العطاء أكثر. أرادت أن تبكي على كتف من بقي لها من أهلٍ مزقتهم نيران البطش والحروب والقهر مدة ربع قرن وأكثر. أرادت رؤيةً تراب الوطن الذي دمرها غيابه وجعلها تبحث عنه في القلوب والابتسامات وقليل الاهتمام الذي تجود به أرواح الغرباء الذين يجهلونها.

كان لسومر نظرتها الخاصة للموت، فهي تظن انه نتيجة الدوار الذي يسببه دوران الأرض،حيث ترى أن الموت نهاية حتمية للعيش على كرة تدور باستمرار، حتما سيكون الدوار وهو الضعف الأول بسبب الكبر، ثم الضعف أي الشيخوخة والعجز وهجوم الأمراض، فالسقوط على الأرض، أي الموت الحتمي.

كانت تثبت لي ذلك قائلة:

بأن المرء إن دار حول نفسه لفترة من الوقت سيدوخ ويسقط من أثر الدوران، كذلك نكون في الحياة لكنه دوار بطيء جدا ينتهي بالوقوع في الموت.

وصلت سومر الأردن، دخلت فندقاً وحجزت غرفة لها مع طفلتها. شعرت بالاقتراب من الوطن، ولابد لها من البقاء هذه الليلة هنا لتنطلق غدا الى أرضها المنشودة التي تحب. في ذاك اليوم ارتسمت البهجة على وجهها وهي ترى الموسيقى تصدح في حفلة عرس لم تكتمل. لحظات معدودة، عجلة، غبية، شريرة، قصيرة، مغلوطة، مقلوبة على الزمن، مشوهة وحقيرة، لحظات بها يدوي انفجار همجي.

انفتحت أبواب الرعب والنار والدماء.

تمزقت أشلاء الناس، تطايرت الطفلة "لقاء" قطعاً معجونة بدماء سومر.

لم يمهلها الانفجار إكمال ابتسامتها وإكمال ماتسمع من معزوفة. رحلت مع أحلامها، دون القاء نظرة على الوطن الذي انتظرت العودة له كل تلك السنين.

رحلت "سومر" مع "لقاء" دونما اكتمال لحياة أو فرحة أو طموح أو لقاء، فجميع أحلامها لم تكتمل بعد. لم تقل رسالتها للعالم كما أحبت. تطايرت الأشلاء دونما تطلق لقاء ثمرة ذكائها الجديد.

رحلت سومر مع لقاء وأغلقت نوافذ حياتهما الحزينة، وماعاد للحياة طريقٌ لموسيقاها.

رحلت سومر، ذابت رنات أوتارها وحسراتها الموجعة وأحلامها المذبوحة في المسافات، في الأرض، في الهواء، في الليل، والزرع، والسماء،

والشـوارع، والمطـر، والنخيـل، والصـحاري، والنـدى والنجـوم، والغربـة، والوجع، وإطلالات الفجر وفي أصغر حبات الرمل، وفي قلبي...

وتري الطليق

كان الوقوف هذه المرة أمام ضابط تفتيش الجوازات مختلفاً تماماً، فاسمي ليس هو إسمي، وخوفي ليس خوفاً واحداً، إنما هو خوف معقد ومزدوج. فلو أمسكوني لهفوة ما، سأكون معارضة خطرة للنظام، كما أكون مزورة ايضا، وسأعدم آلاف المرات، وليس مرة واحدة.

ماذا سيفعلون بي؟

يمزقونني بفرامة اللحم؟ أم يقطعون أجزاء جسدي ويطعمونها للوحوش؟

رغم كل هذه الأفكار المرعبة شعرت أنني أنا "حسناء أكرم صادق" ولست موناليزا.

حسناء أكرم صادق، هو اسمي الجديد، وأنني امرأة لا تعرف شيئاً عن السياسة والمعارضة وتبتسم بسذاجة.

حدق بي الضابط مغازلاً وهو يقول:

- حسناء واسمك يشبهك. رددت بثقة وبشموخ من هو غير ممنوع من السفر:

- شكراً

- حسناء أكرم صادق، لا يوجد اسمك في المنع، تستطيعين السفر ونتمنى لك سفراً سعيداً ايتها الحسناء ونتمنى ان نحظى برؤيتك في العودة..

ختم الضابط على الهوية التي سُمح السفر بها بين سوريا والعراق انذاك. كنت محظوظة اذ حصلت ذاك الوقت على هوية شخصية لي، هوية زورت في مديرية الجنسية عن طريق موظف معارض يعمل في هذه المؤسسة. كل ما أتذكره هو أن اسمه " زهير"، هذا كل ماعرفته عنه في ظروف عمل سري وموت جماعي يحدث كل يوم في سجون رهيبة، وقد يكون اسمه مستعاراً.

لقد أراد "زهير" إنقاذ مئات الأشخاص من معارضي النظام بعمل هويات مزورة لهم ليسافروا بها الى خارج الوطن، ليعيشوا فقط وكيفما اتفق، وفي أي مكان بعيداً عن الموت المحدق بهم، وقد سمعت أنه اراد أن يسافر قبلنا، نحن الذين منحنا الحياة بهذه الاوراق المزورة.

اكملت اجراءات السفر واتجهت نحو الطائرة. كان ذلك بتاريخ 5- آذار- 1979. تاريخ رسخ بذاكرتي حتى الموت، تاريخ لا أدري هل أنا أحبه حقاً، اذ أوصلني لشاطيء الحياة الآمنة؟ أم أكرهه لأنه الصفحة الأولى لغربتي وصدمتي المريرة بالفراق لكل ما أحببت منذ الطفولة. الصدمة التي لن تزول مدى العمر، وقد تبقى حتى لو عدت ثانية الى الوطن، فالذي شطرته الغربة أجزاءً ولسنوات طويلة، لن يلتئم جرحه مهما عاش وأينما ذهب، فاللا استقرار والقلق سيستوطنان دمه وروحه، وسيعذبه الحنين الى المكان الذي لايستطيع تحديده بالضبط بعد ان تشظّى لأكثر من مكان، وبعد أن تمزقت بداخله الصورة التي حددت انتماءه منذ زمن بعيد بعذابات الاغتراب وتنوع الحيوات وأنماطها، وبعد أن أكل وشرب من أكثر من ينبوع واحد للحياة، وسار طرقاً، ولمس مدافئ حنان في عز البرد، وتفيء بأشجار، وعبر جسوراً لأنهار وبحيرات أحبها فسكنت أعماقه وظلت تحدق به وتناديه بل وتستحلفه العودة اليها أينما كان.

نظرت إلى الناس وأنا صاعدة سلم الطائرة، غير مصدقة أنني مثلهم، لدي الحق بالسفر وعبور الحدود، وبالطائرة التي أصعد بها أول مرة بحياتي.

كانت جارتي على مقعد الطائرة شابة من أهالي الموصل، سألتني عن سبب سفري ونحن في السماء، فأجبتها أن خطيبي يدرس في سوريا وأنا ذاهبة له كمفاجأة ولم أخبره بحضوري. كنت أجلس قرب الشباك، وعندما أقلعت الطائرة طلبت مني جارتي في المقعد أن أركز على منظر بغداد من الطائرة قائلة: أنظري جيداً للأضواء التي تزين بغداد، كم هي جميلة للناظر لها من السماء، انها من أجمل العواصم.

تذكرت قولها هذا يوم 17-1-1991، حينما قصفت بغداد لأول مرة من قبل الجيش الأمريكي، قال الطيار يومها: "إن بغداد بدت له مضيئة وجميلة مثل شجرة عيد الميلاد" لكنه رغم ذلك قصف هذه الشجرة ودمرها بشكل مهول ذلك اليوم.

عرضت علي الشابة الموصلية بلطف امكانية توصيلي من مطار دمشق لأي مكان أريده، لإن أمها السورية الأصل ستأتي بسيارتها لأخذها، وتستطيع مساعدتي بذلك. شكرتُ لطفها معي مؤكدة بأني سأتدبر أمري، وفي سري كنت خائفة أن تتمسك بي أكثر. الخوف يلازمني في كل حركة. أفكر بضرورة الخلاص منها كي لا تعرف شيئاً عني. كم يحرجني وضع التهرب من الناس هذا، وكأنني مجرمة، لكنني مجبرة عليه دفاعاً عن النفس..

كانت الساعة العاشرة مساء حين نزلت الطائرة إلى مطار دمشق. لم أصدق أنني أصبحت بعيدة عن العراق بكل مابي من حب له وبكل مايكتنفه من رعب وخوف وموت وسجون. وصلت إلى بلد لا أعرف به

أحداً، مرت أمام عيني كل الوجوه التي رأيتها منذ أن حاولت أول مرة الخروج من العراق. تذكرت زوجي ورفاقي الذين ينتظرون الموت.

أشعر الآن أن كل أراضي الكون أكثر أماناً من وطني، فما أقسى هذا الشعور، وما أتعسنا في هكذا حكومة بأجهزتها الإستخباراتية المرعبة .. تذكرت وقتها ماقرأته من أن كونفوشيوس الحكيم حين كان يوما في بلد من البلدان، وجد امرأة تبكي على قبر ابنها الذي أكله الوحش. وبعد عام وجدها تبكي ابنها الآخر. وبعد عام آخر وجدها تبكي زوجها . جميعهم أكلهم الوحش الذي يأكل الناس في تلك البلدة. فقال لها كونفوشيوس:

- لماذا لا تسافرين إلى بلد آخر؟ ألا تخشين على نفسك من هذا الوحش؟ فأجابته:

- إنني لا أستطيع ترك بلدي قال:

- لماذا؟.

- قالت: لأن حاكم هذه البلدة حاكم عادل، فأين نجد هكذا حاكم؟

نعم، الناس تحب أوطانها حينما يكون الحاكم عادلاً، ولو كان في البلدة وحوش.

بعد ان أكملت اجراءات الدخول وقلبي يخفق أخذت تكسي من المطار الى قلب المدينة وكأنني أعرفها . حاولت أن اكون أمام السائق واثقة من نفسي صامتة مشغولة بافكاري وما أحمل من أمتعة سفر. نفحت السائق اجرة عرفت أنها ضعف مايستحق ونزلت في قلب العاصمة دمشق. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل. الرجال يسيرون ناظرين

لي وأنا أسحب حقيبتين كبيرتين أكبر من حجم جسمي كله. لا زلت شابة لم أكمل العشرين من العمر ومن يراني يظنني في السادسة عشر.

أحدهم يقترب مني ناظراً لي بعينين شبقتين قائلا:

- عندي شقة مفروشة اتأتين معي؟.

أسير وكأني لا أسمع.

رجل آخر يحاول أن يضرب مرفقه بجسدي.

أبتعد عنه والخوف يفضحني. ها أنا أجد فندقا كبيرا، دخلت باحثة عن غرفة، ولم أجد.

التعب الواضح عليّ حرك شهامة موظف الاستقبال الذي تعاطف معي وأبدى مساعدتي مبادرا بالاتصال بفندق آخر بحثا عن غرفة لي.

أغدقت عليه بالشكر وأنا انتظر النتيجة، قلقة، أكاد أبكي من التعب. أخيرا وجد لي غرفة بفندق قريب وفي الشارع نفسه، ذهبت بسرعة ممتنة من موقفه الطيب. أتذكر كان اسم الفندق الذي توجهت اليه "السعيد- الخيام سابقا". دخلت الفندق وسألت عن الغرفة فقال موظف الاستقبال:

- لدي غرفة لكنها بسريرين، أي تدفعين أكثر لتكوني وحدك ولكن هناك مشكلة، هي ان التواليت خارج الغرفة. قبلت بكل شروطه تبعته للطابق الأول حيث الغرفة التي تحوي سريرين وطاولة وكرسيين، الطاولة قريبة من نافذة على الشارع. وضعت أمتعتي وطلبت منهم أن يسمحوا لي بالاتصال التلفوني.

كل ما أعرف في هذا البلد هو رقم تلفون، اذن، لابد من الاتصال لأعرف الى أين أسير وماذا أفعل، وكيف ستكون أيامي المقبلة ومتى التقي بزوجي.

اتصلت برقم المحامي موريس، كلمته بعد أن طرحت عليه اشارة الصلة المتفق عليها أولا. رحب بي قائلا:

غدا الساعة العاشرة سأكون عندك. لم أستطع أن أقول أكثر. شكرته على وعد اللقاء غدا.

صعدت مسرعة الى غرفتي لأغلقها علي من الداخل بالمزلاج، تنفست الصعداء اذ شعرت بأنني وحدي وبأمان. ما ان بدأت بخلع حذائي واذ بطرقات على الباب.

- مَنْ هناك؟

- انا شغيل الفندق هل تحتاجين شيئا؟

لا شكرا ..بعد عشر دقائق تكرر الطرق على الباب.

- من؟

- انا الشغيل أريد تغيير الملاءات. قلت له :

- شكرا لا أحتاج.

قررت أن لا أفتح الباب حتى الصباح وليكن مايكون، وان لا أخرج الى التواليت مهما كنت متضايقة، فقد شعرت بالخوف من عامل الفندق الذي يحاول التقرب مني بشكل واضح. قد يكون سفري وحدي وصغر سني يجعل الرجال يستسهلون الحصول علي فيحاولون.

قررت أن لا أنام على الفراش بل أجلس على الكرسي انتظر الصباح وأنظر الى الشارع، وهذا مافعلته.

مرة أخرى يطرق بابي.

في هذه المرة لم أرد وكأنني نائمة. طرق الباب مرات عديدة وأنا استمع له بقلب خائف خافق.

أين أنت أيها الفجر، ومتى تأتي؟

بدأت رواياتي تسرد مع نفسي. بدأت اقلب كتب تواريخي وحكايا أهلي وناسي وبلدي وأصدقائي. اتوقع أشياء وأخاف من أشياء. مثانتي ممتلئة وريقي قد جفّ من العطش. ليس لدي ماء ولا امكانية إفراغ مثانتي، ماعلي سوى الصمود وأنا حامل.

الفجر يطل. أنظر من النافذة علّ زوجي هنا وفي هذا الشارع يخرج ليشتري طعاما للفطور. أضحك على نفسي من هذا التوقع وكأن هذه العاصمة شارع أو شارعان .

الصبح يبتديء بحركة الباعة المتجولين والعمال والكسبة والناس، أصوات السيارات والدراجات تملأ الشارع حتى ليخيل للمرء ان هناك سباق دائر بين الناس طوال النهار.

في العاشرة صباحا، طرق العامل هذه المرة بابي مناديا :

أختي، السيد موريس ينتظرك في الاستقبال.

هبطتُ مسرعة، واذ برجل تجاوز الستين من العمر، يسلم بوقار وبوجه مريح، صافحني وأكد على اسمي

قلت نعم أنا هي، قال:

آسف جدا يا ابنتي لأنني تركتك البارحة في الفندق. لم أكن اتوقع أن تكوني فتاة صغيرة هكذا . توقعت انك امرأة كبيرة كما اعتدت أن أستقبل. انا آسف كثيراً يا ابنتي إنها غلطة لا أسامح نفسي عليها، ولابد وأن أعوضك عنها لتسامحيني، هيا بنا نخرج من هنا ..

بسرعة البرق استعملت التواليت.

الان أستطيع أن أبتسم، وأن أتحدث براحتي، وأن أهبط السلم بسرعة نحو السيد موريس الذي قال:

- لنخرج من هنا واتركي الحقائب سنعود لها بعد حين.

أين ذهب بي وماذا حصل؟ وأين زوجي؟

وهل سأنجب طفلي بظرف طبيعي؟

كل هذا سيكون في بوحٍ آخر.

تمت في 1- 12- 2006

محطات من السيرة الذاتية

ولدت بلقيس في مدينة سوق الشيوخ- محافظة الناصرية- العراق.

نشأت وسط عائلة شعرية حيث كان والدها عبد الحميد السنيد شاعرا يلقنها وأخوتها ألفية بن مالك وبعض عيون الشعر العربي.

منذ صغرها تكتب الشعر حتى حازت على جوائز عدة وهي لما تزل طالبة في الثانوية. فازت بالجائزة الاولى للشعر على ثانويات محافظة ذي قار للاعوام 74 و75 و76 و77 وبالجائزة الاولى على ثانويات المنطقة الجنوبية عام 76 وذلك بمهرجان نظم في مدينة الكوت، وبالجائزة الرابعة على ثانويات العراق عام 77 وقد رفضت الجائزة من الوزير وكادت ان تعتقل.. صدر لها:

- اغتراب الطائر.. ديوان شعر باللغة العربية في عام 1996 (دار السندباد سوريا) والذي ترجم إلى اللغة الهولندية كأول مجموعة شعرية لامرأة عربية حيث صدر باللغتين العربية والهولندية عام 1998 وقد نفذت الطبعة من الأسواق في العام الأول لصدورها.

- مخاض مريم.. ديوان شعر باللغة العربية في عام 1997 (دار الطليعة الجديدة سوريا) وترجم من قبل ك.نايلاند وهو بروفيسور مستشرق في جامعة لايدن.

- أجمل المخلوقات رجل". ديوان شعر باللغة العربية . صدر عن دار موزوبوتاميا للنشر . بغداد، عام 2012

منهمكة بلقيس الآن بكتابة روايتها الأولى ولديها ديوان شعر جديد وكتاب حول المرأة ، اوضاعها وحقوقها ، لم يطبع بعد . تتميز بلقيس بحافظتها الشعرية النادرة و بطريقة إلقائها الخاصة والمعبرة .

- ارتحلت من بلدها العراق عام 1979 بسبب الظروف السياسية ودموية النظام الدكتاتوري وكان لبنان محطتها الأولى حيث عملت بصفوف المقاومة الفلسطينية بالتوجيه المعنوي وشؤون الجرحى. إبان الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام 1982 غادرت لبنان مضطرة الى سوريا لتستقر بها حتى عام 1994 حيث محطتها الاخيرة هولندا

اكملت البكالوريا في سوريا ، ودرست في كلية الحقوق جامعة دمشق.

ناشطة في مجال حقوق الانسان وقد عملت في تنظيمات عديدة في هذا المجال حيث ساهمت في تأسيس المنظمة العراقية للدفاع عن حقوق الإنسان في هولندا عام 1996 وعملت بهيئتها الادارية، وكرئيسة لها حتى عام 2008..

كتبت بلقيس اكثر من 300 مقالا نشر بأغلب الصحف والمجلات العربية، التي تناولت بها حقوق الإنسان ،قضايا الشعوب المضطهدة ووضع المرأة في العالم العربي والعراق خاصة، إضافة إلى المقالات السياسية والمحاضرات والكثير من القصائد.

عملت في هيئة تحرير صحف منذ ان كانت طالبة، ثم حررت صفحات المرأة وأدب وشعر لمواقع إلكترونية عديدة.

شاركت في العديد من الأمسيات والمهرجانات الشعرية التي دعيت لها في سوريا، مصر، المغرب، فرنسا ،الدانمارك، السويد، ألمانيا، بلجيكا، إنكلترا، النمسا، الكويت، الإمارات العربية المتحدة، العراق، إضافة إلى حضورها الكبير في العديد من المناسبات والفعاليات الهولندية، كما أجريت لبلقيس العديد من المقابلات الإذاعية والتلفزيونية في هولندا، سوريا، مصر المغرب و لندن بلجيكا والكويت والإمارات ، العراق وغيرها.

كُتب عن شعر ها العديد من المقالات في الصحف والمجلات العربية التي أشادت بموهبتها الشعرية كما أجريت معها اللقاءات الصحفية من قبل صحف عربية وهولندية.

اختيرت بلقيس من قبل منظمة العفو الدولية مع 150 شاعرة عالمية ضمن خمسة شاعرات عربيات هن نازك الملائكة، فدوى طوقان، سعاد الصباح وظبية خميس،وذلك كأهم شاعرات بالعالم، واللواتي تمتاز أشعارهن- كما جاء في الكتاب-بالكفاح من أجل الحرية والتوق لعالم خال من الاضطهاد والحروب والظلم، بل والرغبة في توضيح العلاقة الملتبسة بين المرأة والرجل وذلك بكتاب صدر عام 2000 باللغة الهولندية تحت عنوان(أفضل للحب أن لا يسمى)، وكتبت دار النشر(دي خوس) التي تعد أكبر وأشهر دار للنشر في هولندا: إن النصوص الشعرية لأهم شاعرات العالم، و قد اختيرت النصوص من لجنة مؤلفة من شاعرات عالميات ثلاث منهن قد حزن على جائزة نوبل العالمية للشعر.

ساهمت مع شعراء هولنديين بكتاب شعراء من لاهاي الصادر عام 2001

ساهمت بديوان شعر مع شعراء هولنديين بعنوان (شعر، لا قنابل) وذلك عام 2003

ساهمت بديوان شعر مع شعراء عراقيين صدر باللغة الهولندية بعنوان(ضوء المتاهة)صدر عام 2006

كُرمت بلقيس عام 2004 كشاعرة ومناضلة في حقوق الإنسان من قبل منظمة الفلسطينيين والتي تمثل الجالية الفلسطينية في هولندا، وذلك لمواقفها المبدئية في الدفاع عن حق الشعب الفلسطيني.

كُرمت عام 2004 من قبل منظمة حلبجة الكردية في هولندا وستة أحزاب كردية في هولندا كشاعرة ومناضلة لها مواقف إنسانية جريئة بخصوص حقوق الشعب الكردي.

حصلت على جائزة قلادة العنقاء الذهبية للشعر وذلك يوم 27-1-2012 بمهرجان خاص بالجائزة

اختيرت ضمن الشعراء العرب في المجلد الأول لكتاب " أنثولوجيا الأدب العربي المهجري المعاصر" الذي اشرف على جمعه الدكتور "لطفي حداد" والصادر عام 2004 عن دار صادر للنشر..

كُتبت قصيدتها " عصافير بني ملال" بالحبر الصيني على جدار عمادة جامعة مراكش في المغرب منذ عام 2005

كرمت بدرع الابداع من الاكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك عام 2009.

في يوم 11-11-2012 كرمت بدرع الثقافة الكرد فيلية في احتفال يوم الثقافة في ستوكهولم - السويد

أخرج لها المخرج العراقي كاميران رؤوف فلما بعنوان هجرة الطيور، تحدثت به الشاعرة بلقيس عن حياتها وفلسفتها وذكرياتها ومعاناتها مع الغربة كما القت بعضا من قصائدها وذلك عام 2004 وترجم الفلم الى اللغة الهولندية وحاز على اربع جوائز تقديرية وعرض في القنوات الفضائية الهولندية..

عملت في العديد من المنظمات الديمقراطية والإنسانية كرابطة المرأة العراقية، واتحاد الطلبة العام، كما ساهمت واعدت وحضرت عشرات المؤتمرات التي طرحت قضايا الديمقراطية وحقوق الانسان وحقوق المرأة والشباب.

عملت كإعلامية وأديبة في مراكز وهيئات ومنظمات ثقافية عديدة.

عملت كمكتبية في المكتبة المركزية لمدينة لاهاي منذ 1997- حتى 2006.

دار ميزوبوتاميا
للطبع للنشر والتوزيع

عراقيات

الرحيل الى ميزوبوتاميا ..... امل بورتر
العراق ما بين الحربين - رسائل ضابط انكليزي ..... امل بورتر
العراق المعاصر برؤى أجنبية ..... ترجمة : د. محمود أحمد القيسي
شاهد على العصر ..... حميد السعدون
ثورة وزعيم ..... د. عبد الخالق حسين
الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق ..... د. عبد الخالق حسين
أشجان وأوزان الهوية العراقية ..... د. ميثم الجنابي
التوليتارية العراقية ..... د. ميثم الجنابي
الحركة الصدرية ولغز المستقبل ..... د. ميثم الجنابي
فلسفة الثقافة البديلة في العراق ..... د. ميثم الجنابي
فلسفة الهوية العراقية ..... د. ميثم الجنابي
العراق - حوار البدائل ..... د. ميثم الجنابي - حاوره مازن لطيف
الصحافة الرسمية في العراق ما قبل جريدة الوقائع العراقية ..... سالم الالوسي
الطاغية والطغيان في العراق ..... شامل عبد القادر
رحلة يوسف رزق الله غنيمة الى ايران ..... طارق الحمداني
بغداد تبوح باسرارها ..... عباس عبود
بغداد ذلك الزمان ..... عزيز الحاج
صحائف بغداد ..... فؤاد طه
هيئة الدفاع عن ابتاع الديانات والمذاهب في العراق ..... كاظم حبيب
مثقفون عراقيون ..... مازن لطيف
محطات في فكر وحياة هادي العلوي ..... مازن لطيف
موسوعة المراقد والمزارات الدينية في العراق ..... مازن لطيف
يهود العراق ..... مازن لطيف
محاولة في فهم شخصية الفرد العراقي ..... محمد مبارك
الان والغد ..... مهدي الحافظ
العراق.. نبؤات الامل ..... مهدي الحافظ

الأعلام

الامام علي - القوة والمثال ..... د. ميثم الجنابي
هادي العلوي .. المثقف المتمرد {3 طبعات} ..... د. ميثم الجنابي
محمد مكية : رائد العمارة العراقية ..... علي ثويني

MESOPOTAMIA for Publication and Distribution

منشورات ميزوبوتاميا

ميز بصري .. سيرة وتراث ..... فاتن محيي محسن
الاب انستاس الكرملي ..... كريم عبد الحسين فرج
معاوية الثاني والتشيع في البلاط الاموي ..... محسن خزعل المحسن

العلوم الإنسانية

الثقافة القانونية للمهندسين والمقاولين ..... د. حميد لطيف الدليمي
منهجية البحوث العلمية ..... د. حميد لطيف الدليمي
التثقيف الصحي والبيئي ..... علي اسماعيل الجاف

الفلسفة

استعادة ماركس ..... سعد محمد رحيم
مفهوم الاخلاق عند ابي حيان التوحيدي ..... محمد مخلف الدليمي

السياسة

تجارب دنماركية ..... ضياء حميو
عن الثورة واليسار ..... عصام الخفاجي
إشكالية الدولة ..... علي حسن الفواز
اليسار الصعب ..... كاظم حبيب
الثورة العربية والمستقبل ..... د. ميثم الجنابي

الأديان

انثربوبوجيا النبي ..... محمد يونس
الصابئة المندائية ..... نعيم عبد مهلهل

التاريخ

بغداد في عصر الخلافة العباسية ..... (ليسترنج)
التاريخ المنسي ليهود العراق ..... مازن لطيف

الإجتماع

عشائر المسعودي ..... علاء المسعودي

الشعر

المنتفض ..... احمد كريم
اجمل المخلوقات رجل ..... بلقيس حميد حسن
لالىء طيفها ألق ..... حميد نجم الزبيدي
عن الوردة وهي تطيح بحياتي ..... حيدر الحجاج
ربما ..من يدري؟ ..... خزعل الماجدي
شـــوغات ..... خزعل الماجدي
كفوف الملائكة ..... د. مهدي المانع
الطائر والنخلة ..... ريسان الخزعلي
ثلاث مدن ، ثلاثة اسابيع في الصين ..... سعدي يوسف
الاعمال الشعرية الكاملة ..... سلمان داود محمد

MESOPOTAMIA for Publication and Distribution

منشورات ميزوبوتاميا

أسئلة طويلة مقلقة .....عبد العزيز الحيدر
حزن منفى .....عبد الكريم هداد
قمة الهاوية .....عبد النبي الشايع
هواجس ملتبسة .....عبد النبي الشايع
غواية الساعات.....عدنان الفضلي
اوروك سليل التعب .....علي الشيال
نبي الأنوثة.....فاطمة العراقية
نبوءة متأخرة.....الفريد سمعان
ذاكرة الرماد .....كاظم الواسطي
كثر الحديث .....كريم العراقي
مرثية البياض .....محمد حريب
ضماد الاسئلة .....ناظم الساعدي
الف ميل من الوجع ..... ناظم رشيد
سقوف هادي الناصر

شعر شعبي

مرايات ونده .....حمود كعيد
ابو سرحان.. كرستال القصيدة الشعبية العراقية .....ريسان الخزعلي
الحاج زاير .....ريسان الخزعلي
طريقة في الغناء (شعر) .....ريسان الخزعلي
مدخل للشعر الشعبي .....عبد الكريم هداد
عرس الماي .....كاظم غيلان
لون الليالي صعب .....كاظم غيلان
شذارت من العامي والمولد.....محمد حسين الاعرجي

نصوص/مقالات

عراق رومي شنايدر ..... نعيم عبد مهلهل
غراميات شاكيرا وسلمان المنكوب..... نعيم عبد مهلهل
الجبايش ..... نعيم عبد مهلهل
الناصرية ..... نعيم عبد مهلهل
غابريل ماركيز يكتب عن سامراء ..... نعيم عبد مهلهل
وجوه مرت.. بورتريهات عراقية.....عبد الرحمن مجيد الربيعي

الرواية والقصة

بائع الضحك.....ابراهيم سبتي
العربة الخضراء.....اسماعيل شاكر
الكلب الملاك(قصص) ..... صفاء سالم أسكندر
الشاكرية(رواية).....كريم العراقي
وهم الطائر(قصص)..... ناصر قوطي

MESOPOTAMIA for Publication and Distribution

منشورات ميزوبوتاميا

فيروز الأحدب (قصص).....نيران العبيدي
المعدان.....وارد بدر سالم
العودة الى البيت (رواية).....وديع شامخ

المذكرات

راحلون وذكريات ..... عزيز الحاج
رحلات تمفصلية ..... عزيز الحاج
مذكرات داود سمرة.....داود سمرة
سيرة قارع النواقيس .....الفريد سمعان

النقد الأدبي والثقافي

ملامح اسلوبية في الشعر الحديث ..... جاسم الخالدي
حوارات في النقد العراقي من التأثر الى الحداثة.....جاسم محمد
حفريات النص الشعري ..... حمد الدوخي
أقنعة النص ..... صفاء خلف
الثقافة العراقية- مقتربات في النقد الثقافي..... علي حسن الفواز
خطاب الحداثة دراسة ثقافية لتجربة الشعر الحر في العراق.....كريم شغيدل
المثقف التابع ..... مازن لطيف

المسرح

الاخراج المسرحي في العراق ..... عدنان منشد
قبل النخيل ارى الغروب(نصوص مسرحية).....محمد السيد محسن
علم الجمال في المسرح الحديث ..... ماري آن شاربونيير

الفن التشكيلي

الفن التشكيلي والمدينة.....ياسين النصير
التشكيل الجميل الجمالي.....عقيل مهدي
ضياء العزاوي .. منوغرافيا.....ضياء العزاوي

العمارة

معماريون عراقيون.....علي ثويني
في رحاب مأذنة سوق الغزل.....معتز عناد غزوان

دار ميزوبوتاميا
طبع _ نشر _ توزيع
العراق _ بغداد_ شارع المتنبي
البريد الالكتروني: hamawendi@yahoo.com
Mazin24@ymail.com
موبايل : 07905139941